في رحاب الدعوة

www.abulhasanalinadwi.org

العنوان: في رحاب الدعوة

إعداد: سيد عبد الماجد الغوري

عدد الصفحات: ٢٣١

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل الطرق

الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل

المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من

الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

طباعة - نشر - ترجمة

سورية - دمشق - حلبوني - شارع مسلم البارودي -

ص.ب: ٢٣٨٢ هاتف: ٢٢٢٦٧٨٦

www.daralfarabi.com

www.abulhasanalinadwi.org

في رحاب الدعوة

صفوة نفيسة من المقالات والمحاضرات في الدعوة

للداعية الحكيم، المفكر الإسلامي الكبير

العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

إعداد

سيد عبد الماجد الغوري

دار الفارابي

للمعارف

www.abulhasanalinadwi.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣ ـ ٣٥].

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨].

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

www.abulhasanalinadwi.org

● عن حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قَالَ : «وَالَّذي نَفْسِي بيَدِه لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوْفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيُوْشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عِقَاباً مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوْنَهُ فَلاَ يَسْتَجِيْبُ لَكُمْ» . [رواه الترمذي في باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، رقم الحديث (٢١٦٩) ، وقال: هذا حديث حسن] .

● عن دُرَّةَ ابْنَةِ أبي لَهَبٍ ، قالتْ: قام رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ وهو على المِنبر فقالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قال: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ وأَتْقَاهُمْ ، وآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ ، وأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وأَوْصَلُهُمْ بِالرَّحِمِ» . [رواه أحمد ، وهذا لفظه ، والطبراني ، ورجالها ثقات ، وفي بعضهم كلامٌ لا يضر ، (مجمع الزوائد ٧/ ٥٢٠)] .

● عَنْ أَبي هُريرة رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ دَعَا إِلى هُدًى كَانَ لَـهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُوْرِ مَنْ تَبِعَهُ ، لاَ يَنْقُصُ ذلكَ مِنْ أُجُوْرِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» . [رواه مسلم ، باب من سن سنة حسنة . . . . ، رقم الحديث (٦٨٠٤)] .

www.abulhasanalinadwi.org

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

وإنَّ من واجب المُسلم أنَّه أينما كان؛ يعتبر نفسَه مسؤولاً عن مجتمعه، ولا يتعامَى عن الأخطار بدسِّ الرأس في الرَّمل مثل النُّعامة، ولا يردِّدُ درس «كلُّ شيءٍ على ما يُرام» فإن على المسلم حقاً ـ في كل مكان ـ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والقِيام بالإصلاح وإزالة الفساد، وليحسب نفسه راكبا سفينة الحياة التي إذا غرقتْ غرقتْ مع الجميع، ولا أَروع وأَجمل من مَثَلٍ ضَرَبَهُ الرَّسولُ ﷺ لذلك، فلم أَجد له مثيلاً في آداب أيِّ ديانة وفلسفة أخلاق، رَوى النُّعمان بن بَشيرٍ عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُوْدُ اللهِ والوَاقِعِ فِيْهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِيْنَةٍ، فأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فكَانَ الَّذِيْنَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فقَالُوْا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فإِنْ يَتْرُكُوْهُمْ وَمَا أَرَادُوْا هَلَكُوْا جَمِيْعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيْهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيْعاً**»[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشركة، باب هل يقرح في القسمة والاستهام فيه؟ رقم الحديث (٢٤٩٣).

من «نصائح وتوجيهات للشباب المسلم» للعلامة أبي الحسن الندوي، صفحة (٤٧) طبع دار ابن كثير، دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

مقدمة الكتاب

الحمدُ لله وحدَه ، والصَّلاة والسَّلام على مَن لا نبيَّ بعدَه!

أما بعد: فإنَّ هذه مجموعةٌ لطيفةٌ من مقالاتِ ومحاضراتِ فقيد الدَّعوة الإسلامية ، العلاَّمة الإمام المفكِّر الدَّاعية الأَديب الشيخ أَبي الحسن علي الحسني النَّدوي ، الَّتِي دبَّجَتْها يَراعَتُهُ ، وارْتَجَلَهَا لِسَانُه ، عفوَ السَّاعة وفيضَ الخاطِر في فتراتٍ متقطِّعةٍ ومناسباتٍ مختلفةٍ ، في ضوء دِراسته الوَسيعة ، وتَجارُبه العَمِيقَةِ ، ومُمَارَسَتِهِ الطَّويلة في مجال الدَّعوة الإسلامية.

وقد يَجِدُ القارىءُ في هذا الكِتَابِ فقراتٍ مكرَّرة ونصوصاً مُعَادَةً في بعض المقالات والمحاضرات، فلا ينسى حينئذٍ أَنَّ الكِتَابَ عِبَارَةٌ عن مجموعةٍ مَعُدَّةٍ من المقالات والمحاضرات ، ولَيْس ككِتَابٍ مستقلٍّ أُلِّفَ بخطَّةٍ مَدْرُوْسَةٍ مِن قبل مُرَاعِياً لعدم التكرار ، ولكنَّه يَرى أَنَّ تلك المكرَّراتِ لَها ربطٌ وطيدٌ وصِلَةٌ عميقةٌ بالكلامِ الَّذي قبلها وبعدها.

نسألُ اللهَ تبارك وتعالى أَن ينفع بهذا الكِتَابِ كُلَّ مَن قرأَه ، ويتقبَّل جُهْدَ مَن أَعَدَّه خالِصاً لوجهه ، إِنَّه سَمِيْعٌ مُجِيْبٌ.

١٨/ شـــوال ١٤٢٢هـ
٢/ كانون الثاني ٢٠٠٢م

كتبه
المعتزُّ بالله تعالى
عبدالماجد الغوري

www.abulhasanalinadwi.org

ترجمة

العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي

هو علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، كان من كبار العلماء المفكرين ، والكُتاب الإسلاميين في هذا العصر .

ولِدَ عام (١٣٣٣هـ ـ ١٩١٣م) في قرية «تكية كلان» من مديرية «رأي بريلي» بالولاية أترابرديش (الهند).

نشأَ وتربَّى إلى التاسعة من عمره في حجر والده العظيم الشيخ عبد الحي الحسني (صاحب «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام») ، وبعد وفاة والده تعلَّم تحت إشراف أخيه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني ، وتربَّى عليه وعلى والدته ، التي كانت متعلِّمة وصالحة تقية ، فأحسنتْ تربيته إلى أن أكمل دراسته الابتدائية ، ثم التحق بجامعة ندوة العلماء ودرس على كبار أساتذتها في الشريعة واللغة العربية ، ومنهم الجدير بالذكر العلامة المحدِّث حيدر حسن خان الطونكي والعلامة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي المراكشي.

وقضى فترةً من الزمن في دار العلوم ديوبند الإسلامية (الواقعة في قرية «ديوبند») حيث قرأَ الحديث على الشيخ حسين أحمد المدني ، وكذلك قَضَى فترةً في معهد علوم القرآن بلاهور (التي كانت تجمع بلدي الهند وباكستان قبل انقسامهما) حيث قرأَ تفسير القرآن الكريم بكامله على المفسِّر المشهور الشيخ أحمد علي اللَّاهوري.

www.abulhasanalinadwi.org

تخصَّص العلاَّمةُ في التفسير والأدب العربي ، وعُيِّنَ أستاذاً لهما في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، ثم قام مدةً بتدريس الحديث الشريف فيها .

ثم انخرطَ في سلك جماعة الدعوة والتبليغ (لمؤسسها الداعية إلى الله الكبير الشيخ محمَّد إلياس الكاندهلوي) ودام مشتغلاً فيها بعمل الدعوة إلى الله في الناس خطابةً وكتابةً ، وخرج في سبيل الدعوة مرات في الخافقين داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابي البنَّاء في كل مجال ، ودُعِيَ محاضِراً ومفكِّراً وواعظاً هادياً بالرأي والفكر في الجامعات العالمية والمجامع العلمية والمؤسَّسات الإسلامية والمؤتمرات والنَّدوات في مختلف بلدان العالم .

اختُيِرَ نائباً لرئيس اللجنة العليا للتعليم في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، ثم رئيساً ، ثم أميناً عاماً لها ، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته ، وشغل بجانب ذلك المنصبِ مناصبَ الرئاسة والعضوية لطائفة من الجمعيات والمجالس في الهند وخارجها .

ـ كرئيس **مجلس الأمناء لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية** في جامعة أكسفورد ببريطانيا .

ـ ورئيس **مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية** لعموم الهند .

ـ ورئيس **المجمع الإسلامي العلمي** في لكهنؤ (الهند) .

ـ ورئيس **رابطة الأدب الإسلامي العالمية** (الرياض) .

ـ وعضو **المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي** بمكة المكرمة .

ـ وعضو **مجامع اللغة العربية** بدمشق والقاهرة والأردن .

توفي ـ رحمه الله ـ في الهند في ٢٢ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٠هـ (الموافق ٣١ من شهر ديسمبر ١٩٩٩م) وذلك عقب نَوْبة قلبية مُفاجأة ، رحمه الله وتغمَّده في وسيع جناته .

وللعلاَّمة مؤلَّفات قيمة في الفكر والدعوة والأدب ، منها الكبيرة الهامَّة

www.abulhasanalinadwi.org

والصغيرة المحدودة الحجم التي تتجاوز عن المئة أو أكثرها ، ومن أشهرها :

١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

٢ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية .

٣ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام (أربع مجلَّدات) .

٤ ـ السيرة النبوية .

٥ ـ الأركان الأربعة في ضوء القرآن والسنة .

٦ ـ المرتضى .

٧ ـ مختارات من أدب العرب (مجلَّدان) .

٨ ـ الطريق إلى المدينة .

٩ ـ إلى الإسلام من جديد .

١٠ ـ روائع إقبال .

١١ ـ العقيدة والعبادة والسلوك .

١٢ ـ إذا هبَّت ريح الإيمان .

١٣ ـ الإسلام : أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية .

١٤ ـ التَّربية الإسلامية الحرَّة .

١٥ ـ ربَّانية لا رهبانيَّة .

١٦ ـ قصص النَّبيين (للأطفال) .

١٧ ـ سيرة خاتم النبيين ﷺ (للأطفال) .

١٨ ـ قصص من التاريخ الإسلامي (للأطفال)[١] .

---

(١) ملخَّصاً من الفصول الأربعة الأولى لكتاب «أبو الحسن علي الحسن الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» لمُعِدِّ هذا الكتاب ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

ركائز الفقه الدعوي
عند العلامة أبي الحسن الندوي

بقلم: فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي

يقوم فقه الدعوة عند العلامة أبي الحسن الندوي على ركائز وأسس تبلغ العشرين، منها يطلق، وإليها يستند، وعليها يعتمد، نجملها هنا:

١ ـ تعميق الإيمان في مواجهة المادية:

تعميق الإيمان بالله تعالى، وتوحيده سبحانه: رباً خالقاً، وإلهاً معبوداً، واليقين بالآخرة، داراً للجزاء، ثواباً وعقاباً، في مواجهة المادية الطاغية.

٢ ـ إعلاء الوحي على العقل:

اعتبار الوحي هو المصدر المعصوم، الذي تؤخذ منه حقائق الدين وأحكامه، من العقائد والشرائع والأخلاق، واعتبار نور النبوة فوق نور العقل، فلا أمان للعقل إذا سار في هذا الطريق وحده من العثار، ولا أمان للفلسفات المختلفة في الوصول إلى تصور صحيح عن الألوهية والكون والإنسان والحياة.

٣ ـ توثيق الصلة بالقرآن الكريم:

باعتباره كتاب الخلود، ودستور الإسلام وعمدة الملة، وينبوع العقيدة، وأساس الشريعة وهو يوجب اتباع القواعد المقررة في تفسيره وعدم الإلحاد في آياته وتأويلها وفق الأهواء والمذاهب المنحولة.

www.abulhasanalinadwi.org

٤ ـ توثيق الصلة بالسنة والسيرة النبوية:

باعتبار السنة مبينة القرآن وشارحته نظرياً ، وباعتبار السيرة هي التطبيق العملي للقرآن ، وفيها يتجلى القرآن مجسداً في بشر (كان خلقه القرآن) وتتجلى (الأسوة الحسنة) التي نصبها الله للناس عامة ، وللمؤمنين خاصة ، لهذا كان المهم العيش في رحاب هذه السيرة ، والاهتداء بهديها ، والتخلق بأخلاقها ، لا مجرد الحديث عنها باللسان أو بالقلم.

٥ ـ إشعال الجذوة الروحية (الربانية الإيجابية):

إشعال الجذوة الروحية في حنايا المسلم ، وإعلاء (نفخة الروح) على قبضة الطين والحمأ المسنون في كيانه ، وإبراز هذا الجانب الأساسي في الحياة الإسلامية الذي سماه الشيخ (ربانية لا رهبانية) بإبراز العنصر الإيجابي في هذه الحياة الروحية المنشودة ، فهي روحية اجتماعية ، كما سماها أستاذنا البهي الخولي ـ رحمه الله ـ وهي ربانية إيجابية تعمل للحياة ولا تعتزلها ، ولا تعبدها ، وتجعل منها مزرعة للحياة الأخرى: حياة الخلود والبقاء.

٦ ـ البناء لا الهدم ، والجمع لا التفريق:

إن الشيخ الندوي جعل همه في البناء لا الهدم ، والجمع لا التفريق ، وأنا أشبهه هنا بالإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ الذي كان حريصاً على هذا الاتجاه الذي شعاره: نبني ولا نهدم ، ونجمع ولا نفرق ، ونقرب ولا نباعد ، ولهذا تبنى قاعدة المنار الذهبية: «**نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه**» وهذا هو توجه شيخنا الندوي فهو يبعد ما استطاع عن الأساليب الحادة ، والعبارات الجارحة ، والموضوعات المفرقة ، ولا يقيم معارك حول المسائل الجزئية ، والقضايا الخلافية.

ولا يعني هذا: أنه يداهن في دينه ، أو يسكت عن باطل يراه أنه خطأٌ جسيمٌ يشاهده ، بل هو ينطق بما يعتقده من حق ، وينقد ما يراه من باطلٍ أو خطأً ، لكن بالَّتي هي أحسن.

www.abulhasanalinadwi.org

٧ ـ إحياء روح الجهاد في سبيل الله تعالى:

إحياء روح الجهاد في سبيل الله ، وتعبئة قوى الأمة النفسية للدفاع عن ذاتيتها ووجودها ، وإيقاد شعلة الحماسة للدِّين في صدور الأمة ، التي حاولت القوى المعادية للإسلام إخمادها ، ومقاومة روح البطالة والقعود ، والوهن النفسي ، الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت.

٨ ـ استيحاء التاريخ الإسلامي وبطولاته:

استيحاء التاريخ ـ ولا سيما تاريخنا الإسلامي ـ لاستنهاض الأمة من كبوتها ، فالتاريخ هو ذاكرة الأمة ، ومخزن عبرها ، ومستودع بطولاتها ، والشيخ يملك حساً تاريخياً فريداً ، ووعياً نادراً بأحداثه الكبيرة والدُّروس المستفادة منها.

والتاريخ عنده ليس هو تاريخ الملوك والأمراء وحدهم ، بل تاريخ الشعوب والعلماء والمصلحين والربانيين ، ليس هو التاريخ السياسي فقط ، بل السياسي والاجتماعي والثقافي والإيماني والجهادي ، ولهذا يستنطق التاريخ بمعناه الواسع.

٩ ـ نقد الفكرة الغربية والحضارة الحديثة:

نقد الجاهلية الحديثة ، المتمثلة في الفكرة الغربية ، والحضارة المادية المعاصرة ، ورؤيته هنا واضحة كل الوضوح لحقيقة الحضارة الغربية وخصائصها ، واستمدادها من الحضارتين: الرومانية واليونانية ، وما فيهما من غلبة الوثنية ، والنزعة المادية الحسية ، والعصبية القومية ، وهو واع تماماً للصراع القائم بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية ، وخصوصاً في ميادين التعليم والتربية والثقافية والقِيَم والتقاليد ، وقد أنكر الشيخ موقف الفريق المستسلم للغرب ، المقلِّد له تقليداً أعمى في الخير والشر ، ومثله موقف الفريق الرافض للغرب كله ، والمعتزل لحضارته بمادياتها ومعنوياتها. . . . ونوَّه الشيخ بموقف الفريق الثالث ، الذي لا يعتبر الغرب خيراً محضاً ، ولا شراً محضاً ، فيأخذ من الغرب وسائله لا غاياته ، وآلياته لا منهج حياته.

www.abulhasanalinadwi.org

١٠ ـ نقد الفكرة القومية والعصبيات الجاهلية:

نقد ما شاع في العالم العربي والعالم الإسلامي كله، من التنادي بفكرة (القومية) القائمة على إحياء العصبيات الجاهلية، بعد ما أكرم الله به هذه الأمة من الأخوة الإسلامية، والإيمان بالعالمية، والبراءة من كل من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية، وأشد ما آلمه: أن تتغلغل هذه الفكرة بين (العرب) الذين عم عصبة الإسلام، وحملة رسالته، وحفظة كتابه وسنته، وهو واحد منهم نسباً وفكراً وروحاً.

١١ ـ تأكيد عقيدة ختم النبوة ومقاومة الفئة القاديانية:

عقيدة ختم النبوة وهي عقيدة معلومة من الدين بالضرورة بين المسليمين طوال القرون الماضية، ولم يثر حولها أي شك أو شبهة، وإنما أوجب تأكيد هذه العقيدة ظهور الطائفة القاديانية بفتنتهم الجديدة التي اعتبرها الشيخ (ثورة على النبوة المحمدية).

١٢ ـ مقاومة الردة الفكرية:

مقاومة الرِّدة الفكرية التي تفاقم خطرها بين العرب والمسلمين عامة، والمثقفين منهم خاصة، فكما قاوم الشيخ (الردة الدينية) التي تمثلت في القاديانية، التي أصر علماء المسلمين كافة في باكستان على اعترافهم أقلية غير مسلمة، لم يأل جهداً في محاربة هذه (الردة العقلية والثقافية).

١٣ ـ تأكيد دور الأمة المسلمة واستمراره في التاريخ:

تأكيد دور الأمة المسلمة، في هداية البشر والشهادة على الأمم، والقيام على عبادة الله وتوحيدة في الأرض، كما أشار إلى ذلك الرسول ﷺ في بدر: «**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هٰذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدُ فِي الأَرْضِ**»[1]، وهذه الأمة صاحبة رسالة شاملة، وحضارة متكاملة، مزجت المادة بالروح، ووصلت الأرض بالسماء وربطت الدنيا بالآخرة، وجمعت

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم الحديث (١٧٦٣).

www.abulhasanalinadwi.org

بين العلم والإيمان ، ووفقت بين حقوق الفرد ومصلحة المجتمع ، وهذه الأمة موقعها موقع القيادة والرِّيادة للقافلة البشرية ، وقد انتفعت منها البشرية يوم كانت الأمة الأولى في العالم . . ثم تخلفت عن الرَّكب لعوامل شتىٰ ، فخسر العالم كثيراً بتخلفها .

١٤ ـ بيان فضل الصحابة ومنزلتهم في الدين :

بيان فضل الجيل المثالي الأول في هذه الأمة ، وهو جيل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أبر الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلهم تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ونصرة دينه ، وأنزل عليهم ملائكته في بدر والخندق وحنين ، وهم الذي أثنى عليهم الله تعالى في كتابه في عدد من سُوَره ، وأثنى عليهم رسوله في عدد من أحاديثه المستفيضة ، وأكدَّ ذلك تاريخهم وسيرتهم ومآثرهم ، فهم الذين حفظوا القرآن ، والذين رَووا السنة ، والذين فتحوا الفتوح ، ونشروا الإسلام في الأمم .

وهم طليعة الأمة وأسوتها في العلم والعمل ، وأئمتها في الجهاد والاجتهاد ، وتلاميذهم من التابعين على قدمهم ، وإن لم يبلغوا مبلغهم : «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهم**»[1] فمن شكك في عظمة هذا الجيل وفي أخلاقه ومواقفه ، فقد شكك في قيمة التربية المحمدية .

١٥ ـ التنويه بقضية فلسطين وتحريرها :

فقضية فلسطين ليست قضية الفلسطينيين وحدهم ، ولا العرب وحدهم ، بل هي قضية المسلمين جميعاً ، فلابد من إيقاظ الأمة لخطرها ، وتنبيهها على ضرورة التكاتف لتحريرها ، واتخاذ الأسباب ، ومراعاة السُّنن المطلوبة لاستعادتها .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على شهادة . . . ، رقم الحديث (٢٦٥٢) . ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ، رقم الحديث (٢٥٣٣) .

www.abulhasanalinadwi.org

١٦ ـ العناية بالتربية الإسلامية الحرة:

العناية بالتربية الإسلامية الحرة التي لا تستمد فلسفتها من الغرب ولا من الشرق ، إنما تستمد فلسفتها من الإسلام: عقيدةً وشريعةً وقيماً وأخلاقاً ، في حين تقتبس وسائلها وآلياتها من حيث شاءت ، في إطار أصولها المرعية ، فالحكمة ضالة المؤمن أنَّىٰ وجدها فهو أحق الناس بها ، وهو ينكر على التعليم القديم طرائقه في العناية بالألفاظ والجدليات ، كما ينكر على التعليم الحديث إغفاله للروح وأهداف الحياة وينقل من إقبال قوله: **إن التعليم الحديث لا يعلم عين الطالب الدموع ، ولا قلبه الخشوع** ، ولقد أولىٰ شيخنا جانب التربية اهتماماً بالغاً؛ لأنها هي التي تصنع أجيال المستقبل ، والتهاون فيه تهاون في الثروة البشرية.

١٧ ـ العناية بالطفولة والنشء:

العناية بالطفولة ، والكتابة للأطفال والناشئين ، بوصفهم رجال الغد ، وصناع تاريخ الأمم ، وقد التفت الشيخ إلى هذا الأمير الخطير ، وهو في الثلاثينات من عمره ، وكتب مجموعة من قصص النبيين للأطفال ، في لغة سهلة ، وأسلوب عذب ، وطريقة شائقة ، مضمناً إياها ما يجب من المعاني والقيم ، ومن الدروس والعبر ، ومن العقائد والمثل ، حتى قال بعض العلماء: إنها (علم توحيد) جديد للأطفال ، وأثنىٰ عليها أديب كبير كالشهيد سيد قطب ، مارسَ هذا العمل أيضاً.

١٨ ـ إعداد العلماء والدعاة الربانيين المعاصرين:

العمل الدؤوب لإعداد العلماء والدعاة الربانيين ، الذي يجمعون بين المعرفة الإسلامية ، والرؤية العصرية ، مع الغيرة الإيمانية والأخلاق الربانية ، وهذا ما اجتهد الشيخ في أن يُسهم فيه بنفسه عن طريق التدريس في (دار العلوم)[1] ثم عن طريق تطوير المناهج ، وعن طريق وضع المقررات والكتب الدراسية ، ثم عن طريق الاشتراك في مجالس الجامعات

---

(١) أي: دار العلوم ـ ندوة العُلماء ، لكهنؤ (الهند).

www.abulhasanalinadwi.org

والمؤسسات التعليمية في الهند ، وفي غيرها ، مثل المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وهو يرى أن المسلمين أحوج ما يكونون اليوم إلى الداعية البصير ، والعالِم المتمكِّن ، الذي إذا استقضي قضى بحق ، وإذا استفتي أفتى على بيِّنة ، وإذا دعا إلى الله دعا على بصيرة.

١٩ ـ ترشيد الصحوة والحركات الإسلامية:

ترشيد الصحوة الإسلامية ، التي يشهدها العالم الإسلامي ، بل يشهدها المسلمون في كل مكان ، حتى خارج العالم الإسلامي ، حيث توجد الأقليات والجاليات الإسلامية في أوربا والأمريكتين والشرق الأقصىٰ وغيرها ، وهي صحوة عقول وقلوب وعزائم ، ولكن يخشى على الصحوة من نفسها أكثر من غيرها ، فتتآكل من الداخل ، قبل أن تضرب من الخارج.

وأعظم ما يخشىٰ على الصحوة: الغلو والتشديد في غير موضعه ، والتمسُّك بالقشور وترك اللباب ، والاشتغال الزائد بالجزئيات والخلافيات ، وسوء الظن بالمسلمين إلى حد التأثيم والتضليل ، بل التكفير.

والشيخ بطبيعته رجل معتدل في تكفيره ، وفي سلوكه وفي حياته كلها: فهو قديم جديد ، وهو تراثي وعصري ، وهو سلفي وصوفي ، ثابت ومتطور في لين الحرير وصلابة الحديد ، وهكذا يريد لجيل الصحوة أن يكون.

٢٠ ـ دعوة غير المسلمين:

دعوة غير المسلمين للإسلام استكمالاً لما قامت به الأمة في العصور الأولى ، وقد ساهم الشيخ في ذلك منذ عهد مبكر ـ وهو ابن الثانية والعشرين ـ بدعوة الدكتور أمبيدكر ـ زعيم المنبوذين ـ إلى الإسلام ، ورحلته إليه في (بومباي).

وهو يرى أن فضل الأمة الإسلامية على غيرها في قيامها بواجب الدعوة

www.abulhasanalinadwi.org

إلى الله ، وأن البشرية اليوم ـ رغم بلوغها ما بلغت من العلم المادي والتطور التكنولوجي ـ أحوج ما تكون إلى رسالة الإسلام ، حاجة الظمآن إلى الماء ، والسقيم إلى الشفاء ، والأمة الإسلامية هي وحدها التي تملك قارورة الدواء ومضخة الإطفاء.

تلك هي الركائز العشرون ، التي قام عليها فقه الدعوة عند الإمام الندوي وكل ركيزة منها تحتاج إلى شرح وتفصيل[1].

* * *

(١) مأخوذ مِن مجلة «البعث الإسلامي» عدد رجب وشعبان وعدد رمضان ١٤١٧هـ ، نقلاً عن كتاب «أبو الحسن علي الحسني النَّدوي الإمام المفكر الدَّاعية الأديب» لمعدِّ هذا الكتاب ، صفحة (٩١ ـ ٩٨) باختصار يسير.

www.abulhasanalinadwi.org

بَيْنَ الصُّورةِ والْحَقيقةِ[1]

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة! إن كلَّ شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرقٌ كبير رغم الشبه العظيم. تميزون بينهما بسهولة في حياتكم ، تعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة ، وأضربُ لذلك مثلين: هذا مثل للثمار المصنوعة من الخزف ، تتراءىٰ للناظر كأنها تفاح ، ورمان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة؟ وأين طعم هذه الثمار ورائحتها؟ إنها ليست إلا للزينة أو المال.

إنكم ترون في المتحف كلَّ نوع من السباع والأنعام ، والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد ، والذئاب ، والأفيال ، والذباب ، وفيها كل طائر جارح ، وكل سبع مخيف ، ولكنها جثثٌ هامدة لا حراكَ بها ، وأجساد ميتة محشوَّة بالليف والقطن ، ليس فيها رمق من حياة ، وقوة تهجم بها وتصول ، حتى لا تحسّ منها من أحد ، ولا تسمع لها رِكْزاً.

إن الصورة لا تستطيعُ أن تسدَّ مكانَ الحقيقة ، وتنوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة ، وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها. فإذا وقع صراعٌ بينهما انهارت الصورة ،

---

(١) هذه الكلمة القيمة ألقاها العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ في مركز الدعوة والتبليغ بمدينة لكهنؤ (الهند) ، عام ١٩٤٩هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة ، فإذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة ، أو عوّل عليها في مهمة خانته الصورة ، وخذلته أحوج ما يكون إليها .

والصورة ـ ولو كانت مهيبة هائلة ـ تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقة الحقيرة أقدرُ وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة ، وإن الولد يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة؛ لأن الولد يحملُ حقيقة ، ولو حقيقة صغيرة ، والأسد ليس إلا صورة؛ ولو كانت صورة مهيبة .

إن هذا العالم الذي نعيشُ فيه عالم الحقيقة والأمر الواقع ، وقد خلق الله كل شيء على حقيقته ، فللمال حقيقة ، وحبّه فطري طبعي ، ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ، ووضع الله فيه التأثير والجذب . وللأولاد حقيقة ، والحنان إليهم وحبهم فطري ، ولأجل ذلك وردت الأحكام في الشرع عن تربيتهم وتعليمهم . وكذلك للحاجات الطبيعية ، والميول الفطرية حقيقة لا تجحد ، ولا تغلب تلك الحقائف إلا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد .

إننا نحتاج إلى حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم ، أما صورة الإسلام فهي عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها ، وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل؛ لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أيِّ حقيقة .

ولذلك نرى اليوم بأعيينا أنَّ صورةَ الإسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة؛ لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدساً رائعاً ليس لها سلطان وتأثير ، وأن صورة إسلامنا ، وصورة كلمتنا ، وصلاتنا اليوم لا تقدر أن تتغلب على عاداتنا الحقيرة ، وتقهر شهواتنا الخسيسة ، أو تثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

إن الكلمة التي كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والأرواح ، وكانت تهون على الناس ترك المألوفات؛ وقهر الشهوات ، والشهادة في سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله ، واحتمال المكاره وتجرُّعَ

www.abulhasanalinadwi.org

المرائر في سبيل الله ، هي عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد ان استغرقوا في النوم طول الليل ، ويقوموا لصلاة الفجر .

نعم ، الكلمة التي كانت تغلب على شهوة الخمر ، فتحول بين الإنسان وبين الكأس وهي على راحته ، فيمتنع عن شربها؛ لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه أن يشرب الحرام ، ها هي الآن قد أصبحت لا تملك أمراً ولا نهياً .

سرِّح طرفك في تاريخ الإسلام ، وتجول في فصوله وأوراقه ، يظهر لك أن كلمة الإسلام التي كان الصحابة وكان المسلمون في القرون الأولى يتلفظون بها ، كانت ذات حقيقة ثابتة ، وكانت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . وكلمتنا نحن ألفاظ مجردة ، ونطق فارغ ، ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها في حياة الأمة . ثم إننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة أصحاب النبي ﷺ على حياتنا ، ونرجو أن تؤتي هذه الكلمة أكلها كل حين ، وتحدث ما أحدثت في الماضي ، حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تسائلنا ، وقلنا: «ألسنا مسلمين؟ ألسنا نصلي ونصوم؟ ألا نتلفظ بكلمة الإسلام ونرددها صباح مساء؟! فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين؟! ولماذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم؟! وأين ثمرات شجرة الإيمان؟! وأين نتائج الصلاة والصيام؟! وأين ما وعد الله من النصر المبين ، والاستخلاف والتمكين؟!

لا تخدعنا أنفسنا!! ولنعلم أنهم كانوا أصحاب جد وحقيقة في الدين لقد كانت كلمتهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجردون عن هذه الحقائق ، فرجاء أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة ، وتغني غناءها ، إنما هو وهم وخيال ، وضرب من المحال .

أما قرأتم في التايخ أن خبيباً رضي الله عنه رفعوه على الخشبة ، وتناولوه بالرماح والأسنة ، حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن ، فقالوا: له: «أتحب أن يكون محمد ﷺ مكانك؟» فيضطرب ويقول: «وَاللهِ

www.abulhasanalinadwi.org

مَا أُحِبُّ أَنْ يَفِدَيني بِشَوْكَةٍ يَشُوْكُهَا فِي قَدَمِهِ»![1].

يا أبناء الإسلام! إن الذي ثبته في هذا المكان ، وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة في حب الرسول هل هي صورة الإسلام؟ لا ، بل هي الحقيقة التي مثلت بين عينيه الجنة ، والرماح تنوشه وتعبث بجسمه ، وناجته ، وقالت: صبراً يا خبيب ، فما هي إلا لمحات وثوان ، وها هي الجنة تنتظرك ، ورحمة الله ترتقبك ، فإذا احتملت آلام هذا الجسد الفاني والحياة الزائلة العابرة ، نلت السعادة الدائمة ، والحياة الباقية.

هذه هي اللذة الروحية ، وحقيقة الحب والإيمان التي أبت على خبيب أن يُطْلَق ويُؤذى رسول الله ﷺ بشوكة في قدمه ، هل تستطيع الصورةُ أن تحمل صاحبها على هذا الإخلاص والتفاني ، والثبات على العقيدة والصبر على الموت؟! كلا إن الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام ، بل حتى الخيالات والأوهام. وقد بدا لنا ذلك في الاضطرابات الطائفية الماضية في الهند ، فإن أناساً من المسلمين قد غيروا صورة الإسلام خوفاً مما مرَّ بخاطرهم من الفزع ، وخشية الموت ، وما ثار في رؤوسهم من معارك خيالية حامية ، واختاروا شعارَ الكفر ، وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلّين بالصورة ، فارغين عن الحقيقة.

هاجر سيدنا صهيب رضي الله عنه ، فلما كان في الطريق اعترضته جماعة من مشركي مكة ، وقالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ،

---

(١) فضحكوا، وقال خبيبٌ رضي الله عنه حيْن رفعه إلى الخشبة:

لقد جَمَّعَ الأحزابُ حولي وألَّبُوا ... قبائلَهم واستجمعوا كُلَّ مَجْمَعِ
وقَدْ جَمَّعوا أَبْناءَهم ونِساءَهم ... وقُرِّبْتُ مِنْ جَذْعٍ طويلٍ مُمَنَّعِ
إلى اللهِ أشكوْ غُرْبَتِي ثُمَّ كُرْبَتي ... وَمَا أَرْصَدَ الأحزابُ لِي عندي مَصْرَعِي
فَذَا العرشِ! صَبِّرْنِي عَلَىٰ مَا يُراد بِي ... فقد بَضَّعُوا لَحْمِي وقَدْ بَانَ مَطْمَعِيْ
وذلك في ذَاتِ الإلَهِ وإنْ يَشَأْ ... يُبَارك عَلى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
لَعَمْرِي ما أَحْفِلُ إذا مِتُّ ... مُسْلِماً عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كَانَ للهِ مَضْجَعِي

(حياة الصحابة ، للشيخ يوسف الكاندهلوي ، شرح وتحقيق الشيخ محمد إلياس الباره بنكوي ، ج: ١/٥ ، ص: ٨٠٥ ، طبعة دار ابن كثير ، دمشق).

www.abulhasanalinadwi.org

وبلغت الذي بلغت ، ثم تريدُ أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركةُ بني حقيقة الإسلام وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقةُ الإسلام على ضدها ، وقالَ لهم صهيبُ : «أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِيْ أَتَخَلُّونَ سَبِيْلِي؟ قالوا: نعم ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي»[1] وهكذا انطلق صهيب بدينه ، متجرداً من ماله ، فرحاً مسروراً ، كأنه لم يفقدْ شيئاً ، ولم يخسر شيئاً.

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلما رآه رجالٌ من بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد؟! ونزعوا خطامَ البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقةُ الإسلام بحب الزوج ، والولد ، فما لبثت أن انتصرتْ عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله ، ، هاجر وحيداً ، هل الصورة تستطيع ذلك؟ وهل يقدر أصحابُها على ترك الزوجات والأولاد في سبيل العقيدة والدين. كلا! بل سمعنا أن أناساً قد ارتدوا عن دينهم للمال ، والأزواج ، والأولاد ، وغير ذلك من متاع الدنيا وزخارفها.

كان أبو طلحة مقبلاً على صلاته ، فإذا طائر يدخل في بستانه ، ثم لا يجد الطريق للخروج ، ويميل إليه قلبُ أبي طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدَّق بهذا البستان: لأنه لا يحب أن يشغله شيءٌ عن حقيقة صلاته ، وينازع قلبه!.

إن للبستان حقيقة ، ولثمره وأكله حقيقة ، ولا تغلب هذه الحقائقَ إلا حقيقة الإسلام ، وإن صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ، ولذلك لا تقدر أن تقاومَ أدنى الحقائق المادية.

لقد كان في حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين ، وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ مئتي ألف أو يزيدون ، فإذا نصراني كان يقاتل تحت

---

(١) سيرة ابن هشام (ج٢ ص ١٢١).

www.abulhasanalinadwi.org

لواء المسلمين يقول ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فيقول خالد رضي الله عنه: والله لوددتُ أن الأشقر براء من توجعه ، وأنهم أضعفوا في العدد[1].

بم كان خالد رضي الله عنه مطمئناً ، ولِمَ لَمْ يشغل خاطره هذا العدد الهائل ، ولِمَ لَمْ تكبر في عينه جنود الروم الكثيفة؟ ذلك لأنه كان مؤمناً بالله ، واثقاً بنصره ، ولأنه كان يعلم أنه على الحقيقة ، وأن مقابله صورة فحسب ، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت ، لا تقدر أن تقاومَ حقيقة الإسلام.

لا شك أننا نتلفَّظ بكلمة الشهادة والتوحيد ، ومنا مَنْ يعرف ما يقول ، ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر ، إن أصحاب النبي ﷺ والمسلمين الصَّادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة ، فإذا قالوا لا إله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره ، ولا رب غيره ، ولا رازق غيره ، ولا نافع ولا ضارّ إلا هو ، له الملك والحكم ، والخلق والأمر ، وبيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه ، وأخلصوا له الحب ، والخوف ، والسؤال والرجاء ، والعبادة ، والدعاء ، وأصبحوا عباداً حنفاء ، شجعاناً أقوياء ، لا يهابون العدو ، ولا يخافون الموت ، ولا يبالون بلومة لائم.

نرجع إلى أنفسنا ، ونفكر هل هذه هي الحقيقة متغلغلة في أحشائنا ، ومتسربة في عروقنا وشراييننا ، وهل غرسُ حياتنا يُسقى بهذا الماء؟ معذرة وعفواً أيها السادة ، إنا نخافُ ألا يكون الأمر كذلك ، وأنَّ نصيب الصورة في حياتنا أكثر من نصيب الحقيقة ، وذلك موضع الضعف في حياتنا ، وسرّ وشقائنا ومصائبنا ، إننا جميعاً نؤمن أن الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل نحن حاملون لحقيقة الإيمان كأصحاب النبي ﷺ ، ومَنْ تبعهم بإحسان؟ وقد سمعنا أن أحدهم سَمِعَ

---

(١) الأشقر: فرس خالد، وكان قد حفي، واشتكى في مجيئه من العراق (البداية والنهاية ج ٨ ص ٩).

www.abulhasanalinadwi.org

رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**قُوْمُوْا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَواتُ والأَرْضُ**»[1] فرمى بما معه من التمر، وقال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي، هذه، إنها لحياة طويلة، وقاتلهم حتى قتل؛ لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشكُّ فيها، فمن أيقن يقول كأنس بن النضر: إني لأجدُ ريحَ الجنة من دون أحُد.

أتى رجلٌ من المسلمين يوم اليرموك، وقال للأمير: إني قد تهيأتُ لأمري، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ، قال: نعم! تقرئه عني السلام، وتقول: يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً.

أفيقول هذا إلا من يوقن أنه مقتول في سبيل الله، وملاقٍ رسولَ الله، ومجتمع به في نعمة الله، وأنه مكلّمه ومحدِّثه، فإذا حصل لرجلٍ مثل هذا اليقين، فما الذي يمنعه من استقبال الموت؟! وما الذي يحول بينه وبين الشهادة؟!

إن أكبر انقلاب وقع في تاريخ هذه الأمة، هو أن الصورةَ احتلت مكان الحقيقة، واستولت على حياة الأمة، وذلك من عهد بعيد في التاريخ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها، فكانت هذه الصورة الإسلامية كجدار ينصبه الفلاح في حقله كيلا يحلّ فيه الطير والوحش، ولا تزال الطيور تظن أنه إنسان، أو حارس، فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكي، أو حيوان جريء، فيجد أنه ليس بشيء، هنالك تدخل الطيور والوحش في هذا الحقل وتعيث فيه، وتتلف زرعه، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث، لقد حرستهم صورة الإسلام مدة طويلة جداً، فلم تجترىء عليهم أممُ العالم، ولم يدر بخَلَدِ أحدٍ أن يمتحن هذا الشبح المخيف، ويتحققه.

ولكن حتى متى؟ لما أغار التتارُ على بغداد، افتضح المسلمون، وظهر إفلاسهم في الروح والقوة المعنوية، من ذلك الحين أصبحت الصورة

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه عن أنس رضي الله عنه، (٣ / ٤٨١) برقم (٥٧٩٨) طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

www.abulhasanalinadwi.org

عاجزة عن أن تحافظ عليهم ، وتذود عنهم المكروه ، وتدفع عنهم غارات الأمم ، فإن الصورة لا تقومُ إلا على الجهل والغرور ، فإذا انكشف الغطاء وزاح الستار ، تبين الصبحُ لذي عينين.

وإنَّ ما نرى ونقرأ في تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال ، إن كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لا غير ، وقد فضحت الصورة في كل معركة وحرب ومقاومة واصطدام ، ولكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة على ظهر الصورة ، فلم تستطعْ حمله ولم تمسكه ، وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا ، وكذبت أمانينا ، وخذلتنا في المدان.

تكرر الصراعُ بين صورة الإسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفي كل مرة تنخذل وتنهزم الصورة ، ويعتقد الناس أنه هزيمة الإسلام وخذلانه ، وبذلك هان الإسلامُ في عيون الناس. زالت مهابتُه عن القلوب ، ولا يدري الناس أنَّ حقيقةَ الإسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ، ولم تنازل أممَ العالم ، وإن الذي يبرز في الميدان هو صورة الإسلام لا حقيقته ، وخليق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل أمام الواقع والأمر الجدّ.

هاجمت بعضُ الدول الأوربية في الحرب الأولى تركيا الإسلامية ، تركيا التي أرعبت أوربا كلها ، وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا في هذه المرة حاملةً لصورة شاحبة للإسلام ، وقد فقدت شيئاً من حقيقة الإيمان ، ففشلت في المقاومة ، وفقدت كثيراً من ممتلكاتها.

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية في فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح ، وقد أطفأت المادية الأوربية جمرةَ القلوب ، وشعلة الجهاد في سبيل الله ، وحببت إليها الحياة واللذات ، ثم إنها تتخلف تخلفاً كبيرً في المعدات الحربية ، والتنظيمات العصرية ، فكانت الحربُ بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعاً بين صورة الإسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كلِّ صراع بين الصورة والقوة.

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ الصورة لها منزلةٌ ومكانة عند الله تعالى ، لأنها قد عاشت فيها الحقيقة قروناً طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه ، وكذلك نعرف لها الفضل؛ لأن الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإيمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الإيمان والإسلام ، فلنحافظ على هذه الصورة ، ولنتمسك بها ، ولكن لا ينبغي أن نقنَع بها ، ونستهين بالحقيقة والروح.

يا أبناء الإسلام ، إنَّ وَعْدَ الله من النصرة والفتح في الدنيا ، والنجاة والغفران في الآخرة. كلُّ ذلك محصورٌ في حقيقة الإسلام ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] لا شك فإن الخطاب في هذه الآية للمسلمين ، ومع ذلك اشترط للإيمان العزة في الأرض والعلو والشوكة ، وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] وقال أيضاً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] ورغم أنَّ جميع تلك الوعود كانت على أساس الإيمان والأعمال الصالحة ، اشترط أن يكون في المسلمين حقيقة الإيمان والتوحيد.

إن أكبر مهمة دينية في هذا العصر ، وأعظم خدمة ، وأجلّها للأمة الإسلامية ، هي دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام ، فلمثل هذا فليعمل العاملون ، ويبذلوا جهودهم ومساعيهم في بث روح الإسلام في جسم العالم الإسلامي ، ولا يدخروا في ذلك وسعاً ، فبذلك يتحول شأنُ هذه الأمة ، وفي نتيجته شأن العالم بأسره ، فإنَّ شأنَ العالم تبعٌ لشأن هذه الأمة ، وشأن الأمة تبعٌ لحقيقة الإسلام ، فإذا زالت حقيقةُ الإسلام من الأمة المسلمة ، فمن يدعو العالم إلى حقيقة الإسلام ، ومن ينفخ فيه الروح؟ قال سيدنا

www.abulhasanalinadwi.org

عيسى عليه السلام لأصحابه: «**أَنْتُمْ مِلْحُ الأَرْضِ ، فَإِذَا زَالَتْ مُلُوْحَةُ الْمِلَحِ فَمَاذَا يَمْلَحُ الطَّعَامُ؟!**».

وقد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح؛ لأن السوادَ الأعظم للأمة مجرد عن الروح ، فارغ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروحُ والحقيقة في الحياة الإنسانية مرة أخرى؟!

إن في هذا العالم أمماً لا تزال فارغةً عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولم يَبْقَ فيها إلا عدة معتقدات مرسومة ، وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح ، وانتهت حياتنا الدينية والروحية الحقيقية ، حتى إن إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هذه الأمم ، وتجديد حياتها الدينية والخلقية ، والذين نهضوا لإصلاحها ، وبذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل ، قد أخفقوا ولم يفلحوا في مهمتهم ، رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التي حدثت في هذا العهد من الطبع والنشر ، والتأليف والإذاعة ، والتعليم والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير؛ وذلك لأن عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تاماً، وانقطعت علاقتُها عن منبع الحياة الدينية، والخُلُقية، والروحية.

أما الأمة الإسلامية فلا تزال ـ على علاَّتها وضعفها ـ مستمسكة استمساكاً ما بعروة الدين ، وهي الإيمان بالله والرسول ، واليقين بالدار الآخرة والحساب ، لم تتركها البتة ، ولم تنقطعْ عنها انقطاع الأمم الأخرى ، بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزري بإيمان كثيرٍ من خواصِّ الأمم الأخرى ، وعليتهم ، ويفوقه متانة ورسوخاً وحماسة ، ثم إن كتابها لا يزال في يدها لم يتناوله التحريف ، ولم يعبثْ به العابثون ، كما فعلوا بالصحف الأولى ، ولا تزال سيرةُ الرسول وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة إلى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الإيمان سريعة الاتقاد ، والشقّة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة إلى تجديد الإيمان ، والرجوع إلى الدين ، والتتبع لروحه ، والتحلي بحقيقته.

www.abulhasanalinadwi.org

لستُ قانطاً من ظهور حقيقة الإسلام في هذا العصر ، ولا نصدق ما يقال بأن الزمن قد تغير ، والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الإسلام ، فلا أمل في حقيقة الإسلام وغلبتها من جديد ، انظروا إلى ورائكم ترون جزر حقيقة الإسلام قائمة منتشرة في فجر التاريخ ، وإن الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت ، وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الإسلام وتجلت في ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، أو عصر من عصور التاريخ الإسلامي ، غلبت وانتصرت ، وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم. وكادت الأحوال والأمور أن تعود إلى ما كانت عليه في الماضي السعيد ، وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول.

وإن حقيقة الإسلام في هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت في جماعة ، تستطيع أن تذلل كل عقبة ، وتهزم كل قوة ، وتأتي بعجائب وآيات من الإيمان والشجاعة والإيثار ، يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل عن تعليل حوادث الفتح الإسلامي ، وأخبار القرن الأول.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

حِكمة الدَّعوة ومرونتُها
ومُجاراتها لكل بيئةٍ وعَصرٍ (١)

إنني أحمدُ الله تبارك وتعالى على هذا اللقاء الكريم السعيد ، فإني أرى في ذلك تحقيقاً لأُمنيةٍ قديمة ، بل ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وإننا نلتقي اليوم على صعيد التفكير والتأمُّل في مناهج الدعوة وفي أساليبها وفي طُرقها وفي آدابها ، وإنَّ هذا الموضوع في الحقيقة قيمةُ هذه المؤسسة العظيمة التي قامت قبل تسعينَ سنة تقريباً.

ما هو أُسلوب الدعوة في القرآن؟ أو بما يُوصي القرآن الداعي إلى الله؟ وما هي مناهج الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام في الدعوةِ؟ وما هي الآداب التي يُحبُّ القرآن أن يتحلَّى بها الداعي إلى الله؟ هل هناك أحكامٌ وتوجيهاتٌ مُعيَّنةٌ محدودة في القرآن يَأخُذ بها الداعي ويَدُرسها الطالبُ في مدرسة الدعوة؟ هذا موضوعٌ له أهميَّة كبيرةٌ لأنه يتَّصل بالقرآن ، ويتَّصل بالدعوة فكيف إذا التقى هذان الجانبان المُشرقان المُنيران المثيران في موضوعٍ واحد.

القُرآن كتابُ هِداية ودعَوةٍ قبل أن يكون كتابَ أحكامٍ وشريعة:

إن القرآن هُو كتاب هدايةٍ ودعوة قبلَ أن يكون كتاب أحكام وشريعة ـ مع

---

(١) هذه المحاضرة القيمة ألقاها العلاَّمة الندوي ـ رحمه الله ـ في المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي بجامعة ندوة العلماء بمناسبة افتتاحه ، عام ١٤٠٠هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

كُل إجلالِنا وتقديرنا للأحكام والشريعة ـ إنَّ الأحكام والشريعة لا غِنى عنهَا ، ولكنَّ القضيةَ ، قضيةُ الأوَّلية ، قضية الطابع الغالب ، قضيَّة الغاية التي يدورُ حولَها القرآن ، فأنا أعتقد ـ في ضوء دراستي القاصِرة المحدودة ـ أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة ، قبلَ أن يكون كتاب أحكام وشريعة ، لأن الهداية هي الأساسُ للإيمان ، والدعوةَ هي الأساسُ لنقل هذا الإيمان ، فإذا كان هذا هو الشأن ، فلا شك في أن القرآن هو كِتابُ هداية ودعوة قبلَ أن يكون كتابَ شيءٍ آخرَ.

الدعوة لا يُمكن أن تخضَع لقوانين مرسومة ، وتُقيّدَ بها :

فما هي الأحكام التي يَشرحُها القرآن الكريم في موضوع الدعوة؟ وما هي الآداب التي يُؤكد عليها القرآن ويدعو إليها؟

هل هُناك قوانين مرسومةٌ وأحكامٌ مضبوطة للدعوة؟ إنني أعتقد أنَّ الدعوة لا يُمكن أن تخضَع لقوانينَ مرسومةٍ وأحكام مضبوطة ، لأنَّ الدعوة تَعتمد

على المُحيط وعلى الظروف والبيئة ، وعلى الجوِّ والمُلابسات ، فإذا كانت الدعوة تَعتمدُ على الواقع ، وهو يَختلفُ ، وإذا كانت الدعوة تعتمد على الارتجال ، ولا أريد الارتجالَ الكلامي اللِّساني ، إنما أُريد الارتجال العقلي ، والذي يُسمِّيه أهلُ البلاغة بِحضور البديهة ، وإذا كانت الدعوة تعتمدُ كذلك على مكامنِ المرضِ ومكامن الضَّعف في النفس الإنسانية وفي المجتمع الإنساني ، فإنَّه يمكنُ أن يُقال: يَجبُ على الداعي أن يفعلَ كذا ويَتكلم بكذا ، ويظهرَ في المظهر الفُلاني وإن كانَ المظهر البلاغي ، ولو بدأنا نُشرّع هذه الأحكام ونَرسمُ هذه الخطوط وإن كانت خطوطاً عريضة ، ونقول: تنطلق الدعوة من الخَطِّ الفلاني إلى الخط الفلاني ، ولا تتخطى هذه الحدود والخطوط ، فقد يتورَّطُ الداعي فيما تورَّط فيه سَيِّدٌ مع خادمه ، كما تحكي حكايةٌ لطيفة ، تقولُ القِصة: إنَّ رجلاً استخدم خادماً ، وكان هذا الخادم ذكيّاً قانونياً ، طلبَ من السَّيد أن يَضَعَ له قائمةَ الواجباتِ ، ما هي الواجباتُ التي أكَّلفُ بها فوضعَ له قائمةً ، تَعملُ كذا في الوقت الفُلاني ، وتعملُ كذا وتَذهبُ إلى السوق وتُحضر لنا الحاجيات اليومية من

www.abulhasanalinadwi.org

لُحوم وخضر وغير ذلك ، وتقوم بخدمة فلانية ، فأخذ هذه القائمة واحتفظَ بها ، ومرَّة ركب هذا السيّد جواداً ، ولكنه لسوء الحظّ ارتَبكَتْ رِجلهُ في الرِّكاب ، وأراد أن يَتغلَّب على هذه المشكلة فما نجحَ ، وكان الخادم واقفاً ، فاستعانَ به ، وقال: أغثني يا فلان ، فأخرج الورقة من جَيبه وفتحها ومدَّها إليه وقال: أين في هذه القائمة أنَّ السيّد إذا ارتَبكتْ رِجلُه بالرِّكاب فإني أُعينه؟ والسَّيدُ يُعاني مرحلةً فاصلة بين الموت والحياة ، يخْشى عليه أن يَسقط أو يتورَّط في مشكلة أخرى ، ولكنَّ هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة وكان أميناً عليها ، مُرتبطاً بها ، ورفضَ أن يُعينه لأنه غيرُ مُكلَّف بهذه الخدمة ، لذلك يقول الشاعر العرَبي ، وقد كان العَرب على جانب عظيم من سَلامة الفطرة ومن الانتفاع بتجارب الحياة:

إذا كُنتَ في حاجةٍ مُرسلاً فأَرْسِلْ حكيماً ولا تُوصِهِ

الدعوةُ لها مَساحةٌ زمانية ومساحة مكانيةٌ:

أمَّا الدعوةُ فَأمرُها بعيدٌ ، وساحتُها واسعةٌ جداً ، ولها مساحةٌ زمَانية ومساحة مكانيةٌ ، وكِلتاهما واسعتان ، أماالمساحةُ الزمانية فهي تمتد من مَصدر الدعوة ـ إذا كان نبياً ، وإذا كان مُؤسّس دعوةٍ كبيرة ـ إلى ما لا نهايةَ له ، كذلكَ لها مسَاحةٌ مكانية واسعةٌ ، فقد يكون الداعي في الشرق ، وقد يكون في الغرب ، وقد ينتقل الداعي من الشرق إلى الغرب ، فإذا كان قد تمرن على طبيعة الشرق ، فإنه لا يستطيع أن يقوم بمهمته في الغرب.

الإيجازُ والإعجاب في آية الدعوة سعتُها وعُمقُها:

فكان من إعجاز القرآن أنّه لم يتعرض لأحكام تفصيلية في موضوع الدعوة ، وإنما وَكَلها إلى العقل السليم ، وإلى الذَّوق المستقيم ، وإلى العقيدة الراسخة ، والفكرة المتغلغلة في الأحشاء ، ثم حاطها بسياجٍ واسع ، هُو السّياج الوحيد الذي يَستطيعُ أن يُحيط بالدعوة وهو قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ٢٥] ، تَشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية ، وأبعادِ التقييد الذي جاء

www.abulhasanalinadwi.org

فيها ، فأطلق وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ، ما حدَّد وما عيَّن شيئاً مُعيَّناً خاصاً ، فمثلاً تدْعون الناسَ إلى الإيمان بالله وحدَه وإلى العقيدة الصحيحة وتَحثُّون على الصلاة ، تَدعونَ إلى مكارم الأخلاقِ وإلى الفضيلةِ ، أو تَدعون الناس إلى الشعور بالكرامةِ الإنسانية ، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يحوي كُلَّ شيءٍ ، إنه يَمتدُّ ويَسع الآفاق ، ليستْ هذه الآفاق فقط ، إنها آفاقُ الأديانِ السماوية وآفاقُ الحاجاتِ البشرية الحياةِ الإنسانية ، فاستحضِروا الإعجازَ الكامل في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ﴾ وهو لا يَختصُّ بالخطابة ، ولا يختصُّ بالكتابة ، ولا يختصُّ بالوعظ والنصيحة ، إنما قال: ﴿ٱدْعُ﴾ ، والدَّعوة عامة تشملُ هذه المعاني كلها ، وهذه الأساليبَ كلها ، ثم قال ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ وأيّ كلمةٍ أوسعُ أُفقاً وأعظمُ إطلاقاً من قوله تعالى ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

إن «الحكمة» ـ الكلمةُ البليغةُ العربية التي جاءت في الآية ـ لا أعتقدُ أنها من الممكن ترجمتُها أو نَقلُها إلى لغة أخرى ، وكذلك «الموعظة» كلمة مُطلقة ، و«الحسنةُ» أيضاً كلمة مطلقة ، وهنا جاء القرآن يَحلُّ هذه المشكلة فأطلقَ وقيد ، وأوجزَ وأعجز ، فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

وقد جاءت هذه الآيةُ في سياق الآياتِ التي تتحدث عن أكبر داع من الأنبياء قبل الرسول ﷺ ، وهو سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣] ، ثم بعد ذلك يقول: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ فلهذه الآيةِ صلة خاصة بدعوةِ سيدنا إبراهيم ، هنالك خيط يربط بين سيدنا إبراهيم وَبَين أمر الدعوة ، إن وُرودَ هذه الآية في سياق الحديث عن سيدنا إبراهيمَ ، يدلُّ على أن سيدنا إبراهيمَ كان آخذاً بهذا الطريق ، مُلتزماً لهذا الأدب ،

www.abulhasanalinadwi.org

وكانت دعوتهُ مؤسَّسةً على الحِكمة والموعظة الحسنة والجِدال بالتي هي أحسن.

الأمثلةُ والنماذج عُنصرٌ هامٌّ استخدَمه القرآن فيما يتعلق بالدعوة:

ولكن هنا عُنصراً آخر، استخدمَه القرآن واعتمدَ عليه وهو من أهمِّ العناصر ومِن أكبرِها تأثيراً ووَقعاً في النفس وإعانةً على أداء هذه المهمة، وذلك العنْصرُ هو الأمثلة العمليةُ والنماذج الشخصية، فالقُرآن إذا كان قد تركَ الأحكام التفصيلية الدقيقة والقواعدَ المضبوطة المعينة للدعوة، فإنَّه قد ملأ هذا الفراغ ـ إذا كان فراغاً ـ بنماذجَ من سيرةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن دعوتهم، وهي نماذجُ مُؤثرة في القلوب ساحرةٌ للنفوس، فإنَّ النماذج لها من التأثير ما لا يكونُ لأيِّ عنْصر آخر، لا للعناصر المنطقية، ولا للعناصر الكلامية الجدَلية، ولا للعناصر النَّفسية، فكلُّ الصُّحف السماوية من أوَّلها إلى أخرها اعتمدتْ على النماذج العملية، وهي قِطَعٌ بديعة تستهوِي النُّفوسَ، من سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأكثرُها مُقتبسةٌ من سير أربعةٍ من كبار الرسل، أوَّلُهم سيدنا إبراهيم عليه السلام، وثانيهم سيدنا يوسف، وثالثُهم سيدنا موسى، ومِسك ختام الأنبياءِ والرسل محمدٌ رسول الله ﷺ.

نموذجٌ من دعوة مؤمنٍ ما زال يَكتُم إيمانه:

والقرآن لم يُغفل نكتة مُهمة جداً، هي أنه إذا كان قد اقتصرَ على نماذج نبويةٍ فقط، فكان للإنسان أن يقول: ـ في أيّ زمن من الأزمان ـ أينَ نحنُ من ـ هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ هؤلاء هم الذينَ أكرمهمُ الله بالرسالة وبالوحي والنبوة، وأيَّدهم برُوح منه، فكيف نُقلِّدهم وكيف نستطيع أن نترسَّم خُطاهم، فعرضَ القرآن نموذجاً لإنسان لم يكنْ نَبياً ولم يكن من كبار أصحاب الرسل، هو مؤْمنٌ من آلِ فرعون، والقرآنُ، اكتفى بقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨] يعني أنَّ أحوالَه وظُروفه لم تَسمح له بإظهار دينه، ولو كان على ذُروةٍ عاليةٍ من الإيمان لأعلنَ إسلامه، كما أعلنَ سيدنَا أبو بكر، وكما أعلنَ سيدُنا عمر،

www.abulhasanalinadwi.org

وكما أَعلن سيدنا أبو ذَر ، ولكنه مؤمن كان لا يزال يَكتمُ إيمانه ، وقد مكَّنتهُ هذه الفرصة ـ وهي عدمُ ظُهور إيمانهِ وإعلانهِ الحربَ على قومه ـ من ظُهوره في مظهر صَديق ناصح وزَميلٍ مُحبٍّ للخير لإخوانه ، وهي فُرصة يجب أن يستفيد منها الداعيةُ الحكيم الذي يكون في هذا الوضع ، ويستفيد منها الداعية الذي لا يكون في هذا الوضع ، فيتلقَّى منه دروساً في ترقيق الكلام وتنويعه ، والتبصير بالواقع وقَصصِ الماضين وعواقبِ الأمور ، وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

نموذجان من دعوة

سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ليكُن موضوعَ حديثنا اليومَ سيدُنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهنالك نموذجان من دعوتِه ، إذا قارن الإنسانُ بين هذين النموذجين ، مَلكتْهُ رَوعةُ الحكمة وروعةُ الدَّعوة النبوية ، نَموذجٌ حين دعا وَالده. ونَموذج حين دعا قومَه ، وترون تنوُّع فَهْمِ النفسية والدخول إلى أغوار النفس الإنسانية ، فإذا تأمَّلْتُم في الآيات التي وردت في دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لوالده ، عرفتُم كيف يدعو الولَد الوالدَ ، ثم إذا قارنتُموه بالأسلوب الذي دعا فيه قومَه ، عرفْتم أسلوباً آخر يَليق بالمقام ، فأنا أقرأ لكم أولاً الآياتِ التي وردت في دعوته لوالده.

دعوة الولد للوالد

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٥].

إثارةٌ للحَنان الأبوي:

أولاً تتأملون في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ لهجةً فيها الرِّقة ، وفيها البرُّ ، وفيها التواضع ، وهذا يَرجع إلى الذوق السليم ، كذلك كان الذين قد تذوَّقوا القُرآن وتشرَّبوا روحَه ، إذا قرأوا آياتِ العذابِ كان يرتعدُ صَوتُهم ويَحمرُّ

www.abulhasanalinadwi.org

وَجههُم ، وإذا قرأوا آياتِ الرحمة تَرِقُّ قلوبهم وتَلينُ أصواتُهم ، فالولد إذا خاطب أباه بقوله «يا أبت» ، أثارَ فيه الحَنان الأبوي ، وكان يُمكن لإبراهيم أن يَصيح فيقول: يا سَيِّدِيْ ، أو يقولَ: يا شَيْخَ الكُهَّان ، لأنه كان كاهِناً ، ولكنه يقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ تعمَّد إبراهيم هذه الكلمة ليصلَ بها إلى أعماقِ قلبه ، ويُثيرَ فيه الحنان ، فالولدُ مهما بلغَ الغضبُ من والده ، إذا ناداه بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ يا والدي الكريم ، رَقَّ وتهيَّأ لسماع كلامه ، إنَّ إبراهيمَ أثار فيه الحَنان قبل أن يُثير فيه الإيمان ، والحَنَانُ يسَبقُ الإيمان أحياناً ، فقد يكون الوالد حَنوناً ولا يكون مُؤمناً ، فهذا الحنان هو الذي يستطيع الإنسان أن يعتمدَ عليه ، ولا ينبغي للداعي الحكيم أن يُغفلَ هذا الجانب ، وإذا أغفل هذا الجانبَ ، فإنه أساءَ إلى نفسه ، وأساءَ إلى دعوته إذا كان غليظاً ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالرسولُ عليه الصلاة والسلام رعىٰ هذا الجانب مع عمه أبي طالب ، فخاطبه في مواضع دقيقة مُحرجة بقوله: «**يا عَمِّ**» ، فقال حين رأى حيرته في أمر الدعوة إلى الإسلام وارتباكه فيها وتخوُّفه من مَعرَّة قُريش: **يَا عَمِّ! لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ في يَمِيْنِي وَالْقَمَرَ في يَسَارِيْ عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهلِكَ دُوْنه مَا تَرَكْتُهُ**».

وكانتْ نتيجةُ هذه الرقة مع الصَّرامة ، وإثارة العاطفة الإنسانية في أبي طالب ـ مع إيثارِه لدين آبائه ـ أن قال له: ـ وقد خاطبه بقوله: يا ابن أخي ، كما خاطبه رسول الله ﷺ بقوله: «**يَا عَمِّ**» ، ـ: «**اذْهَبْ يَا ابْنَ أَخِيْ ، فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ ، فَوَ اللهِ مَا أُسَلِّمُكَ لِشيءٍ أَبَداً**»[1].

حُسنُ اختيار سيدنا إبراهيمَ للدلائل:

ثم إنَّ سيدَنا إبراهيم اختارَ من الدلائل في إثبات كون هذه الآلهةِ لا تَستحقُ العبادة ، الأشياء المَحسوسة الملموسَة اليومية ، لم يبدأ بالأشياء التي تعتمدُ على المنطق ، وتَعتمدُ على الذكاء النادر ، وتعتمدُ على بُحوث

---

(١) «سيرة ابن هشام» ج ١، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ . طبعة دار ابن كثير ، دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

علميةٍ أو نظراتٍ فلسفية ، إنما اختار الشيء الذي يَفْهمُه الطِّفل ، لأن والدَه كان في الطُّفولة العقلية ، وإن كان متقدماً في السن ، فخاطَبه كما يخاطب الطفل : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ، وهذا من دواعي السرور للوالدِ العاقل فينبغي أن يفتخرَ ويستبشر بتفوُّق ولدِه في العلم والمعرفة ، والعقل والوعي ، وما كان فيه شيءٌ من المبَالغة وخرقِ العادة ، لأنَّ هذا يقعُ كثيراً ، يتعلَّم الولد ولا يتعلم الوالد ، ويكون الوَلد أعلمَ من والده ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ ، إنَّ كُلَّ آيةٍ من هذه الآيات وراءَها معانٍ عميقةٌ وحِكَم دقيقةٌ ، إنه لم يذكرِ الشيطان بصفاتٍ تَدِقُّ وبِصفاتٍ يَلتوي فهمُها على هذا الرجل الساذج البسيط ، الذي بلغ من غباوته أن كان ينحت الأصنام ثم يَعبُدها ، إن أكبرَ جنايات إبليس ، أنه كان للرحمن عصياً ، ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ .

الاعتماد على الفِطرة والواقعِ في دعوته عليه السلام لقومه :

ونُقارن هذا الأسلوبَ بالأسلوب الذي دعا به سيدُنا إبراهيمُ قومَه ، تَعرفون الفَرق ، فيقول القرآن :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء : ٦٩ ـ ٧٣] .

تتأمَّلون في هذه الآيات وتَعرفونها من أولها إلى أخرها ، فأولا تتفكَّرون في حكمة سيدنا إبراهيم في الدعوة ، لأنه لم يَقترحْ من نفسه أسماء أو صفات لهذه الآلهة ، حتى لا يُثير هؤلاء فيردون عليه ويُنكرونها ، بل استنطَقهم أولاً فقال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ، وهُنالك يلجأ إلى الدلائل المنطقية ، أو الإشارات الفلسفية وقال : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ فإن الحياة الإنسانية تدور حول هاتين النُّقطتين ، يَسمع

www.abulhasanalinadwi.org

الإنسانُ إذا دُعي ، وينفَع ويَضر إذا استُعين ، هذا الخيطُ الذي يَربِط فرداً بفرد ، ووجوداً بوجود ، ومؤسسة بمؤسسة ، اختار هذين الشيئين وهما القُطبان اللذان تدور حولهُما رحىٰ الحياةِ كُلّها .

﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ، هذا الذي كان يُريد سيدنا إبراهيم أَن يقولوه ، فهذا هو جوابُ العاجز ، جواب المُنقطع ، يعني ما هو الدليل على هذه الأسماء؟ هل لها مُسمَّيات؟ وهذه الأصنام المنحوتة والأوثان المنصوبة والآلهة الخيالية الأُسطورية الأخرى ، هل لها فائدةٌ في الحياة؟ وقدرةٌ على العمل؟

ومُكنةٌ من النفع والضَّرر ، وسَندٌ من العلم؟

استنفاد ثَروة الذكاء والبيانِ وطاقة الدفاع عن النفس من المُخاطَب :

وتستمرُّون في دراسة هذه الآيات تنتقلونَ من معنَى إلى معنى ، فتفهمونَ الفَرْق بين الأسلوبين ، وفَهم سيدنا إبراهيم العميقَ الدقيقَ ، للنفسيَّة الإنسانية ، وقدرَته وبراعتَه في الدخول إلى مداخل النفس الدقيقة ، وإلى أغوارِها العميقة ، كيف استخرجَ كلَّ ما عندهم مِن ثَروةِ ذكاءٍ ، وثَروةِ بيانٍ ، وثروة دفاع عن النفس ، وآخرَ سهم في كنانتهم كانوا يستطيعون أن يُطلقوه ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ، فسيدُنا إبراهيم استنفدَ كل ما عندهم من قُدرة جوابٍ فأصبحوا مُفلسين ، أصبحوا فقراء ، أصبحوا لا شيء عندهم . ثم بدأ يُوجّه إليهم الدعوة ويَدعوهم إلى الله وإلى التوحيد ، فقال :

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢] .

المنهجُ القُرآني ، إثباتٌ مُفصَّل ونَفْيٌ مُجمَل :

هنالك نُكتةٌ عجيبة من معجزات القرآن ، وهو ما نبَّه عليهِ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة ، فقال : **إنَّ فلاسفة اليونان إذا عرفوا واجبَ الوجود ، أو المبدأ**

www.abulhasanalinadwi.org

الفيَّاض ـ على حدِّ تعريفهم ـ فإنهم يتوسَّعون ويُدقّقون في نفي ما لا يليقُ بهِ عندَهم (من الصفات وغيرِها) ، أما إذا تعرَّضوا للإثباتِ فإنه يختصرون ويُجملِون ، ففي الفلسفة نَفيٌ مفصَّلُ ، وإثباتٌ مُجمَلٌ ، بالعكسِ من القرآن ، فهنالك إثباتٌ مُفصَّل ونَفْيٌ مُجمَل ، في وصف اللهِ تعالى ، في أسمائِه وصفاته ، وكذلك في الأديان السماوية وتعاليم الأنبياء إثباتٌ مُفصَّلٌ ونَفْيٌ مُجملٌ[1] ، اقرؤوا القُرآن في الإثبات والحديثُ عن الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢ ـ ٢٤].

واقرؤوا قوله تعالى في النفي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١].

وكذلك يقول شيخ الإسلام : إن مئاتٍ من أساليبِ النفي ، لا تقومُ مقام إثباتٍ واحد ، وقد صدَق ، فإنَّ هذه الحياة التي نعيشها والتي عاشتها البشرية الأولى كُلُّها ، إنما عاشتْ على الإثبات ، ما عاشتْ على النَّفي ، النفيُ نِسبةٌ ضئيلةٌ جداً إلى الإثبات .

الانطلاق والتَّدفُّق في الحديث عن الله تعالى :

فسيِّدُنا إبراهيمُ قال في جواب قولهم : ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ فاكتفى بالنَّفي المُجمَل ، ولكنه لما جاء إلى ذكر الله تعالى والدعوة إليه توسَّع واستعانَ بالإثبات المُفصَّل ، فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٧ ـ ٨٢].

---

(١) المعنى مأخوذ من «كتاب النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية ، والتعبير للعلامة الندوي .

www.abulhasanalinadwi.org

هنا خمسُ خِلالٍ ، هُنالك خصلتان فقط ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ، لكنَّه لما ذكر الله تعالى وتحدَّث عنه كأنه شعرَ بطَربٍ وجاشتْ نفسُه ، فتوسَّع في الحديث عنه تعالى ، إنَّ الإنسان إذا ذاقَ شيئاً لذيذاً ، فإنه يَلوكُه ويَمضغهُ ويُديره في الفم ، أما إذا كان الشيءُ مُرّاً ـ ولابُدَّ منه ـ فإنه يبتلعُه ابتلاعاً ويتخلَّص منه بسُرعة .

فلمَّا ذكرَ اللهَ تعالى ، تحركت العاطفة وجاشَ فيه الإيمان فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ .

مناسباتٌ لطيفةٌ :

هنالك جاشت نفسه مرةً أخرى ، فثَار يدعو الله تعالى مع أنَّه ليست هذه مُناسبةُ الدعاء ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الشعراء : ٨٣ ـ ٨٥] ، وهُنالك خطر أبوه بباله وتذكَّره ، فإنه كان من القادة إلى هذه الوثنيَّة ، والسادنَ الكاهن المعروفَ في البلد ، فقال : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء : ٨٦] ، ثم استحضرَ القيامة فقال : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٧ ـ ٨٩] واقرؤوا أخيراً : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٢] .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

نموذج من دعوة

سيدنا يوسف عليه السلام

نَربطُ الحديثَ الماضي ، ونُمسك الخيط الذي تركناه بالأمس.

عَرضنا عليكم نموذجين من نماذج الدعوة النبوية الحكيمة البليغة التي تمثَّلتْ في قطعتين مُعجزتين من قِطع القرآن الدَّعوية البلاغية إحداهُما القطع التي تمثَّلتْ فيها دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لوالده ، التي جاءت في سورة «مريم» ، والقطعةُ الثانية التي جاءت فيها دعوةُ سيدنا إبراهيم لأبيه وقومِه في سورة «الشعراء».

والآن نَعرضُ عليكم نموذجاً أخر ، نموذجَ دعوة سيدنا يوسفَ عليه وعلى آبائه السلامُ ، فنتلو عليكم أولاً الآياتِ التي تتَّصل بهذه القصة من سورة «يوسف» ، يقولُ الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١].

www.abulhasanalinadwi.org

المحيط الفَريد الذي قامت فيه دعوتُه عليه السلام:

وقبل أن نشرح هذه الآيات نُريد أن نُخيّل لأذهانكم المحيطَ الذي قامتْ فيه هذه الدعوة، والأجواءَ التي اكتنفَتها، فأولاً يجب عليكم أن تَعرفوا من هو يوسف؟، هو ابنُ سيدنا يعقوبَ، وهو ابنُ سيدنا إسحاق وهو ابنُ سيدنا إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام، جَدِّ الأنبياء، وإمام دعوة التوحيدِ في عصره، وبعدَ عصره، ويوسف، هو الذي يقول الرسول ﷺ فيه: «**الكَرِيْمُ ابنُ الْكَرِيْمِ بْنِ الْكَرِيْمِ بْنِ الْكَرِيْمِ**»، فهو عريقٌ في العِرْق، عريق في النُّبْلِ، عَريقٌ في النبوة، عَريقٌ في معرفة اللهِ تبارك وتعالى، عَريقٌ في الأخلاق العالية، وقد تحدثتْ عنه الصحف السماوية، وتحدَّث عنه تاريخ النبوات والأدب والدين، أنَّه كان آيةً في الجمال، وأن الله سبحانه وتعالى قد أكرمه بجمالِ العقلِ ـ إذا صح هذا التعبير ـ وجمال الشعور والعاطفة، وجمال الرقة والكرم، فكان جميلا بكل معنىً من معاني الجمال، وقد تجلَّى هذا الجمال في كلامه وفي كلّ تصرفاته وفي كل خواطره.

وقبل أن نتذوَّق هذه القطعة الدعوية البيانيَّة البلاغية الرائعة[1] يجب علينا أن نَستحضر الأجواءَ التي اكتنفت هذه الدعوة، اقرؤوا معي الآيات التي وردت في قصته من قوله تعالى ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٣٥].

فسِيقَ إلى السجن وأُدخل فيه بتُهمةٍ بَرأهُ الله منها، كما برَّأ من دمِه الذئبَ، فدخل في السجن سَجيناً مُفترىً عليه، والسُّجون تَتلقَّى الأحكام وتُنفِّذ، لا شأن لها بالتحقيق، إنما تَتسلَّم المسجونين، كما نتَسلَّم نحنُ البريدَ، لا نعرف ماذا فيه، وقد تكون برقية تحملُ نبأً مُفجِعاً، وبرقية

---

(١) من الغريب أن هذه القطعة المعجزة الجميلة قد تجردت عنها التوراة، وإذا قارن الإنسان بين قصة يوسف في القرآن، وقصة يوسف في بايبل (BIBLE) وجد الأولى تتسم بروح الهداية والدعوة، والعبرة والموعظة، ووجد الثانية مليئةً بالأعداد والأرقام والمساحة.

www.abulhasanalinadwi.org

تحمل بُشرى ، كذلك السَّجَانون الموكَّلون بالسُّجون يتسلَّمون مَنْ صدرَ عليهم حُكم السِّجن والاعتقال ، كمن يتسلَّمون السِّلَع والجمادات ، أمسكوا بيدِ سيِّدنا يوسفَ وهُم لا يعرفون بيتَه ولا شرفَه ولا بَراءتَه ، وأدخلوه في بَقِيَّة المسجونين ، وإذا لم تتوفر وسائل التحقيق خارجَ السجن ، فكيفَ تتوفر داخلَ السجن؟ يُغلق بابُه على من فيه ، ولا يَدخل إليهم الهواء النقي ، والسِّجنُ عالَمٌ صغير ، والمسجونُون عندهم فراغٌ في الوقت وفُرصة طويلةٌ للحديث.

موضعُ احترامٍ وتقديرٍ وثقةٍ:

ولكنْ في أيامٍ قليلة لفتَ يوسفُ الأنظارَ وأصبحَ حديث السِّجن ، وقد بدَّد نورُه هذا الظَّلامَ المُحيطَ به ، هدوءٌ ورزانةٌ ووَقارٌ وسَكينةٌ ، وذِكرٌ وتَسبيحٌ ، وخُلُقٌ وتواضعٌ ، وعَطفٌ وكرمٌ ، فاضطُرَّ أهلُ السجن إلى أن يحترموه ، وكانوا في ذلك مُضطرين ، كأنَّ سائقاً يَسوقهم إليه ، وكان كُلُّه من تقدير اللهِ سبحانه وتعالى.

ثم ماذا حدث؟ رأى اثنانِ من أهل السجن مَنامَين غيرَ عاديين ، أما أحدهما ، فقد رأى أنه يَعصِرُ خمراً ، وقد شُغل بهذا المنام وسَيطر على تفكيره وعلى مشاعره ، والثاني رأى أنه يحملُ فوق رأسه خُبزاً تأكل الطيرُ منه ، وفيه شيءٌ من الغرابة ، وقد ألهَمهما اللهُ تعالى أن يَرجعا في ذلك إلى يوسف ، هذا ما هدَتْهُما إليه سلامةُ الفطرة ، وقُوة الملاحظة ـ التي لا يخلو منها إنسان ـ والتجربةُ القصيرة التي عاشها أهلُ السجن ، وأكثر الناس يعتمدون على التَّجربة والمشاهدة أكثرَ مما يعتمدون على العِلم والمنطق ، وحَكيا رُؤياهما ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

معنى الإحسان:

وما معنى الإحسان في هذا المكان؟ هل كان يوسفُ يملِكُ شيئاً من المال كان قد أخفاه فهو يُوزِّعهُ عليهم؟ هذا الذي يتبادر إلى ذهننا إذا سمعنا

www.abulhasanalinadwi.org

كلمةَ الإحسان ، ولكنَّه شيءٌ غير معقول وغيرُ ممكن العملُ بالنسبة إلى يوسفَ والوضعِ الذي كان فيه.

الإحسانُ هو الإتيان بشيءٍ في درجة أكملَ وأجملَ بصفةٍ أجملَ وأفضلَ ، ولذلك لما سُئل رسول الله ﷺ ، وقيل: ما الإحسان؟

قال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1] هذا هو الإحسان: فقالا: إنا نراك من المحسنين في العبادة ، إنَّا نراك من المُحسنين في الكلام ، إنا نراك من المحسنين في المعاملة ، وكان سيدنا يوسف ـ كما قلتُ لكم ـ قد أحاطت به هالاتٌ من هذه التُّهمة ومن الشائِعات ، وآثْرتُ كلمة «هالات» لأنَّ سيدَنا يوسف كان قمرًا ، فهذا القمر الإنسانيُّ كانت تُحيط به هالاتٌ من التُّهم والشُّبَه والظُّنون والقِياسات ، لماذا أُدخل السجن؟ لعله فَعل كذا ، أو فعل كذا ، ولكن انشقتْ عنه هذه الهالاتُ ، وأحاطت به هالةٌ أخرى ، وهي هالةُ الإعجاب وهالةُ التَّقدير والثِّقة.

أَهمُّ من الرُّؤيا المفزعة وأجدرُ بالاهتمام:

لقد عَرف يوسفُ أن الرؤيا الغريبة أفزعتْ كُلَّ واحد منهما فساقتْهُما إليه ، وذلك مَبلغُ علمهما ومنَاط اهتمامِهما ، لا يعرفان السعادةَ والشقاء إلا في هذه الحياة ، ولكنَّ يوسف الذي نشأ في أحضانِ النبوة وفتحَ اللهُ بصيرته ونوَّرها ، وهيَّأهُ للنبوة والرسالةِ ، كان يعرفُ أن الذي يتناسيانِه هو أهمُّ من هذه الرؤيا وهو الإيمانُ بالله ـ بفاطر هذا الكون ومدبّره ـ وعقيدة التوحيد التي لا يُشوبها شِركٌ ، وهل الحياة ـ مهما طالتْ واتَّسعتْ ـ إلا رُؤيا يراها الناس؟ وكانا إلى معرفة تأويل هذه الرؤيا أحوجَ وأفقرَ ، وكان جهلهُ وتَناسيه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان ، رقم الحديث (٥٠) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، رقم الحديث (٨) و(٩) ، والترمذي في كتاب الإيمان ، باب ما جاء في وصف جبريل. . . رقم الحديث (٢٦١٠) ، والنسائي في كتاب الإيمان وشرائعه ، باب صفة الإيمان والإسلام ، رقم الحديث (٤٩٩٣) و(٤٩٩٤) وأبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر ، رقم الحديث (٤٦٩٥) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب في الإيمان ، رقم الحديث (٦٣).

www.abulhasanalinadwi.org

أكبرَ خطراً وأشدَّ ضرراً ، فرأى ـ بما فطرَه اللهُ عليه من الرحمة والنُّصح والإخلاص ـ أَ يُنبِّههما بالخطر الحقيقي ، ويُزوِّدهما بالعلم النافع الأساسي ، وقد صادف من العقل وعياً ، ومن النفس انتباهاً ـ ولو في قضيةٍ تافهة ـ وذلك لا يَدوم ، ولعلَّ هذه هي الفرصةَ الأخيرة للحديث معهما ، فأراد أن لا يُضيِّعَها ، وأن يَبذرَ في هذه التربة ـ التي أصبحتُ نَدِيَّةً نَاعمة ـ البذرةَ الكريمة، فاتَّخذ من مُناسبة تفسير الرؤيا مدخلاً لتوجيه الدعوة إلى الله، وأثارَ فِطرتهما السليمةَ للتوصل إلى عقيدة التوحيد الواضحة السائغة.

الجمالُ الرائع في فَتحِ الحديث:

وأُريد أن تنتبهوا إلى الجمال الرائع في فَتح الحديث ، فمن مظاهر الحديث الجميل جمالُ المَدخل ، لأن المدخلَ له أهميةٌ كبيرة ، وإذا كان مَدخل الحديث الجميلِ مَدخلاً غير جميل وأثَّر في جماله وأساء إليه ، وكذلك البناءُ الجميل ، يجبُ أن يكون مَدخله جميلاً ، ينشرح له الصدر ويُشجِّعُ على الدخول.

إن يُوسف بدأ الحديث بالتأكيدِ لهما ، أنَّه يستطيع أن يُفسِّر النبأ الذي جاءا لأجلهِ وقَصداه ، وأنه لم يكن هذا القصدُ خطأً ، أنَّهما ما ضلاّ الطريق ، وإنَّما وصلا إلى غايتهما ، وهو الرجلُ المطلوب الكُفؤُ ، الذي يستطيع أن يُنجدهما ويُرشدَهما ، فإن الأصل النفسيَّ العميق أنَّ صاحب الحاجة يُريد أن تُقضىٰ حاجتُه في أقرب وَقتٍ ، المريض إذا ذهبَ إلى طبيبٍ يُشخِّص المرض ويَصِفُ الدواء ، والطبيب يُماطله ويُماطله ، يقول: سأُراجع الكتب من المصادر الطبية ، وسأُراجع فلاناً وفلاناً في البلد ، ثم أُحاول أن أعالجك ، فالمريضُ المسكين يتألَّم قلبهُ ، وينقطع أملهُ ، ويرجع خائباً ، ورُبَّما لا يرجع إليه بعدَ ذلك.

فالشيء الأول أن يُثير الإنسانُ الثقةَ في ذلك الرجل الذي ساقتْهُ الحاجةُ إليه ، ويُقنعهُ بأنَّ علاجهُ عنده ، وأنَّ طُلبَته وحاجتَه ستُقضى عنده ، فقال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾.

يعني أن حاجتهما ستُقضىٰ سريعاً، لأنَّهما كانا في السجن مرتبطَين

www.abulhasanalinadwi.org

بقوانين السُّجون والمعتقلات ، فما كان لهما أن يَجلسا بجواره طويلاً فأراد أن يُطمئِنَهما أنَّ حاجتهما ستُقضى سريعاً ، فقال: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا ﴾.

وهنالك تفسيران للآية:

١ ـ التفسير الأول:

إنَّ سيدنا يوسفَ عليه السلام قال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾ أي تأويلَ هذا الطعام ، يعني حقيقةَ هذا الطعام ، فأراد أن يُوجد الثقةَ فيهما عن طريق إظهار قدرته على التنبُّؤِ بشيءٍ لم يَرهُ ، فاستعانَ به على إيجاد الثقة في نفوسهما.

٢ ـ التفسير الثاني:

وأنا لا أستسيغُ هذا التأويل ، أولاً: لأنه إخبارٌ بالغيب ، ثم إن السجون ليس فيها تنوُّعٌ كبير في الطعمة ، فباستطاعتهِ ـ بكل سهولة ـ أن يُخبرهما بنوع الطعام الذي سيحضر ، فأيُّ ألمعيَّةٍ لسيدنا يوسفَ عليه السلام؟ وأيُّ براعةٍ في الإشعار بنوع الطعام الذي سَيحضُر؟ وجاء في التوراة أن سيدنا يوسف عليه السلام كان مُشرِفاً على المطعم ، إن صحَّ هذا ، فإنه لا غرابة لمُشرفِ المطعم في أن يُخبر أيَّ نوع من الطعام سَيحضُر ، فأنا أميل إلى التفسير الثاني الذي وردَ في بعض كُتب التفسير ، وهو: أنه لا يأتيكما طعام تُرزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا ، حتى يَطمئنَّا أنهما لا يحتاجان إلى جلوسٍ طويل ، ولا يَملاَّن ، ولا يأتي السجَّان فيقولُ: اذهبا إلى مكانكما ، ومَن الذي أذن لكما بالحضور هنا؟

فقال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾.

وكانتْ مِصرُ على جانبٍ كبير من الحضارة ، وتنظيم الحياة المدنيَّة ، فالمفروض أنه كانت هناك مواعيدُ مضبوطةٌ للطعام ، وكان وقتُ الطعام قد حَضر ، فلذلك قال: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾.

www.abulhasanalinadwi.org

تَنشَطُ النفوسُ لسماع الحديثِ بشيءٍ لذيذٍ حبيب:

ثم هناك نكتةٌ حضرت لي الآن ، وهي أنَّ بين المسجونين وبينَ الطعام الذي يأكلونه في السجن صلةٌ قوية ، فلما ذُكر الطعامُ أثار فيهمُ الشوقَ ، وانتعشتْ قلُوبهم لسماع ذكر الطعام ، فالطعامُ حبيبٌ إلى كل إنسان ، ولكنَّه إلى المسجونَ أحبُّ وألذُّ وأشهى ، فلما ذكَره يوسفُ انتعشتْ نُفوسهما ، وتهيَّأت آذانُهما ، فقال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ .

ثُم تثور فيه الطبيعةُ النبوية ، فلا يَردُّ الفَضلَ في ذلك إلى ذكائه ولا إلى براعته ، بل يَردُّ الفضل إلى الله ، ومن هُنا ينتقل انتقالاً حكيماً قلَّما يُوجد له نظيرٌ ، فقال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ فكان المدخل الكريمَ إلى النَّصيحة التي يُريدها ، وانظروا: كيف ينتقل من تفسير الرؤيا ـ قبل أن يُفسِّرها ـ إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لا يُسيغه و يتحمَّله هؤلاء المسجونون الذين ساقتهم الحاجة إليه ، وكانا قد فزعا بهذه الرؤيا المفزعة وجاءا فَزعَين ، فكيف يَحتملان هذا الحديثَ الطويل ، فقال لهما: إنَه لا يرجع الفضلُ في ذلك إلى ذكائي وبراعتي ، بل يَرجعُ الفضل إلى الله تعالى ، ومن هنا يَدخل من هذا المَدخل اللَّطيف الرقيق الخفيف على النُّفوس إلى الدعوة ، تستحضرون حِكمته في الدعوة أنه لم يكن يستطيع أن يقول: صَبراً أيها الإخوان ، أيها الزُّملاء الكرام ، سأُفسِّر لكم الرؤيا ، ولكن اسمعوا مني أولاً ، أنَّ هناك شيئاً أهمَّ من هذا ، كيف كانوا ينشطون لسماع هذا الكلام ، وهذا الحديث الذي لم يتعوَّدوه ، وما جاؤوا لأجله؟ فقال من غير انفصالٍ طويل ، بل في لحظة واحدة:

الانتقالُ الخفيف الرقيق إلى عَرْض الدعوة:

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ استحضِروا الجوَّ الذي وقعتْ فيه هذه الدعوةُ الحكِيمة التي لا أعرفُ مثلها دعوةً إلا دعوةَ الرسول ﷺ ، وسأعرضُ عليكم نموذجاً منها ، ولم أمرَّ بأي نموذج من نماذج الدعوة في تاريخ الدعوة والعاة أدقُّ وأعمقُ منها حيث بدأ الحديثَ بقوله: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ . . . ﴾ إلى أن قال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ ، كيف انتقل إلى

www.abulhasanalinadwi.org

الحديث عن الربِّ ، وإلى التوحيد ، هل هناك انتقالٌ أخفُّ وأَرقُّ وألطفُ وأسرعُ من هذا الانتقال؟ فكأنّه يقول: ما كنتُ لأُفسِّر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الإنسانُ الضعيف العاجز الذي لم أملك نفسي أمام هذا الأمرِ ، وأراد الناس أن يَزجُّوني في السجن فلمْ أستطع أن أُقاومهم ، وكيف يستطيع الإنسان الضعيف العاجز ـ الذي يساق إلى السجن فلا يَملكُ شيئاً ـ أن يَصل إلى هذه القمة الشامخة من العِلم بنفسِه ، بل ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ .

رحلةٌ طويلة يَطويها سيدُنا يوسف في لحظةٍ واحدة:

ثم أثار سؤالاً آخر ، وهو: لماذا علمني ربي؟ ومن هنا انتقل انتقالاً آخر ، إنها رحلةٌ طويلة في طريق الدعوة ، لكنَّ سيدنا يوسفَ بحكمته وبرُوحانيته الشفافة ، وقلبه المشرق ، وبفكرِه النَّقي الرباني ، استطاع أن يطوي هذه الرحلة الطويلة التي قد يطويها الدعاةُ والحكماء والفلاسفة في عدد من السنين ، استطاع أن يَطويَها في لحظة واحدة ، فقال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٧].

هنالك شعرَ سيدُنا يوسف عليه الصلاة والسلام أنه الآن في موقف قوي ، في موق عال ، كأنه طلع جبلاً ، أو رَبوة عاليةً ، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩] ، وكان لو قدَّم هذا قبل ذلك الكلام ، لكان كلاماً ثقيلاً على آذانهما وعلى قلوبهما ، ولكنْ هنا استطاع أن يقول وحُقَّ له أن يقول: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ . لاحظوا هذا التقديم والتأخير ، ولاحظوا هذا الترتيبَ القرآني ، الترتيبَ الحكيم ، وكان لو استمر في الكلام ، كان الكلام مَمجوجاً ، ولكنه شعرَ بقوةٍ في نفسه ، وشعر بحُسن استماع منهم لما كان يقرأ في وجوههم أنهم تهيَّؤوا لاستماع هذا الصوت الذي يأتي من السماء ، لأنه دعوةُ الله للعبيدِ عن طريق الأنبياءِ والمرسلين ، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ اشعروا بالنَّبرة التي تختلف عن النبرة الأولى ، كانتِ النبرة الأولى رفيقةً لطيفة خفيفة ،

www.abulhasanalinadwi.org

فجاءتْ هذه النبرةُ قويةً ، مُتدفقة بالحياة ، مُتدفِّقة بالثقة ، وكان ذلك من أقرب الطرق إلى فَهمهم ، أما لو استعانَ بأشياء منطقيةٍ وكلامية ، لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك .

إعجازٌ قُرآنيٌّ عجيب :

ثم قال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف : ٤٠] ، إنها أسماء من غير مُسمَّياتٍ ، إنها أسماءٌ لا حقيقةَ لها ، أسماءٌ عند اليونان ، وأسماءٌ عند البراهمةِ الوثنيين ، وأسماءٌ عند غيرهم من أمثالهم ، إنَّ الإعجاز القرآني يَكمُن في أنه أطلق عليه كلمة الأسماء . إن الذي قرأ تاريخ الديانات وتاريخ المثولوجيا ، يعرفُ إعجاز هذه الآية ، إنَّه ليس هناك إلا أسماء مَحضةٌ ، أين الآلهة؟ أين إله المطر وإله الحرب؟ وأين إله الحب وإله الجمال؟ أين هذه الآلهة التي لا وجود لها إلا في الذهن وفي القائمة الخيالية؟ ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ، ولا تزال هذه الآية معجزةً إلى أن يَرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها ، وليستِ الوثنية إلا أسماءً ، وقد فضح القرآن الوثنية بقوله : ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ .

طريقة الداعي المُلهَم :

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأنَّ الفراغَ الذي وُجد في قلوبهم قد مُلىء ، وليس من الحكمة الآن أن يُطيل الكلام ، ويتوسَّع فيه والحديث عن التوحيد ، كالطبيب النطاسيِّ يعرف مقدار الوَجبة من الدواء ، ومدى صلاحية المريض وحاجته ، فلا يزيدُ عليها ، إنها طريقة الداعي الملهَم ، الداعي المؤيَّد من الله ، إنه يشعر أنه قد وصل إلى نُقطة لا يجوز له أن يتخطَّاها ، ولأجل ذلك فإن من يضع القوانينَ المحدَّدة للدعوة أو التربية ، يجني عليها ، على إطلاقها وحريتها وحيويَّتها ، ويجني على الدعاة[1] .

---

(١) اتفق للعلامة الندوي أن يلقي محاضرة في ١٧/ ٤/ ١٤٠٠هـ في قاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، كان عنوانها «حكمة الدعوة وصفة الدعاة» =

www.abulhasanalinadwi.org

وإلى اللقاء في عرضِ نموذج دعوةِ سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلام.

* * *

= جاء فيها حديث عن دعوة سيدنا يوسف ، وتفتحت له جوانب جديدة من الجمال والروعة البيانية في هذه القطعة ، فضمها إلى هذه المحاضرة التي سبقت محاضرة الجامعة الإسلامية بشهور عند تحرير هذه المجموعة إكمالاً للفائدة ، انظر هذه المحاضرة في هذا الكتاب في صفحة (١٠٤).

www.abulhasanalinadwi.org

أمثلةٌ مِن دعوةِ

سيدنا موسى عليه السلام وحكمته النبوية

لوحةٌ جميلة أخرى من الدعوة النبوية:

نعرضُ عليكم اليوم لوحةً جميلة أخرى من الدعوة النبوية ، دعوة سيدنا موسى ، الدعوةِ التي كُلّف بها ليُبلِّغها إلى فرعون ، وهذه الصورة تختلفُ عن الصورة التي قدَّمناها قبل هذا ، وعن الصورة التي نُقدِّمها بعدها كذلك ، في ثلاثة جوانب ، تختلفُ هذه الصورة في طبيعة الدعوة ، وفي وضع الداعي ، وفي واقع المدعوِّ إليه ، فهذه الدعوة التي قام بها سيدنا موسى ـ أو كُلّف بها على الأصح ـ تختلف في نَفس الدعوة ، إنها لا تختلفُ عن دعوات الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام في الأُسس وفي الأهداف وفي الأجزاء الرئيسة ، الدعوة إلى الله ، والدعوةِ إلى التوحيد ، والدعوةِ إلى الإيمان بالبعث والنَّشر وبالحياة الآخرة ، والإيمان بصفاتِ الله تعالى والحقائق الغيبية ، ولكنها تختلف في جانب واحد ، وهو أنَّ هذه الدعوة اقترنتْ بها مُهمة أخرى ، اقترنتْ بها مُهمة إنقاذ بني إسرائيل من عذاب فِرعونَ ومِنَ اضطهاده.

مُهمة سيدنا موسى تختلف عن مُهمة الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام:

إنَّ الأوضاع التي وُلد فيها سيدنا موسى وعاش فيها ، والأجواء والملابساتِ التي اقترنت به ، جعلتْ مُهمته تختلفُ عن مهمة النبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام أجمعين اختلافاً يسيراً ، وهو أنه كُلِّف أن

www.abulhasanalinadwi.org

يقول لفرعون كلمةً صريحة أنه جبارٌ ، وأنه تسلَّط على بني إسرائيل أولادِ الأنبياء المؤمنين بالله ، والمؤمنين بعقيدة التوحيد وحدَهم في ذلك العصر ، لم تكنِ القضية قضية أُمَّة من الأمم ولا قضيَّة مجموعةٍ بشرية من المجموعات الكثيرة التي كان يَزجرُ بها العالم ، ولا تزال هذه المجموعات على وجه الأرض. لو كانتِ القضية قضيَّة أُمةٍ مضطهدة ، قضية أمةٍ تسلّط عليها جبارٌ سَخَّر الأمة ليقضي مآربه وأخذَها بالسُّخرة الظالمة والقَسوة البالغة وبالاضطهاد الديني؛ لكان أمراً يسيراً ، فهذا يَقع كثيراً ، وقع في كل فترة من فترات التاريخ ، وسيَقعُ في كل حقبة من أحقاب الزمان.

مِيزةُ بني إسرائيل في معاصريهم:

ولكن لم تكنِ القضيةُ بهذه المكانة من البَساطة والسهولة كانتْ هذه الأمة هي الأمة الوحيدة التي كانت تُؤمن بالله إيماناً صحيحاً ـ على عِلاَّتها وعلى ما كانت تُعاني من أدواء خُلقيةٍ ودينية كذلك ـ ولكنَّها كانت هي البقيَّة الباقية التي كانت تؤمن بالله إيماناً صحيحاً ، تُؤمن بالتوحيد ، وهي الأمينةُ على عقيدة التوحيد ، فقد ثبتَ تاريخياً أن بني إسرائيل كانوا في كل فترةٍ من فترات التاريخ ، على رُغم أدوائِهم الكثيرة ، ورُغم انحطاطهم الخلقي والاجتماعي ، مُتمسِّكين بعقيدة التوحيد ، وقد أتى على الناس حِينٌ من الدهر لم يكن لعقيدةِ التوحيد وُجود إلا في اليهود؟ ولذلك علَّل المفسِّرون أشرفيَّة السُّلالة الإسرائيلية بكونهم مُحافظين على عقيدة التوحيد في الظلام السائد على العالم من الشرك والوثنية[1]. لم تكنِ القضيةُ أن بني إسرائيل وقعوا تحت سنابِك خيلِ فرعون وجنودِه ووقعوا تحتَ رحمته وهو قاسٍ جبارٍ ، بل إنَّ القضية أنَّ بني إسرائيل كانوا حاملين لعقيدة التوحيد ، وحاملين لأثارةِ النبوات السابقة ، كانتْ عندهم الأمانةُ العزيزة ، البقيةُ من تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) فإن الله يؤكِّد هذا المعنى ويكرِّر فيقول: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

www.abulhasanalinadwi.org

أُلقيت على عاتِقه عليه السلام مُهمتان:

فسيدنا موسى يختلف عن الأنبياء الآخرين ، لأنه أُلقيت على عاتقه مهمتان؛ مهمةُ دعوةِ فرعون إلى الله الواحد القهار الذي لا شريك له في الملك ، ولا في التشريع ، ولا في أي شيء ، ومهمة أخرى وهو أن يدعو فرعون إلى أن يَترك بني إسرائيل وشأنَهم ، ويفك أسرى بني إسرائيل ، فقد جاء في القرآن صريحاً: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧] هذا هو الجانب الذي يُميّز دعوة موسى عن دعوة الأنبياء الآخرين وكان موقفاً حرجاً ، لماذا؟ لأن لسيدنا موسى قصةً ، قصةً فريدة ، وحياتُه حياةٌ من طراز آخر.

أراد فرعون أن لا يُولد مولودٌ عاديٌّ في بني إسرائيل ، وأراد الله أن يُولد أكبرُ مولود:

إنه وُلد في جوٍّ قاتِمٍ خانقٍ قاتل؛ إنَّ فرعون وجَّه تعليماتِه إلى «قسم المخابرات» كما تقول المصطلحاتُ الحالية ، إلى شرطته أن لا يدعَ أحداً يُولد في بني إسرائيل ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤] إن فرعون قد خطط تخطيطاً دقيقاً ، تخطيط الحكومات المنظَّمة أن لا يُولد في بني إسرائيل مولودٌ جديد ، وينقرضَ جيلُ بني إسرائيل ليتخلَّص منهم تماماً ، وتبقى طبقة النساء ، يُذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه قرَّر كمَلِكٍ صاحب حَوْل وطَوْل ، وأراد أن لا يُولد أيُّ مولود عادي ، وأراد اللهُ أن يُولد أكبرُ مولود ، وأرهبُ مولود ، أراد أن يَنجو وأن يتفادى وأن يستريح من مولود يشكل خطراً على حُكمه وخطراً على مشاريعه ، وخَطراً على مخططاته ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى خيَّبَ مُخطَّطه لأنه أمَر أن يُولد موسى الذي كان يُذْبَح لهُ الأطفال ، إنما كانوا يَقتلون الأبناء في حساب موسى ، ولكنَّ المولود الذي كان فرعون يخشاه وكان يَرصُد له؛ وُلدَ ، ثم أراد أن لا يعيش؛ فعاش ، وأراد أن لا ينشأ؛ فنشأ ، وأراد أن لا يَشِبَّ ، فشَبَّ ،

www.abulhasanalinadwi.org

وكيف عاش وكيف نشأ؟ هذا من عجائب التاريخ الإنساني ، ومن مُعجزات قدرة الله تبارك وتعالى ، إنَّه نشأ في أحضان ألدِّ عدوٍّ ، وفي حِجر أعدىٰ عَدوٍّ يُوجد على وجه الأرض .

جَوٌّ خارِقٌ للعادة :

تستحضرون هذا الجوّ الذي كان جَوّاً خارق العادة ، وكلُّ شيء فيه خارق للعادة ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٨ ـ ١٣] .

ثم خرج من غير استئذان ، وكان مِن قَتل القِبطي ـ أحد أعضاء الأسرة الحاكمة أو الشعب الحاكم ـ ما حكاه القرآن : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ٦٥] .

هذا من مُعجزات الإيمان ومن معجزات القُدرة الإلهية ومن الآياتِ البينات ، إن الله يَكِل هذه المهمة إلى فردٍ مَوقِفُه أضعفُ من كُلّ فردٍ من أفراد بني إسرائيل .

مِحنةٌ لقوة النفس وقوة الإيمان :

الشيء الثاني أن سيدنا موسى الذي حكى القرآن قصَته في سورة القصص في تفصيلٍ أكثر ، وفي سُورٍ أخرى تارةً بإجمالٍ ، وتارة بتفصيل ، هذا الذي يُؤمر بالدعوة ، وفي كل منهما مِحنةٌ عظيمةٌ للإيمان ، ومِحنةُ التوكل على الله ، ومحنةٌ لقوة النفس ولقوة الإيمان ، محنةُ المطالبة بحية بني إسرائيل ،

www.abulhasanalinadwi.org

فهذا الشيء الذي يجعل سيدنا موسى عنده شيء من الارتباك ، لذلك يقول القرآن على لسانه في سورة الشعراء: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٤] وهو الذي أشار إليه فرعونُ بقوله: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩] فهذا يجعل سيدنا موسى مرتبكاً بعض الارتباك ، ومتردّداً بعضَ التردد ، عندما أُكرم وأُمر بأداء هاتين المهمتين ، وتبليغ هاتين الرسالتين ، ولكنَّه سبحانه وتعالى كان أعلمَ بأن موسى هو الرجل المهيَّأ ، الرجلُ المختار لهذه الدعوة.

والآن تأتي أمامنا قطعةٌ من القرآن فيها امتحانٌ لسيدنا موسى كنَبيٍّ مُلهم ، وكداعٍ حكيم يَجمع بين الغيرة على هذه الدعوة وبين الفِقه الدقيق العميق لها ، ولابد أن يكون النبي هو الأسوةَ والمثلَ الكامل في منهاج الدعوة ، هذه هي النقطة الدقيقةُ الحاسمة بين الدعاة المقيَّضين المهيَّئين للدعوة ، المؤيَّدين من الله ، وبين الدعاة المحترفين المصطنَعين ، المتكلِّفين المتملّقين ، المجامِلين الذين يُسمُّون أنفسَهم «واقعيين».

أحبُّ عبادِ الله إلى أبغضِ عباد الله:

فأولاً يجب أن نُلاحظ أن الله سبحانه وتعالى يُرسل سيدنا موسى الذي هو حبيبُه وصَفيُّه إلى رجل هو أكبرُ عَدوٍّ له ، يعني هنالك نِسبة المضادّ ، نسبةُ التفاوت العظيم الذي لا يقوم بين رجلين عاديين ، إنما يقومُ بين رجلين هما على طرفي النقيض ، أحبِّ عباد الله إلى أبغض عباد الله ، أعظم الرسل في عصره ، يُرسلُ إلى إنسان قد تحدَّى القُدرة الإلهية وقد تحدى الكبرياء الإلهية ، وقد جاء في الحديث القدسي: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِيْ ، وَمَنْ نَازَعَنِيْ رِدَائِي قَصَمْتُهُ**» ، وقد بلغ من التحدّي ومن الوقاحة ، ومن الجراءة على الله آخرَ نقطة ، فقال: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] فيرسلُ الرسول الذي يُكرَّم بالرسالة ويكرَّم بالاصطفاء وبالكلام وبالمناجاة مع الله تبارك وتعالى ، يُرسله إلى أكبر عدوٍّ اقترف أكبر ذنب ، ثم قد ضَمَّ إلى ذلك أنَّه ادّعى الألوهية ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، فيرسلُ الله تبارك وتعالى مثلَ هذا الرسول الكريم إلى هذا العدوِّ البغيض الرجيم ، ولكن ماذا يقول له:

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤] بعد ذلك لا يمكن أن يتعلَّل إنسان ويقول: إني أغلظْتُ لفلانٍ القول لأنه كان كذا وكذا، لأنه ما يُمكن لإنسانٍ أن يبلغ إلى هذا المدى من الوقاحة ومن الضَّلف من الكبرياء ومن التحدي لقُدرة الله تبارك وتعالى وجَبروته وملكه، فيقول: «أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ».

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه: ٤٥].

قد كان في موقفه ضعفٌ وحَرج ودِقة، لذلك قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٦ ـ ٥٠].

السَّهمُ المسْموم من كِنانة فرعون:

تفتقت قريحةُ فرعون الشيطانية وأخذَ من كنانته سهماً مسموماً، هو السَّهم الذي لا يَطيش، السَّهمُ الذي لو أُطلق على أي واحد من الدعاة الأذكياء الحاذقين الذين درسوا فلسفة الدعوة ودرسوا علمَ النفس، وعلمَ الاجتماع، وعلمَ الجدل والمخاصمة لتحقَّق له الفشل الذريع، قال: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٥١]، هذا من ذكاء فرعون الشيطاني، فإنه أراد أن يُحرك غضب نُدمائهِ الذين كانوا جالسين، أراد أن يتخلَّص وأن يَصيد بهذا السَّهم الواحد صيدين، أولاً أراد أن يَشغله عن الدعوة إلى التوحيد لأن أخوفَ ما يخافه، هو التوحيدُ الذي يُحرِّك السواكن من القلوب، ويُحرك الإيمانَ الدقيقَ الكامن في قرارة نفوس هؤلاء، لأنهم كانوا بشراً وكانوا بني آدم، وكان فيهم أصحابُ عقول وضمائر، فكان يُمكن أن يحرِّك هذا، فأراد أولاً أن يَشغل عن هذه النقطة الحساسة التي كانت من أبغض النقط إلى فرعون، وكان من أوحش الناس لها، ثم أراد أن يأخذ في جوارِه هؤلاء الذين كانوا جالسين حوله، لأنه بقي وحده، وكان مخاطباً وحدَه، فأراد أن يكسب وُدَّهم ويُثير حميَّتهم الجاهلية، فأثار موضوعاً شديد الحساسية

www.abulhasanalinadwi.org

بالنسبة لهؤلاء المتكبرين ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ هنالك احتمالان ، إما أن لا يُحابي موسى ولا يُجامِلُ ويقول: هم في جهنم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فمذا تكون العاقبة ، هؤلاء تثور فيهم حميَّة الجاهلية ويشيطون غضباً وعلى الأقل أنَّهم لا يسمعون لموسى كلاماً ، إما ينفضُّون من هناك ، وإما يَبطشون بسيدنا موسى ـ أكرمه الله وعصمه ـ وإما أن يُحدثوا صَخباً وغوغاء ، ماذا تقول يا موسى؟ قد أهنتَ آباءَنَا وجَرَحْتَ شُعُوْرَنَا.

السِّر الكامن والإعجاز الكامل:

وهنالك احتمال آخر ، وهو أن يَسكت موسى أو يُجامل آباءهم ، فيقول: نحن نَحترمهم وأنَّهم كانوا على علم كبير ، أشياءُ من المجاملة ، فكان لابد أن يتمسَّك فرعون بهذا ويتشبَّث به ويقول: إذا كانوا يستحقون الاحترام ، وإذا كانوا أجلاء فإنهم كانوا على عقيدتي ، ولكن ماذا قال موسى؟ ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢] ثم تخلص من هذا إلى ما كان يقوله مثل «**الحَدِيْثُ بِالْحَدِيْثِ يُذْكَر**» كان يُمكن أن يقول عِلمُها في التاريخ ، ولكن إذا قال التاريخُ المجرد ، أو في قصص الأولين لتحوَّل الموقف وصار فرعون يخطبُ ويتكلم ، واحتجَّ بالتاريخ المؤلَّف المختلَق في عصره ، والمدروس في مدارسه ، ولكنه قال: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ﴾ تُلاحظون التعبير الدقيق وتخيُّر الكلمات ، هنا السِّر الكامن والإعجاز الكامل ، كان هنالك ألفُ تعبير ، ويستطيع كلُّ واحد منا إذا واجه هذا الموقف أو وقع في مثل هذه المحنة أن يتخلص منها بألفِ تعبير ، خَلِّ هذا الذكر ، واتركْ هذا الحديثَ ، هذا في قَصص الغابرين ، هذا في حديث الأولين.

التمسُّك بالدعوة وعَدمُ الحياد عنها:

ولكنَّ موسى لم يَترُك سبيل الدعوة ، ولم يترِك الخيط الذي كان متمسّكاً به ، بل انتقلَ بسُرعة لا تُتصور سرعةٌ أكثرُ منها ، وببلاغة لا تُتصور بلاغةٌ أبلغُ منها ، وبحكمة لا تُتصور حكمةٌ أقوى وأدقُّ منها ، بكلمةٍ واحدة

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ ولم يُرِدْ أن تطول هذه العبارة ، لأنه إذا طوَّل هذه العبارة انتهزَ فرعونُ الفرصة واقتحمَ المعركة ، ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ وصلَ بها إلى ما كان عليه ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ ثم استمر وبدأ يذكر صفات الله التي كان يتهرّب منها فرعون ، وهذا الذي كان فرعون يُحب أن يتخلَّص منه ، والله هناك تأخذُ الإنسان هزةٌ وطربٌ أدبي وطربٌ عقلي ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [طه : ٥٢ ـ ٥٤] .

مراوغة فِكريةٌ من فرعون ، واستقامةُ موسى ونجاحُه فيها[1] :

والمثَلُ الثاني تَرونه في سُورة «الشعراء» ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : ٢٣ ـ ٢٧] هنالك مراوغةٌ فكرية ، بلاغيةٌ دَعوية ، كيف يحاول فرعون أن يتخلص وأن يُغطي هذا الموقف ، يُغطِّيه بسياسته وبلباقتِه وبتجارُبه فيُريد أن ينتقل من موضوع إلى موضوع ، وموسى عليه السلام يأبى إلا أن يُواصل هذا الموضوع ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وكان فرعون يتوقَّع أن موسى عليه الصلاة والسلام يقول كلمةً ثم تجري المناقشة ، لكن سيِّدنا موسى عليه الصلاة والسلام اختار الشيء الذي يضرب على الوَتر الحساس ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ «ما بينهما» معنى ذلك أنَّ عرض فرعونَ قائمٌ على غير قوائم ، لم ينطقْ موسى عليه السلام ولم يكتف بقوله : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ ﴾ ولكنه قال : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ تحدَّاه كذلك ووضَع الأصبُع على موضع الداء ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ .

---

(١) المراوغة قد تطلق في معنى المخادعة المذمومة ، والمقصود هنا التنقل جيئة وذهاباً من مكان إلى مكان ، والقيام بحركة مفاجئة في اتجاه جديد ، كما يفعل اللاعب الماهر مع منافسه ، وأقرب كلمة إليه في اللغة الإنجليزية (Dodge) .

www.abulhasanalinadwi.org

فرعون يُطلق السهمَ الوحيدَ في كِنانته:

هنالك أطلق فرعون نفسَ السَّهم الذي أطلقه في الموقف الأول، الموقفُ واحدٌ، ولكنَّ القرآن يتنوَّع بحكايته، ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ يعني ألا تثورون؟ ألا تغضبون؟ ألا تقومون للدفاع عني؟ أفقدتم الأَنَفَة والشعور بالغَيرة؟ ألا تستمعون؟ وقبل أن يتكلم هؤلاء أو يُحرِّكوا ساكنهم، ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هنالك كذلك حاول فرعون مرةً ثانية أن يتخلَّص من هذا الموقف الحَرِج ومن هذه الأزمة التي واجهته فقال: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهناك رجا فرعون أنَّ موسى يُدافع عن نفسه، يقول لستُ مجنوناً، هذا كان متوقعاً عن صاحب عقل، وقد أثبتَ ذكاءه وسلامة ذِهنه في مناسباتٍ كثيرة.

آخرُ سَهمٍ في كَبِد فرعون:

فعرف فرعون موضعَ الداء في النفس الإنسانية، أنَّ الإنسان إذا أُهين أو أن الإنسان إذا انتقد فإنه ينسى كل شيء ويدافع عن نفسه كأني به أسمع وأرى، كان يتوقَّع أن موسى يَنسى دعوته وينسى كُل شيء، ويقول: من يقول أنا مجنون؟ اطلبوا الأطباء يفحَصون عني فَحصاً طبياً، ويُقدّموا إليك تقريرهم، فكان هذا رجاء فرعون في قوله: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

ولكنّ موسى أجابه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] لم يدافع عن نفسه، ولم يقل أيَّ كلمة في الدفاع عن نفسه، إنه كان مُرسلاً من الله تبارك وتعالى، مُكلَّفاً بالدعوة، فقضيَّةُ الجُنون والعقل هذه بالنِّسبة إلى هذه الدعوة الكريمة الجليلة؛ قضايا لا قيمة لها في المجتمع الذي يسود فيه الشرك، في المجتمع الذي تسود فيه الوثنية، في المجتمع الذي تَشيع فيه الجنايات والجرائم. في المجتمع الذي تُهتك فيه الأعراض، في المجتمع الذي يُقتل فيه الأبرياء وتُقتل الأطفال، ما أهميَّةُ الجنون؟ إنه تناسىٰ هذه التهمة وقال: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا آخر سَهم في كبد فرعون لأنه كان يعتقد أنَّه رب

www.abulhasanalinadwi.org

المشرق والمغرب في مصر ، وكان يعتقد أن العالم في مصر ، وكان يُعتبر أن الذي يملك مصر ويحكم مصر فهو رب العالم ، فلما قال: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنه حطَّم البناء الذي قامت عليه دعوى فرعون وقام عليه عرش فرعون وحكمه.

هذا مثال من أمثلة الدعوات النبوية وحِكمتهم ، وهذه الصورة الثانية تختلف في الدعوة والداعي والمدعو إليه ، الدعوة هي دعوة معقدة دقيقة ، والداعي موقفه دقيق وحرج ، والمدعوُّ إليه أكبر مَلِك ، لذلك هذه الصورة تستحقُّ الاهتمام منا ، وتستحق الدراسة ، وتستحق التأمل الدقيق واستيحاء الحِكم والنتائج العميقة والبعيدة المدى ، من هذا النموذج الذي عرضه القرآن في حكاية سيدنا موسى وفي حكاية دعوته.

موسى عليه السلام مع قومه «بني إسرائيل»

الحربُ الداخلية قد تكون أشدُّ خطراً من الحرب الخارجية:

كان الحديث عن موقف سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في الدعوة أمامَ فرعون ، الملكِ الجبّار ، فكيف كان موقفه أمام قومه بني إسرائيل؟ فإنَّ الحرب الداخلية قد تكون أشدَّ خطراً وأكثرَ دقة من الحرب الخارجية ، إن الحرب بين رجل ومُنافسه الذي لا يتَّصل به بنسَب وبعقيدة؛ قد تكون أهونَ من الحرب التي تكون بين الرجل وأهل بيته ، بين الرجل وعشيرته ، بين الرجل وبني جلدته ، الذين يلتقُون معه على نسَبٍ أو دَم ، أو وَطن أو جنس ، فكيف كانت مواقف موسى عليه الصلاة والسلام أمامَ قومه؟

أربعةُ مواقفَ واضحةٌ حاسمةٌ لسيدنا موسى مع قومه:

وإجابة عن السؤال الوجيه نقول: إننا إذا تأمَّلنا في القرآن الكريم؛ وجدنا لسيدنا موسى أربعةَ مواقف واضحة حاسمة مع قومه ، ونُريد أن نصل بذلك إلى نتائجَ ذات قيمةٍ في منهج الدعوة وفي موقف الدعاة ، كيف يجب أن يكون موقفُهم مع أحبِّ الناس ومع أقربِ الناس إليهم ، ونتلقَّى منهم درساً خاصاً ، هو أن موقف الداعي أمام قومه ، أو أمام أعدائه أو أمام أقربِ الناس

www.abulhasanalinadwi.org

إليه؛ يكون دائماً موقف الداعي ، يعني أن طابع الدعوة يغلبُ على هذا الموقف ، مهما تنوَّع هذا الموقف في الطبيعة ومهما اختلفتِ المناسبات ، ولكنَّه دائماً هو الداعي ، وهو يتكلَّم بلغة الدعوة ، ويَرمي إلى الدعوة ، ويضرب على الوتر الحساس، ويَقصِدُ من كل ذلك غرسَ الدعوة في نفوسهم ، وتهيئةَ النفوس لقبول هذه الدعوة ونبذِ كل ما عارض الدعوة وأضرَّ بها أو جَنى عليها ، إن مُهمة سيدنا موسى تختلف باختلاف البيئة وباختلاف الظروف المحيطة ، وباختلاف المجتمع والجوِّ الذي وُلد فيه وعاش .

موقف نبيٍّ داعٍ لا موقفُ زعيم سياسي :

إن مُهمة سيدنا موسى التي طالبَ فيها فرعون ـ بأمر من الله ـ بإطلاق حُرِّية بني إسرائيل ، فيها شيء من الالتباس ، وهو الذي أُريد أن أنبِّهكم عليه . إنَّ كل من وقف هذا الموقف تغلبُ عليه الحمية السياسية ، وتثورُ فيه الحمية القومية ، ويُخاطب بلسان السياسة أو بلسان «الحقوق» أو بلسان الاحتجاج ، شَعْب مستعبد مضطهد بأسوءِ معاني الكلمة ، ولا قول أبلغ من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٤٩] وقول الله تعالى في سورة «القصص» : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] إن كلَّ مَنْ كان شأنُه هذا ، ويقف مدافعاً عن قوم ويريد أن يُحرّرهم ويتحدى القوة المتغطرسة الظالمة التي قهرته وداست كرامته ، وأهانتَه في أعز الأشياء عندَه ، إن شأنَه أن تتغلَّب عليه النفسية القوميةُ ويُخاطب بلسان السياسة وبلسان المُطالَبة بالحقوق ، والمطالبةُ بالحقوق لها لغةٌ خاصة ولها تعبيراتٌ خاصة .

ولكنَّ الشيء الذي أُريد أن أُلفت نظركم إليه ، أنَّ موسى عليه السلام ، شأنَ جميع إخوته الأنبياء والمرسلين ، كان نبياً مُرسلاً والذي اصطفاه الله تبارك وتعالى لكلامه وكان داعياً إلى الله وإلى الإيمان والعقيدة قبلَ كل شيء ، فأريد أن تُلاحظوا وتتأملوا في الآيات التي سأقرؤها عليكم كيف

www.abulhasanalinadwi.org

استطاع سيدنا موسى وكيف أعانهُ الله تبارك وتعالى على أن لا يُرجِّح كفةَ الاحتجاج وكفَّة المطالبة بالحقوق ، أو كفَّة الغضب والحميَّة القومية على كفة الدعوة ، ففي مثل هذه المناسبات الحساسة الدقيقة ، ينسى الإنسان كلَّ شيء وتثورُ فيه الحميَّة الجاهلية ، وتتغلَّب عليه النزعةُ القومية ، ويتكلم بلسان القوميين السياسيين ، ولكنْ كيف أنَّ الله تبارك وتعالى أعان سيدنا موسى على أن لا يدعَ هذه النزعة تغلِب الإيمانَ القوي ودعوةَ فرعون إلى الله وبيانَ الحقائق الدينية ، وسنةَ الله تبارك وتعالى في خلقه ، وسنةَ الله تعالى في الأمم والأجيال وفي الخلق ، الآن نتلو عليكم الآيات :

أرادوا أن يَصيدوا عُصفورين بسَهمٍ واحد :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] أرادوا أن يصيدوا عُصفورين بسَهم واحد ، عصفورَ فرعون ـ إذا صحَّ أن يُسمّى عصفوراً ـ وعصفورَ قومه ، قالوا لفرعون الكلمةَ التي كانت تُثير فرعون وتُهيجه ، هو قولهم : ﴿ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وأما الكلمة التي كانت تُثير عُبَّاد العِجل وعُبَّاد الأصنام فقولهم : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾ جمعوا في هذه الكلمة بين الجانبين ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ .

الروح النَّبوية تتجلَّى أروع مظاهرها :

في مثل هذه المناسبة الرهيبة ، وفي هذا المقام الذي تثور في الإنسان الحميَّة والنخوة ، لم ينس موسى منهج الكلام الذي التزمه دائماً ، والرسالةَ التي كان يحملها ، وهنا تتجلَّى الروحُ النبوية في أروع مظاهرها ، تصوَّروا لو وقف هذا الموقفَ أيُّ واحد من الدعاة أو أيُّ واحد من العلماء ، لخاطب فرعون وقومَه بدل أن يُخاطب قومه ، ولكنَّ موسى خاطب قومه ، لأنهم همُ المخاطَبون الأوَّلون وعليهمُ الاعتماد ، وبهم يُبدِّل الله تبارك وتعالى الوضع .

www.abulhasanalinadwi.org

موقفُ الداعي المستقيم الذي هيّأه اللهُ لأمر عظيم:

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ، قال موسى: استعينوا بالله ، ما قال اعتمدوا على العدد الكثير الذي تتمتَّعون به، اعتمدوا على ما أكرمكمُ الله به من الذكاء والمواهب الأصيلة ، لأن بني إسرائيل معروفون بالذكاء من قديم الزمان وفي المواهب الفِطرية ، إن موسى عليه الصلاة والسلام لم يتعرَّض لشيء ، مما كان يمتاز به بنو إسرائيل ، ولا شكَّ أن بني إسرائيل كانوا يمتازون بالشيء الكثير ، وكان موسى من أدرى الناس به ، ولكنه أبداً لم يلجأ إلى أي شيء ، ماذا قال؟ كأنه كان واقفاً على منبر في مسجد من المساجد ، فيقول: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هذا موقف الداعي الأمين ، الداعي المستقيم ، الداعي الذي هيَّأه اللهُ لهذا الأمر العظيم ، هنا الدعوةُ إلى الله ، هنا الدعوة إلى التوكل ، هنا الدعوة إلى تفويض الأمور إلى الله تبارك وتعالى ، هنا الدعوةُ إلى الصمود وإلى الثَّبات أمام تهديدات فرعون ، التي جاءت في قوله: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ ليست هذه الأفعال هي الأفعالَ المؤقتة ، بل إنا فوقهم قاهرون بشكل دائم ، بشكل ثابت ، قال موسى لقومه: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ ﴾ الكلمةُ كان لها وقعٌ ولكان لها تأثيرٌ خاص إذا قيلت أمام فرعون ، قال موسى لقومه: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ ﴾ ليست لفرعونَ ولا لبني إسرائيل ، إذا كان موسى زعيمَ أمةٍ أو شعب أو قائداً قومياً ، كان له أن يقول إنَّ الأرض لنا ، إن الأرض لبني إسرائيل ، هذه اللُّغة التي يُحسنها وحدَها القوميون ، إن الأرض ليست للإنجليز ، إنما هي لأهل الهند، مصرُ لأهل مصر، سوريا لأهل سوريا ، إنكلترا لأهل إنكلترا ، أمريكا لأهل أمريكا ، يقولُ أمام فرعون: الأرضُ لله ، ولا يقولُ إنها أرض الآباء ، مع أنهم سكنوها منذ قرون ولهم حقٌّ عليها ، وهم «بلديُّون» «مواطنون» لهم حقوق ، كما كانت للأقباط وللأسرة الحاكمة ، قال موسى لقومه: ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ ، وإذا

www.abulhasanalinadwi.org

عرفتمُ واطمأننتُم أنكم إذا وَرِثتم هذه الأرضَ وخرج فرعون ، أنكم ستملكونها إلى آخر الأبد ، فإنَّ هذا مخالفٌ لسنة الله تبارك وتعالى ومُنافٍ لعدله ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني هذه الأرض ليست ملكاً لأحد ولا يستطيع شعبٌ أن يحتكرها وأن يتملَّكها تَملكاً دائماً ، ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما جاء في سورة «يونس»: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

الشيء الذي يُفتِّت الكبد ويُقطِّع القلب:

والشيء الثاني الذي هو أدق عندي حين أقبلَ عليه قومه بنو إسرائيل وقالوا: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ [الأعراف: ١٢٩] هذا كان أشد وأنكىٰ من قول فرعون: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ لم تكن لهذه الكلمة شدَّةٌ وثِقَلٌ على موسى مثلَ ما كان لقولهم هذا ، لأن موسى عليه الصلاةُ والسلام بُعث ليُنْقِذ بني إسرائيل ويَهديهم إلى الله تبارك وتعالى، ويُخلِّصهم من هذا العذاب المهين ، ولكنَّهم كيف كان موقفُهم من هذه النِّعمة ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ ، وكان ذلك كما حكاه القرآن في سورة النمل: ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ ﴾ [النمل: ٤٧] يعني كنت شُؤماً علينا ، الشيء الذي يُفتِّت الكبد ويُقطِّع القلب، وهو أن القوم الذين يجاهد الإنسان في سبيلهم ويتنازل عن كل شيء، ويُجازف بحياته ، يعاملونه بالنُّكر والكُفران وجُحود النعمة. إنهم إذا لم يشكروا هذه النعمة ويَقْدُروها ، فكان الأفضلُ لهم أن يَسكتوا ، ولكن ماذا قالوا: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ معنى ذلك أنهم يتشاءمون بميلاد سيدنا موسى ، ويقولون كنتَ سببَ شِقوتنا وبلائِنا من قبل أن تَرِدَ إلينا، وكُنتَ سبب شقوتنا وبلائنا بعدما جئتنا، ونحن في عَذابٍ مستمر.

الدَّاعي داعٍ في كل شيء:

فماذا كان جواب موسى؟ هنا موقفٌ آخر من مواقف الداعي المختار الملهَمِ ، لم يغضب موسى ولم يَنْفعل ، كأنه لم يسمع هذه الكلمة ، الكلمة

www.abulhasanalinadwi.org

الخسيسة التي صدرت من أفواههم وتلقَّى هذا الكلامَ الموجعَ بسكينةِ الأنبياء ووَقارهم قال: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، الداعي داعٍ في كل شيء حتى أن لو قُلت: إنه في طعامه وشرابه داعٍ، وفي بيته ومع أهلِه وبين أبنائه داعٍ، وفي أفراحه داعٍ، وفي أحزانه داعٍ؛ لكُنتَ صادقاً، وهكذا نرى في سيرة الرسول ﷺ أنه كان داعياً في كل شيء، في كل حركة وسكون، كأنه يقول ذلك باسماً مُتهلِّلَ الوجه، لم تُغيّره هذه الكلمة الكَنودُ، التي صدرتْ من بني إسرائيل، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولكن لا تغُرَّنكم أنفسُكم مرَّة ثانية، ولا تخدعكُم نفوسُكم، فأكملها بقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ لا أن تتمتَّعوا بخيراتها كما تتمتَّع الأقباط، كما يتمتَّع فرعونُ وملؤه، لا، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وهنا الشاهد في هذه الآية، كيف يكون موقفُ الداعي، كيف تُسيطر الدعوة على كل كلمة تصدرُ من لسانه، وعلى كل عملٍ يصدر من أعضائه وجوارحه.

أراد موسى شيئاً، وأراد اللهُ شيئاً:

والموقف الثاني، موقف دقيق، وموقف حَرِج، هو الموقف الذي لمّا خرج سيدنا موسى ببني إسرائيل لِيَنْجُوَ بهم من أرض العذاب، ومن أرض الذُّل والهوان، ومن أرض السخرة الظالمة، والاضطهادِ الفظيع، إلى بَرِّ السلام وإلى شبهِ جزيرة سيناء التي كانت خارجة عن إمبراطورية فرعون، فلمَّا خرج موسى بهم وقد أراد اللهُ تبارك وتعالى شيئاً وأراد موسى شيئاً، وأراد بنو إسرائيل شيئاً، وأراد موسى أن يَنْجُو ببني إسرائيل، وأراد الله تبارك وتعالى أن يُغرق فرعونَ وجيشَه.

قطع موسى طريقه في ظلام الليل، فكان هناك قطعةٌ صغيرة كانت تصل

www.abulhasanalinadwi.org

بين شبه جزيرة العرب وبَرِّ إفريقيا ، أو الحلَقةُ البرِّية التي كانت تربط بين قارة إفريقيا وقارة آسيا ، وأوَّلُها شِبْه جزيرة سيناء ، ولكن موسى أخطأ الطريق في ظلام الليل ، ولم يكن هذا الخطأ من المصادفات ، بل كان من المُقرَّرات ، كان من المُدبَّرات التي دبرها الله تعالى ، فهنا أخطأ موسى الطريق وتوجه إلى البحر بدلَ أن يتوجَّه إلى البر ، وكان الطريق قصيراً ، ولكنه أخطأ في الليل ، ولمّا أصبحَ وأسفر الصباح فوجيء بأن البحر أمامَه وجيشَ فرعون وراءَه ، قالوا: ما لنا حيلةٌ ، وصاروا يَشْكُون ، وصاروا يُسيئون الظَّن بموسى على عادتهم ، فقالوا: أنت احتلْتَ لتأتي بنا إلى هذا المكان لنقعَ في شبكة فرعون ، ماذا كان غَرضُكَ؟ لماذا جئتَ بنا إلى هنا؟ إنما جئتَ بنا إلى هنا لكي نكونَ فريسَة فرعونَ وجيشه ، واللقمةَ السائغة لهذا الطاغية ، البحرُ أمامنا والجيشُ وراءنا ، ماذا نعمل هنا؟ وهنا يتجَّلى موقف الداعي ، فقد جاء في سورة «الشعراء» : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] ماذا يكون جواب السياسيين القوميين في هذه الحالة؟ لابد أن يقولوا: نحن قد وضعنا مُخطَّطاً دقيقاً مدروساً من قبل ، قد وضعنا مشروعاً كفيلاً بالنجاح ، ونحن على هُدى ، ونحن على بصيرة ، وأنا مستيقظٌ وأنا متأكد بأننا سنصل إلى البر بسلام.

كلاَّ إن معي ربي سيهدين:

ولكنْ ماذا كان جواب موسى الأمين والمؤمنِ العليم ، قال: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

قال ذلك بكل ثقة واعتزاز ، وبكل طُمأنينة وإيمان ، وكلُّ كلمة في هذه الآية عامرةٌ بالإيمان دافقةٌ بالثقة ، ناطقةٌ بالتوكل على الله واعتمادٍ على قدرته ، وعلى أن هذا الإسراء كان بأمرٍ من الله وهو العزيز الرحيم، الربِّ الكريم الذي لا يَخدَعُ عبدَه ، ولا يُخلف وعدَه ، إذن فلا خوفَ من البحر الزاخر ، ولا خَطر من العَدوِّ القاهر.

ومِثلُ هذا لا يُتوقَّع ولا يُعقَل من مَلِك كريم ، ومن أبٍ رحيم ، بل من إنسان ذي مروءةٍ وشرف ، فكيف يُتوقع أو يُخشى من إله هو أكرم الأكرمين،

www.abulhasanalinadwi.org

وأرحمُ الراحمين ، إنّ موسى ـ على جلال الموقف ودِقَّة الوضع ـ لم يُساوره خوفٌ ولم يُخامره شَكٌّ ، لأنه كان يعرف ـ وهو النبيُّ المُرسَل ـ أن الله الذي أمره بالإسراء ببني إسرائيل ، هو غالبٌ على أمره لم يَفلت منه زِمام الكون حتى يُفاجئه أمرٌ لا يمكن التغلب عليه ، إذن فلا مجال للشك، ولا محلَّ للخوف ، فقال في قوة وحماس : ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

قارنْ بين هذه القصة التي حكاها القرآن عن سيدنا موسى وبين ما حكاه القرآن نفسُه عن خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ وهو قوله تعالى : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ . [التوبة : ٤٠] واقرؤوا في شرحها واستعراض الواقع الدقيق ما جاء في «الجامع الصحيح» للبخاري ، وفي كتب السيرة ، فقد جاءَ فيها: «بَيْنَمَا هُمَا (رسول الله ﷺ ورفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه) في الغار [1]، إذ رأى أبو بكر آثارَ المشركين ، فقال: يَا رسُوْلَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا ، قَالَ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟»[2] واستشعروا الشبَه العجيب بين نَبيَّين عظيمين ، فَرَّق بينهما المكانُ والزمانُ والبيئةُ والملابسات ، ولكن جمعتْ بينهما النبوةُ والإيمان القويُّ الوثيق الذي هو سِرُّ إيمان ملايينَ من البشر ، ومعرفتهما لقدرة الله تعالى ورحمته وحكمته ، معرفةً يمتاز بها الأنبياء ولا يَصل إلى قمتها الفلاسفةُ والحكماء وكبار العلماء والعقلاء ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء .

فماذا كان؟ اقرؤوا قول الله تعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٨] .

---

(١) هو غار ثور .

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ ، رقم الحديث (٤٦٦٣).

www.abulhasanalinadwi.org

دعوةُ مؤمنٍ مازال يكتمُ إيمانه

نموذج لدعوة غير نبي

كان الأولى والأجمل أن نَصِلَ الحديث عن سيد الدعاة وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ بالحديثِ عن الأنبياء السابقين مثل سيدنا إبراهيم ، وسيدنا يوسفَ ، وسيدنا موسى الذي تحدثنا به بالأمس ، ولكنْ أريد أن أجعل الحديثَ العبِقَ العطر عن سيد الدعاة ﷺ وعن دعوته التي هي بمثابة سيدة الدعوات مسكَ الختام ، ونجعلَ هذه النقطة هي نهايةَ المطاف في هذا الطواف العلمي الدعوي القرآني .

ونُقدِّم الحديثَ عن مؤمنٍ من آل فرعون ، وقد قُلت لكم إنَّ القرآن الكريم لو اقتصرَ على الحديث عن الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم أجمعين ، لكان لقائلٍ أن يقول: هم طِراز خاص ، هم غَرْسُ الله تبارك وتعالى ، ومَهبِط الوحي ومدرسة النبوة ، قد هيَّأ قلوبهم ونفوسَهم حتى ألسِنَتَهُم للقيام بأعباء الدعوة فكيف نَقيسُ أنفسَنا عليهم؟ إنَّ هذا لا يُشجع على البدء بالدعوة في مجتمعنا ، لأن الأمثلة التي ضربها القرآن للدعوة إلى الله إنما تدور حول هؤلاء الأنبياء فقط .

هنالك رأيتُ أن أَضُمَّ إلى الحديث عن الأنبياء السابقين ، حديثاً عن رجل شرح الله صدره للإيمان ، وهداه للإسلام عن طريق نبي عصره ، وهو سيدنا موسى وهذا هو مؤمن من آل فرعون الذي يتحدَّث عنه القرآن ، وأتلو عليكم أولاً هذه الآيات التي تتصل بهذا الرجل وبدعوته :

www.abulhasanalinadwi.org

يقول الله تبارك وتعالى حكايةً عن فرعون:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٢٦ ـ ٣٥].

حِوارٌ في منتهى البلاغة والحكمة ومعرفة مداخل النفس:

هذا هو الحوار الذي دار بين فرعون وبين مؤمنٍ من آل فرعون يَكتُم إيمانه، وهو حوار في منتهى البلاغة والحكمة ومعرفةِ، مداخل النفس، وهو مثالٌ بليغ لحوار يدور بين مَلِكٍ كبير وملأ من قومه، وبين هذا الرجل الذي اهتدى وآمن بالله، وإني كلما قرأتُ هذا الحوار في هذه الآيات ملكتني روعةُ بيانه ووقفتُ أمام هذا الحوار خاشعاً مقدِّراً، متذوِّقاً لهذه الحكمة البليغة ولهذا الذوق الرفيع، ولهذه المعرفة الدقيقة بمكامن النفس ومداخلها والعمل بقول الله تعالى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٩] رجل لا نعرف عنه شيئاً، ماذا كان مستوى ثقافته، وأين نشأ وتربَّى، وكيف تلقى هذه الدروس، وكيف وصل إلى هذه الذروة من الحكمة والبلاغةِ، ولكنه الإيمان الذي يصنع العجائب، الإيمان الذي يجعل من

www.abulhasanalinadwi.org

الأبكم ناطقاً ، ومن الأصمّ سامعاً ، ومن المشلول ماشياً بل ساعياً ، ومن الأعزل مُحارباً .

«الاستراتيجية» الحاكمية الملكية :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ وهذه هي الاستراتيجية الحاكمة الملكية التي استخدمها جميع الملوك والقادة السياسيون ، لاستفزاز النخوة في النفس الإنسانية ، وقد جمع ذلك بين النقطتين ، نقطةٍ تتصل بالعقيدة ، والعقيدةُ محترمةٌ عند كل مِلَّة وعند كل جيل ، أكانت عقيدة فاسدة أم عقيدةً صالحة ، عقيدةً صالحة ، عقيدةً تستند إلى وحي ورسالة ، أوعقيدة تنبعُ من قلة العقل والسفاهة والطيش ، ولكنها مُحترمة في كل ملة وفي كل عصر ، واعتاد الناس أن يدافعوا عنها ويثوروا لها ، فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ فإذا كان أحد في بلاطه وفي ملئه لا يملك قوة العقيدة ، فإنه استعان بشيء آخر وهو التخويف من نشر الفوضى والقلق وارتفاع الأمن وانتشار الاضطراب في المملكة ، وهذا الذي يخافه كلُّ من كان محباً لبلاده أو لوطنه ، فقال : ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ وقال موسى : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ هذا كلامُ موسى ، إنه سمع كلمةَ فرعون التي كانت تتدفق بالكبرياء وبالتبجُّح وبالصَّلف ، فقد قال فرعون في مناسبة : ﴿ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٥١] لما صدرت هذه الكلمة المتكبرة من فَم فرعون ، قال موسى : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

كلمةٌ رقيقة رفيقةٌ تُثير الشرارة الأخيرة من العدل وقوَّة المقارنة :

هنالك قام رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتُم إيمانه ، قد ثار فيه الإيمان ، وثار فيه الشعور بالكرامة الإنسانية ، والشعور باحترام حسن المرامي والمقاصد ، وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ هذه كلمة استعطاف

www.abulhasanalinadwi.org

وهذه كلمة تدعو إلى التأمل ، ما ذنبُ هذا الرجل؟ «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله» ليس له ذنبٌ إلا أنه يقول: ربيَ الله ، فإذا قال أحد «ربي فرعون» لا تقتلونه؟ وإذا قال فرعون بنفسه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا يستحق القتل؟ أين العدل يا جماعة؟ ألا تعقلون ، رجل ينسب الربوبية إلى من أخرجه من العَدم إلى الوجود ، نقله من طوْر إلى طور ، خلقه وربّاه ، وأنشأه وغذاه ، وأطعمه وسقاه ، وحفظه ووقاه ، فإذا عزا هذا الرجل هذه الربوبية المطلقة المحيطة إلى صاحبها ، وإلى مصدرها أنتم تريدون أن تقتلوه ، أما الذي ينسب الربوبية إلى غير محلِّها ، إلى من لا يستحقها ، إلى من هو مَربوبٌ منذ نشأته ، منذ كان روحاً في صُلب أبيه وجنيناً في بطن أمه ، فكان موضع العناية الكريمة والربوبية الرحيمة ، فما هذا الجور ، ما هذا الظلم؟! ، فهذه كلمةٌ رقيقة تُثير البقية الباقية والشرارة الأخيرة من العدل ومن قُوَّة المقارنة التي فُطر عليها الإنسان ، المقارنة بين الفاضل والمفضول ، المقارنة بين الخالص والزائف ، المقارنة بين المالك والمغتصب ، إنه أراد أن يُحرِّك هذه القوة الكامنة في نفوس كل هؤلاء الذين كانوا يشهدون هذا المشهد وقال ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

الاحتجاج بالمَشهود المعهود على الهدف المطلوب المنشود:

ثم دعم كلامه واحتجاجَه بقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ، هذا احتجاجٌ بالمشهود المعايَن ، لأن موسى عليه الصلاة والسلام قد جاء بالمعجزات الباهرة ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ هذه كلها مشاهدات لا يماري فيها الإنسان ، إنه يُماري في أشياء منطقية ليس لها وجود إلا في الذهن ، يُماري في أشياء عقلية على مستوى عالٍ من العقل ، ولكنه لا يستطيع أن يُماري في المشاهَد المحسوس ، فقال: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ، ثم إنه لجأ إلى طريقة نفسية رقيقة ، يستطيعُ كلُّ إنسان أن يَفهمهما ، ويستطيع أن يُنصف لها ويتخيَّر الطريق الأقوم الأسلم ، وقد خاطبهم باللغة التي يفهمونها فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

www.abulhasanalinadwi.org

مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ ، قال: يا قوم لا تورِّطوا أنفسكم في مشكلة لا مخرج منها. تأمَّلوا في هذا الرَّجل الذي يدَّعي أنه نبي مرسل من اللهِ وأنه قد جاء من السَّماءِ. لكم طريقان: إما أن تبطشوا وتنكلوا به وتنتقموا منه ، وفيه خطر ، إذا كان صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، أما ـ أعاذه الله تبارك وتعالى من ذلك ـ إذا كان كاذِباً فلا حاجة لكم فيه ، إن كذبه هو كفيل بهلاكه ، وبانطفاء سراجه ، إن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن يك كاذباً فلستم مسؤولين عنه.

الاحتجاج بسنةِ الله التي لا تتغير:

ثم إنه استعان بشيء ثالث ، وهو الاحتجاجُ بسنة الله التي لا تتغير ولا تُحابي أحداً فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، إخواني لا يغرنكم هذا الملك العريض وهذا الجاه الكبير ، وهذه المملكة الواسعة الأطراف ، وهذه الوسائل الوفيرة ، وهذه الثَّروة الهائلة ، يا قوم لكمُ المُلك اليوم ظاهرين في الأرض ، لا شك أنكم ظاهرون لا شك أن لكم السلطة النهائية ، السلطة العليا ، لا شك أنكم أصحاب حَول وطَول ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، هنالك لفَت هذا الداعي الكبير نظرَهم إلى سُنة الله التي لا تتغير فيقول: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ لا حُجَّة في ذلك ما أُريكم إلا ما أرى ، هذا استسلام في الحقيقة ، كان فرعون يحتاج إلى دليل من الصُّحف السماوية ، أو إلى دليل منطقي مثلاً ، ولكنه يقول وكأنه يعترف بعجزه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هذا ليس بدليل ، هذا يقوله كل غاوٍ ، وكل جاهل ، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هذا مجرد دعوى لا بينة معها ، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

الاعتبار بالتاريخ ومصيرِ الأُمم البائدة:

وهنالك قَاطعه المؤمن وثنَّى على قوله ، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣١] ، يظهر أن فرعون وملأه كانوا يعرفون عاقبةَ هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الأمم ، وكان عندهم شيء من علم بتاريخ هذه الأمم التي كانت بعد عاد وثمود ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ .

التحذيرُ من الآخرة:

ثم يقول: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يعني عليكم أن تعتبروا إذا بقي مُلك لا يحول ولا يزول ، فكان الواجب أن يبقى مُلك عاد وثمود ، فإذا لم يَبق مُلك عاد وثمود؛ فلا ضمان لملككم ، كيف تعتقدون أن مُلككم هو الذي سيبقى ويدوم ، وملكُ هؤلاء قد انقرض وطُوِيَ بساطُه ، ما هو الفارق بين ملككم وملكهم؟ إذا كان هنالك الفارق الإيماني ، إذا كان هنالك فارق من الأخلاق ، إذا كان هنالك فارق من الرشاد والهداية ، فأنتم لا تتصفون به ولا تدَّعونه ، وحياتُكم تدلُّ على أنكم تَنْهجُون نَهجهم وأنكم تسيرون على دربهم فإذا انقرض عاد وثمود والذين من بعدهم فأتمَّ كذلك إلى الانقراض ، وستَسيرون إلى ما ساروا إليه ، ما هو الخط الفاصل بينكم وبينه؟

ثم يقول: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم ينادي بعضُهم بعضاً ، وكان هذا قد أَلِفه ملأُ فرعون كلهم ، فكانت عندهم أعيادٌ وكانت عندهم مواكب ، وكانتْ عندهم خرَجاتٌ يخرجون فيها ، وكانت هنالك غوغاء وصخب ، وكانوا يعرفون ماذا يقع هنا ، فقال: ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ هذا الذي يشعرُ فرعون بوقعِه في نفسه ، لأن أكره الشيء إليه هو الانهزام ، كان لا يتصوَّره لأنه كانت له جيوش جرَّارة كثيفةٌ ، ولم يَعرف الهزيمة ، فهذه الكلمةُ يعرف معناها ويعرف وَقعَها في نفسه ، ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ .

إثارةُ نقطةٍ جديدة حكيمة:

ثم إنَّ هذا المؤمن الداعي الحكيم هو أثار نقطة جديدة ، نُقطةً حكيمة ، وهو أشار إلى عِلَّة الطبيعة البشرية وداءٍ من أدواء المجتمع البشري القديم ، وهو عدمُ تقدير النِّعمة في محلها ، وفي وقتها ، هذه عِلَّةٌ قديمة في الطبيعة البشرية ، إن الإنسان يستهين بالمُعاصر ويستخِفُّ بقيمته ويتناساه ما دام هو

www.abulhasanalinadwi.org

يُعاصره ويعيش معه ، فإنه لا يقيم له وزناً ، هذه عِلَّة من عِلل الطبيعة البشرية التي حفظها تاريخها وأدبها وشِعرها وقَصصها وحكاياتها وأساطيرها ، الاستهانةُ بالحاضر والإجلال للماضي ، التنكُّر للمُعاصر والتجهُّم له وإنكارٌ لِفضله ، والاعترافُ والخضوع للماضي ، كلما مضى رجلٌ قالوا لم يكن مثله ولن يكون مثله ، أما ما دام حياً فهو بشر ونحن بشر ، فإذا انتقل من هذا العالم وفارق الحياة فهنالك مدائح سخيَّة وقصائد رنَّانة ، وهنالك مُبالغاتٌ وتهويل ، هي الطبيعة التي حرمتِ الأجيال البشرية والمجتمعاتِ الإنسانية الانتفاعَ بأفضل ثمارها وأفضل أفرادها في حياتهم ، وقد حذَّرهم من هذا النكد وإنكار الفضل ، فقال ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۗ﴾ [غافر: ٣٤] إن يوسف كان نسيج وحده وقريع دهره ، ومن أين يأتي مثل يوسف؟ هذا الكريم بنُ الكريم بن الكريم ، الملكُ العادل الرحيم ، لا أبداً ، ما دام حياً فكلُّ الناس كانوا يُعيبونه وينسبون إليه الأشياء ، فيقول: إياكم أن تعودوا إلى مثل هذه المِحنة ، فلا تَقدُرون قَدْرَ موسى ، حتى إذا أذن الله له بالرحيل وانتقل من هذا العالم ، كأني بكم تقولون: إن موسى كان منحةً من الله تبارك وتعالى وما سَبقه رسولٌ مثلَه ولا يأتي بعده مثله ، وأنا أحذركم من هذا ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۗ﴾.

سِمةُ فرعون الرئيسة التي حالت بينه وبين الحق:

تأملوا في كلمة ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۗ﴾ إنا لا نُصدق أنه سيأتي نبيٌّ بعد يوسف يكون مثله ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ وفي الحقيقة أن مصدر هذا الحرمان والكفران ومصدرَ هذا العِناد والمكابرة هو التكبُّر ، يُخاطبهم مثل سيدنا موسى في مكانته وفي سموه وفي قوة دعوته التي أثَّرت في سَحرَةِ فرعون فنقلَتهم من معسكر فرعون إلى معسكر الدعاة إلى الله ، إلى معسكر

www.abulhasanalinadwi.org

الشهداء في سبيل الله ، كأنهم نشؤوا في أحضان النبوة مدةً طويلة ، ولكنَّ عهدهم كان قريباً من سيدنا موسى ودعوته ، ولكن سيدنا موسى هو الذي شقَّ صخور قلوبهم وأنبتَ فيهم الإيمان ، فخرجوا من هذا المعسكر الفرعوني وهم يقولون : ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ وإنا مستعدون لنيل هذه العقوبات كلها .

يخاطبهم ويدعوهم إلى الله ، ولكنَّ فرعون لم يتأثر ، لماذا؟ السِّمة التي يتَّسم بها فرعون ، وهي السِّمة الرئيسة ، هي التكبر ، فيُريد القرآن أن يركِّز عقولنا وتأمُّلاتنا على نقطة هامة جداً ، وهي التكبر ، وهذه الكلمة قد تكررت في هذه الآيات مراراً : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ .

النقطة التي يلتقي عليها سيدنا موسى في دعوته ومؤمن من آل فرعون في موعظته :

ثم يقول : ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ فمفتاح القصة ومفتاح شخصية فرعون ومفتاح هذه القصة هو التكبُّر ، التكبر هو الذي حال بين فرعون وبين الانتفاع بدعوةِ سيدنا موسى ، وكان سيدنا موسى قويَّ الشعور بهذه النُّقطة ، وكان مؤمن من آل فرعون كذلك قويَّ الشعور بهذه النقطة ، النُّقطةِ التي يلتقي عليها سيدنا موسى في دعوتِه ومؤمنٌ من آل فرعون في موعظته ، هي نقطةُ النَّعْيِ على التكبير والتركيزُ عليها ، كلٌّ يشير إلى هذه النقطة ، هذه النقطة الفارقة التي تحول بني فرعون وملأهِ وبين الانتفاع والاهتداء بالهُدى الذي جاء به سيدنا موسى .

الضَّربُ على الوتَر الحساس :

وقد جاء في هذا الحوار التنبيهُ على تفاهةِ الدنيا وعدم ثَباتها وبقاء الآخرة ودوامها : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر : ٣٨ ـ ٣٩] إن أكبرَ حجابٍ كان لفرعون هو المُلك العريض الذي كان يتباهى

www.abulhasanalinadwi.org

ويتبجَّجُ به فيقول إن هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار ، فضربَ على الوتر الحساس ، ثم ذكرَ قانون المُجازاة العادل الذي لا يُحابي أحداً ، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

الدعوةُ إلى معرفةِ المُخلصِ النافع من الغاشِّ الخادع:

ثم هنا كذلك يُثير نُقطةً خاصة ، وهي عاقبة عدم التمييز بين النافع والضار ، وبين المُخلص النافع والغاش الخادع ، فيقول: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٢] ويقول: قارنوا بين الدعوة التي أقوم بها وبين الدعوة التي يقوم بها فرعون ، أنا أدعوكم إلى سبيل النجاة ، أنا أدعوكم إلى الله الرحيم الغفار ، وهو يدعوكم إلى نفسه وإلى طريق الهلاك والبوار ، ثم يقول: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] هنالك نبّه هذا الداعي الكريم على أن دعوة فرعون هي دعوة طُفيلية ، وكل دعواتِ الجاهلية هي دَعواتٌ طُفيلية غير مقصودة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وهي لا تستندُ إلى عقل ولا إلى عِلم ولا إلى دعوات الأنبياء ، تَنبُت على سطح الأرض «كَالْحَشَائِشِ الشَّيْطَانِيَّةِ» التي تنبُت في الحقول والمزارع ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هل عندكم من سلطان ، هل عندكم من برهان؟ لا ، إنما هي التي تريدها أهواؤكم ومصالِحُكم فقط.

الخطُّ الذي ينتهي إليه كل داعٍ مخلص:

ثم أخيراً جاء بكلمة فيها الرقة ، وفيها التفويض إلى الله ، وفيها الرحمة ، وفيها المجهود الأخير ، وهو القول الذي يلجأ إليه كل داعٍ مخلص ، لا شيء وراء ذلك ، وهو قوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

www.abulhasanalinadwi.org

وهذه خير نهاية لموعظةٍ ولدعوةٍ إذا لم ينتفع بها ، فهذا هو الخط الذي ينتهي إليه الداعي .

هذا حوار فريد في أسلوبه ، وهذا هو الحوار الذي حفظه القرآن وخلّده في أسلوبه الحكيم وبلاغته ، وفي ترتيبه ، وفي الانتقال من نقطة إلى نقطة ، وفي خير بداية وخير نهاية ، هذا الحوار الذي يجب أن يكون نبراسنا في توجيه الدعوات وفي القيام بأعبائها وفي الإيفاء بحقوقها ، إذا واجهنا قوة جبارة .

فهذا مَثلٌ أردتُ أن أضمَّه إلى أمثلةِ الدعوات النبوية التي هي النقطة الأخيرة التي يصل إليها الداعي ، وهذا نموذج من دعوة رجل لم يكن نبياً ولم يكن من أخصِّ أشخاص سيدنا موسى ، لا يدل القرآن على هذا بل يصفه بقوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾ فنستطيع أن نتعلم منه كثيراً ونتلقى منه دروساً ذاتَ قيمةٍ كبيرة في منهج الدعوة .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

نَموذجان مِن دَعوةِ
خاتَمِ الرسلِ ﷺ وحِكمته

النموذج الأول من دعوته ﷺ على جبل الصَّفا:

نبدأ ونتخيَّر من هذه المواقف الدعوية الجليلة الرائعة التي هي كلها معجزاتٌ، لسيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ، موقفَه ﷺ ـ هو الموقف الأول كداع ـ على جبل الصفا، وهو النموذج الأول من دعوته ﷺ، وأريد أن تستحضروا الجو الذي بدأ فيه رسول الله ﷺ دعوتَه وتعيشوا تلك المشكلة التي كانت تكتنف هذه الدعوة إلى الله تبارك وتعالى وإلى التوحيد ونبذِ الشرك والوثنية والحياة الجاهلية التي كانوا يحيونها، وأرجوا أن تنتقلوا بعقُولكم وتصوُّراتكم ـ إن لم تستطيعوا أن تنتقلوا بنفوسكم وبأجسادكم ـ إلى تلك البيئة التي قام فيها رسول الله ﷺ مُنذِراً ومُبشِّراً ومبلِّغاً لرسالات ربه.

النُّبوةُ هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحسِّ وعالَم الغيب:

إن الذي كان يريد رسول الله ﷺ أن يقولَه لقريش أولاً، وللعَربِ ثانياً، ولأهل عصره ثالثاً، وللعالَمين وللجيلِ البشري كله رابعاً وأخيراً، إنما كان ذلك يعتمد على شيئين، على وجود عالَم آخر غير هذا العالم المادي الحسي، الذي كانوا فيه، عالَمٍ لا يُشاهد ولا يقع تحت سيطرة الحواس الخمس التي كانوا يملكونها، ثم كان يعتمدُ ثانياً على وجود النُّبوة، لأن النبوة هي القنطرة الوحيدة بين عالم الحسِّ الذي نعيشه وبين عالم الغيب، كلُّ جسر ـ يَصل بينهما ـ مكسورٌ مُهدَّم، وكل قارب يَنقُل المسافرين إليه

www.abulhasanalinadwi.org

غائب مفقود ، هذا عالم ـ كما قلت لكم ـ ليس للحواس الخمس وللعقل الذي يتأسس على هذه الحواس الخمس إليه سبيل .

متى يُؤدِّي العقلُ دورَه؟

فالعقل إنما يَعتمد على الحواس الخمس ، فكلُّ ما تقدمه إليه الحواس الخمس من مَحسوساتها ومحصولاتها ، ومن النتائج التي توصلت إليها ، يَستخرجُ منها العقلُ نتائج خطيرة ، هذا هو شأن العقل ، إنما يقوم بناؤُه على رُكام تُقدِّمه إليه الحواسُّ الخمس البشرية ، وحيث تتعطَّل هذه الحواس ، يتعطَّل العقلُ ، فوظيفة العقل تنحصر في أنه يَستخرج من هذه المعلومات التي تقدمها الحواس ، ويتوصل من هذه المقدمات إلى نتائجَ كبيرة ، فحيث لا مقدماتٍ لا نتائجَ ، وحيث لا محسوساتٍ لا معقولات ، هذه هي النقطة الحاسمة في تاريخ الفلسفة والعقل الإنساني ، التي أغفلها كثير من الفلاسفة وكثير من مُدَّعي العقل ، إنهم بحثوا العقل كأنه شيء مستقل ، وكأنه يعمل بنفسه ويَشقُّ طريقه بنفسه ، ولكن ليس ذلك بصحيح ، فالبحوثُ الأخيرة التي تهيَّأت الآن في نطاق الفلسفة ، أثبتت أن العقل عاجزٌ حيث لا يُوجد عمل الحواس ، هنالك يقف العقل حائراً مدهوشاً لا شغل له .

بُعْدُ أهلِ العرب عن النبوات شكَّل مُشكلةً كبرى :

فالمشكلة الرئيسية أن أهلَ العرب بصفةٍ عامة وأهلَ مكة بصفة خاصة ، كانوا بعيدي العهد بالنبوات وبتصوُّرهم لعالم الغيب ، فقد غابتْ هذه القنطة التي كانت تصل بين عالم الغيب وبين عالم الحس ، فلما فقدتْ هذه القنطرة أصبحوا يجهلون عالم الغيب جهلاً كلياً ، لذلك يقول القرآن في أسلوبه المعجز الموجز : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ، ويقول : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : ٦٦] ويقول الله تبارك وتعالى في سورة يونس : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس : ٣٩] .

www.abulhasanalinadwi.org

المشكلة أن رسول الله ﷺ أراد أن يخاطب قوماً لم يتعلموا «حروف الهجاء» من الدّين:

فالمشكلة الرئيسة أن رسول الله ﷺ أراد أن يُوجِّه دعوته إلى قوم ليس عندهم مفاهيم وتصورات دينية بدائية، كأنه ما عندهم مفاتيح العلم، خذوا أكبر ذكي أو عبقري فوق العادة، وهو لا يعرف حروف الهجاء للغة، أو خذوا أحد كبار الأساتذة في جامعة كامبردج أو في مختبر من مختبرات أمريكا التي اكتشفت الطاقة الذرية، وهو لا يعرف «العربية» وقولوا له: عندك يومٌ بكامله، تطالعُ هذه الصحيفة وتقرؤها لنا في المساء، ولا يجد أحداً يساعده في ذلك ويُعلِّمه حروف الهجاء: ألف، با، تا، ثا، جيم، إنه لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً لأنه ما تعلم حروف الهجاء، وهكذا نسبة المحسوسات إلى المعقولات، المحسوساتُ أمام المعقولات كحروفِ الهجاء للُّغة المشكلة، إن الرسول ﷺ أراد أن يخاطب قوماً لم يتعلَّموا حروف الهجاء، إن عقولهم الضيّقة التي نشأت في هذا المحيط المحدود ما كانت تُسيغ النبوة، فيجبُ أن تُسيغ النبوة أولاً ثم يتقدَّم الرسولُ عليه السلام خطوةً أخرى.

الأنبياء يُكوِّنون من التافهِ الموجود الشيء العظيم المفقود:

عاشتِ الأمة العربية وسكان هذا الوادي بصفةٍ خاصة مدة طويلة بعيدة عن المفاهيم الدقيقة والمصطلحات العلمية والبحوث اللاهوتية، ولكنها فاقت وتميَّزت بسلامة فهمها وسرعة إدراكها وحُبها وخضوعها للواقع، على ذلك اعتمد الرسول ﷺ في شرح مركز «النبوة» و«النبي» في هذه الحياة، وتبرير حقِّه في الإنذار والإنباء، ومخالفةِ المألوف المعروف المشاهَد بالعيان، والإخبار بما لا يراه الإنسان، فكان أبلغَ من ألف دليل يستند إليه أئمة الكلام وأئمة اللاهوت، وكانت جميع المراحل التي اجتاز بها الرسول الأعظم ﷺ وجميعُ الوسائل التي اتخذها واستخدمها في هذه المهمة المقدسة الدقيقة، مطابقةً للطبيعة والبيئة، وهكذا الأنبياء لا يلجؤون ـ في أداء مهمتهم وتبليغ رسالتهم ـ إلى الصناعة والتكلُّف، والاستعارة والاستيراء، ويُكوِّنون من التافه الموجود، الشيءَ العظيمَ المفقود.

www.abulhasanalinadwi.org

كان الرسول عربياً يَعرفُ عادات العرب:

ولم يكن ذلك عصرَ الصحافة والإذاعة، وعصر آلات نشرِ الصوت وتضخيمه، فما هو السبيل إلى حشر سُكَّان الوادي إلى مكانٍ مخصوص في زمن مخصوص؟ وما هو السبيل إلى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى يَنفُضوا أيديَهم من أشغالهم، وملذاتهم، ويَخِفُّوا إلى مكانه فزِعين مُسرعين؟ كان الرسول ﷺ عربياً، يعرف عادات العرب وتقاليدَهم وشعاراتِهم وتأثيرَها في نفوسهم ومجتمعهم، واستعان بذلك في سبيل هذه الغاية التي لا غاية أفضل منها، اعتاد العرب إذا أحس أحدٌ منهم بخطر وبِعَدُوٍّ يريد أن يفاجئهم ويأخذ القوم على غرتهم، أو بِعَدُوٍّ كامنٍ قاعد بالمرصاد قد غفل عنه أهل البلاد، أن يرتقي أحدهم قمة جبل أو ربوة ويصرخ بأعلى صوته: «**يَا صَبَاحَاه!**» أو «**وَاصَبَاحَاه!**» فيفرغ القوم ويأخذون عُدَّتهم ويخرجون عن بكرةِ أبيهم لمواجهة الخطر الداهم والعدو المهاجم.

ما هو هذا الخطر الذي كان يُقلق مضاجعَهم ويَحُول بينهم وبين راحاتهم ولذَّاتهم، وما مدى تأثيره وضرره في حياتهم؟ النوعُ الوحيد من الخطر الذي كانوا يعرفونَه هو العدو فقط، يقتلُ منهم كثيراً وينهب أموالهم ويَسْتاق إبلَهم وماشيتهم، ويُلحق بهم الأضرار.

العدو الذي يعيش في «الداخل» أضرُّ وأفتك من كل عدو في الخارج:

هانتْ هذه الأخطار والأضرار ـ على ضخامتها وواقعيتها ـ في عيون الأنبياء والرسل، إنهم عرفوا أن أكبرَ خطرٍ هو الجهل بصانع هذا الكون ومدبِّره وصفاته الحقيقية وحقوقه، وخطرُ الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهل ذلك العصر وسكان هذا الوادي والأخلاقُ التي اتَّسم بها هذا المجتمع الجاهلي (**يَعْبُدُوْنَ الأَصْنَام وَيَأْكُلوْنَ الْمَيْتَةَ، وَيَأْتُوْنَ الْفَوَاحِشَ، وَيَقْطَعُوْنَ الأَرْحَامَ، وَيُسِيْئُونَ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُمُ الضَّعِيْفَ**)[1]، رأى النبي ﷺ هذا العدوَّ الذي يعيش في نفوسهم وفي عقائدهم وأخلاقهم (ليس في

(١) من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي، ملك الحبشة.

www.abulhasanalinadwi.org

الخارج) وكان في نظره ﷺ أضرَّ وأفتكَ من كل عدو في الخارج. إن هذا الخطر ـ الذي نَبع وابتثَق من داخلهم ـ أعظمُ من كل خطر عرفوه في كل حياتهم الجاهلية الطويلة ، وفي مجتمعهم العربيِّ القبلي ، وإن عداوةَ نفوسهم أشدُّ وأدق من عداوة كل قبيلة منافسة ، ومن كل جيش محارب ، وإن أسلوب حياتهم يُثير سخطَ الله القادر القاهر الذي لا يرضى لعباده الكفر ولا يُحب في الأرض الفساد.

أصدقُ صوت في أصدق مناسبة:

فخرج رسول الله ﷺ وصعد على جبل الصفا ـ وهو أقرب الجبال إليهم ـ ونادى بأعلى صوته «**يَا صَبَاحَاه**» ، وقد شهد هذا الوادي بأنه كان أصدق صوتٍ في أصدق مناسبة ، لأن مثل هذه المناسبة لم يكن من العادة أن يَكذبَ الإنسان فيها ـ بخلاف هذه المدنيَّة المزوَّرة ـ وقد سمع أهلُ مكة صيحةً معروفة مألوفة تخرج من فم أصدقِ رجل عرفوه في بلدهم ، سموه بأنفسهم «**الصَّادِقُ الأَمِيْنَ**» وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سِلسلةٌ طويلة من التجارب والحوادث ، ولم يتأخروا في تلبية هذا النداء كما جاء في كتب السيرة ، فاجتمع الناس بين رجل يجيء إليه وبين رجلٍ يبعث إليه رسوله.

كان العرب عُقلاءَ مُنصِفين ، شجعاناً صادقين:

فقال رسول الله ﷺ: «**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّب ، يَا بَنِي كَعَب! أَرَأَيْتُم لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيْدُ أَنْ تُغِيْرَ عَلَيْكُمْ ، صَدَّقْتُمُوْنِي؟!**»[1] كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي ﷺ ووجَّه إليهم هذا السؤال ، أُمِّيين غير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلم المنطق ولم يألفوا التعمق والتدقيق ، ولكنهم ـ كما قلتُ ـ كانوا واقعيين عمليين ، رزقَهم الله النصيبَ الأوفر من سلامة الفَهم وسُرعة الإدراك ، واستعرضوا الواقع واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير ، واستعرضوا وَضعه الطبيعي ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ برقم (٤٧٧٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ برقم (٢٠٨)، وأحمد في المسند (١/ ٢٨١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

www.abulhasanalinadwi.org

رأوا رجلاً جرَّبوا عليه الصدق والأمانةَ ، والنصيحةَ وحُبَّ الخير ، قد وقف على جبلٍ يرى ما أمامه ، وهو الذي اشترك فيه مخاطَبوه ، وينظر إلى ما وراء الجبل والسَّفح المقابل ، وهذا الذي لا يشترِك فيه مخاطَبوه ، فعرفوا من غير شكٍّ وتأملٍ طويل ، أنَّ له الحق أن يتحدث عما في سفح الجبل المقابل من عدو رابضٍ وخطرٍ كامن ، وليس لهم حقٌّ ـ وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يُكذِّبوه ويَنفُوا رؤيته على أساس أنهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرَّق الجبلُ القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فُرصة المشاهدة وحق الشهادة ما لم يُعطهم ، وكانوا عقلاءَ منصفين ، شجعاناً صادقين ، فقالوا نعم ، إنَّك إذا قلت إن وراء الجبل خيلاً تريد أن تُغير في الليل أو تُغير على غِرة منا صدَّقنا .

الأنبياء يقفون على قمة جبلٍ من النبوة ، يُطِلون منها على دنيا الحِس ودنيا الغيب :

وقد نجح رسول الله ﷺ بحكمةِ النبوه التي خصَّهُ الله بها وبلاغتِه العربية التي أكرمه اللهُ بها ، وقد صوَّر لهم مركزَ النبوة والأنبياء الفريدَ الدقيق ووَضْعَهُم الشاذُّ ، الذي يستطيعون به أن يُشاهدوا ما لا يُشاهده أقرانُهم وأبناء جِنسهم وعصرِهم ، ويشهدوا بما لا يَشهدُ به المصلحون والزعماء عادة ، فقد وَقفوا على قمة جبل من النبوة ، يُطِلُّون منها على الجانبين ، الجانب الحِسِّي بحُكم البشرية ، والاتِّصال بعالَم الغيب تحت الإرادة الإلهية ، وبِحكم النُّبوة التي يُكرمهم الله بها ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف : ١١٠] وليس لأذكى إنسان وأعظم عالمٍ وأكبر عاقلٍ أن يُكذِّبهم وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم في هذه المشاهدة ولا يَرىٰ ما يرونه ، مَثلٌ بسيط جداً: أنا واقف أمام هذا الشُّباك ، وأنتم وُجوهكم إلى هذا الجانب ، وأنا أقول الله أكبر! قد سقط فلان أو خرج فلان ، فهل يجوز لكم أن تُكذِّبوني وأن تنفُوا وتقولوا لا؟ هذا لا يمكن ، هذا غير معقولٍ وكلُّكم تعرفون أنكم مُدبِرون لهذا الجانب ، ومُقبِلون إلى ذاك الجانب ، وأنا مُقبلٌ إلى هذا الجانب ومُدْبِرٌ إلى ذاك الجانب ، فأنا لي حقُّ الشهادة وحق الإخبار بشيء لا ترونه أنتم ، شيء بسيط ، ومعقولٌ ويَوميٌّ ، وليس لأذكى إنسان

www.abulhasanalinadwi.org

أن يُكذّبه ، ربما يكون منكم أحدٌ أبصرَ مني ، وأعقلَ مني ، ولكنْ رَغم هذه الحدة في البصر لا يجوز له أن يُكذِّب ما أرى.

كذلك ليس لأذكىٰ إنسانٍ وأعظمِ عالم وأكبرِ عاقل أن يُكذِّب الأنبياء وينفي مشاهدتهم على أساس أنه لا يُشاركهم في هذه المشاهدة ولا يرى ما يرونه ، كما لا يجوز لمن وقَف في سفح الجبل أن يُكذِّب من قام على قمته وأخبر بما وراء الجبل وتحدَّث عما وراء الأكمة[1].

مُكابرَة الفلاسفةِ والحكماء:

فإذا حاجَّهم وخاصمهم أسيرٌ لِحسِّه؛ قالوا مُحتجِّين مستغربين: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: ٨٠] ، وكان العرب الأميون أعقلَ ـ في هذه المرحلة البدائية ـ من الفلاسفة والحكماء الذين كذَّبوا أخبار الرسل وشكُّوا في الحقائق التي جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطلاعهم ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩].

القضية هي الإيمان بوجود عالَم لا يُرى:

ولما تمَّت هذه المرحلة التي كان لابد منها ، تقدم الرسول ﷺ خُطوةً ثانية ودخل المرحلة الثانية النهائية ، فقال: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ**»[2].

كان لهم أن يقولوا: من أين رأيت هذا العذاب؟ بأي شيء تنذرنا؟ ولكنه أولاً وقف على قمة الجبل ، ثم سألهم: هل إذا أخبرتكم بأن هنالك خيلاً تُريد أن تُغير عليكم هل أنت مصدقيّ؟ قالوا: نعم ، هنالك قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يرى هذا الجانب الخلْفيّ للجبل وهو عالَم الغيب بالنسبة إليهم ويَرى الجانب الأمامي ، فكان يجمع بين هذين العالمين ، العالم الغَيبي المؤقَّت المجليِّ بالنسبة إليه ، والعالَمِ الحسيِّ المشهود الممتد أمامَهم ، حتى إذا وقفوا في

---

(١) من تعبيرات العرب «من وراء الأكمة» ، والأَكمَةُ: التَّل.

(٢) البداية والنهاية: لابن كثير، ج٣، ص٣٨.

www.abulhasanalinadwi.org

سفح هذا الجبل لم يروا ذلك العالم الذي يراه الرسول ، فهنالك عالَمٌ وراء عَالَمٍ ، القضية في الحقيقة هي الإيمان بوجود عالَمٍ مهما كان بسيطاً؛ فتح الطريق ، لأنه إذا ثبتَ عالَمٌ واحد يمكن أن يَثبت ألفُ عالَم ، فالشيء الذي يَضغط عليه صاحب الحُجة هو الإيمان بإمكان وجود حقيقة واحدة غيبية فهو مُكلَّف بالإيمان بوجود ألفِ حقيقة.

الخطر الحقيقي الذي تناساه أهلُ مكة وأهل العصر:

قال الرسول ﷺ: «إِنِّي نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذَابٍ شَدِيْدٍ» ، أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يُهددهم ، والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يحيونها والعقائد التي يَدينون بها ، والأصنام التي يعكُفون عليها ، والعاداتِ الظالمة والأخلاق الجاهلية التي يتمسكون بها ، وبالاختصار هذه الجاهليةُ الجهلاءُ التي يعيشون عليها ، لا إيمان ولا علم ولا عدل ولا تقوى ، إنَّ طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل في المجتمع ، والمعيشةُ الضَّنك ، والقَلَقُ النفسي ، والعذاب الداخلي في هذه الحياة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] وكما يقول: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

تَفرُّد الأنبياء بمعرفة خواص العقائد والأعمال والأخلاق والعادات:

إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما تعرَّض لبيان ضرر هذه الحياة والمجتمع المادي والاقتصادي ، أو الإداري والسياسي ، لأنَّ هذا لم يكن من موضوع الرسول ولا من موضوعات الرسالات السماوية ، الهدفُ الذي يرمي إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، هو العذابُ الدائم بعد هذه الحياة الذي يهون ويصغرُ أمامَه كلُّ ألم ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤] ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

سبيلُ الأنبياء والمرسَلين ، وسبيل الفاحصين والمكتشفين:

لقد اطَّلع العلماءُ والفاحصون على خواصِّ الأدوية ، وعرفوا كثيراً من

www.abulhasanalinadwi.org

طِباع الأشياء والقوى المودعة في الموجودات ، وكوَّنوا العلومَ والمعلوماتِ التي انتفع بها الناس ، وشكروا أصحابها واعترفوا بفضلهم ، وتفرَّد الأنبياء بمعرفةِ ذات الله وصفاته وأحكامه ومرضاتِه ، وبخواصِّ العقائد والأعمال والأخلاق ، صحيحها وسقيمها ، صالِحها وفاسدها ، وما تجرُّ وتستتبع من سعادةٍ وشقاء في الدنيا ، وثوابٍ وعقاب وجنة ونار في الآخرة ، وخصَّهم اللهُ ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكون بعدَ هذه الحياة ، وفي ذلك العالم من حَشْرٍ ونَشْرٍ وإنعام وعذاب ، ونَعيم وجحيم : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

جوابُ الأنبياء الأخير :

لقد وقفوا ـ عليهم السلام ـ على جَبل النبوة يُشرفون منها بقَدر ما يريدُ الله على عالَم الغيب والشهادة ، ويُخبرون بما يهَجُم على هذه البشرية وعلى هذه المدنيَّة في المستقبل القريب والبعيد ، وما يَكمُن لها من خَطر وضررٍ ، ثم يُنذرون قومهم شفقةً وإشفاقاً وحُباً وإخلاصاً ، وإذا نازع مُنازعٌ هذا الحق الطبيعي العقلي ، وهذه البداهة ، وشكَّ أو شكك في مراكزهم ، المركز الذي خصَّهم الله به ، قالوا في نصيحة وإخلاص وتألّم وإشفاق : ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٤٦] ، وكما قال مؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] .

مِثالٌ بليغ للحكمة النبوية والبلاغة العقلية :

وأذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر ، يختلف كل الاختلاف في الطبيعة والبيئة والدوافع التي دفعتْ إليه ، ولكنها قطعة رائعة ومثال بليغ للحكمة النبوية ، والبلاغة العقلية ـ ليست البيانية ـ فحسب ـ والقيادة الحكيمة المؤثِّرة في أغوار النفوس وأعماقِ القلوب ، وهي جديرة بأن تكون موضع دراسة مُؤرخي النبوات ، والقيادات الروحية ، وعلماءِ البلاغة وأساتذة علم النفس .

www.abulhasanalinadwi.org

إن رسول الله ﷺ لما وَزَّع سبايا ومغانم حُنين في الجعرانة على أشراف قريش ، كما تعرفون وقرأتم في السيرة ، أنه أعطى قريشاً فأجزل لهم العطاء ، أعطى أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل ، وفلاناً وفلاناً ، وكان نصيبُ الأنصار فيها قليلاً ، اعتماداً على إيمانهم وعلى حبهم وصِلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالإسلام ونبيه ﷺ.

هنالك تَقاولَ بعضُ الشباب ، فقالوا: إن رسول الله ﷺ خصَّ بني قبيلتِه بأكبرِ نصيب من العطاء والمغانم ، وبلغ هذا رسول الله ﷺ فحسَب له حِساباً ، لأنه النبيُّ المربي وليس النبيّ فقط ، فأمر بجَمع الأنصار في حظيرة ، فاجتمعوا وقال: «**لا يَدْخُلُ الْحَظِيْرَةَ إلاَّ الأنْصَار**» ، ولما اجتمعوا كلَّهم قال لهم:

لله ولرسوله المنُّ والفَضل:

«**مَا هَذِهِ الْقَالَةُ الَّتي بَلَغَتْنِيْ عَنْكُمْ ، وَجِدَةٌ**[1] **وَجدْتُمُوْهَا عَليَّ في أنْفُسِكُمْ؟**».

فَاسْتَحيوا وقالوا: لاَ شَيءَ يَا رَسُولَ اللهِ ، إنَّمَا هُمْ بَعْضُ الشَّبَاب قَدْ وَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَا أَتَيْتُكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي ، وَعَالَة**[2] **فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِيْ ، وَأَعْدَاءاً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوْبِكُمْ؟**» **قالوا: للهِ وَلِرَسُوْلِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ.**

إثارة الإيمان واليقين والحُبِّ الدفين:

ولم يبتدر رسولُ الله ﷺ بالكلام ، بل أراد أن يتكلم بلسانهم فأثار فيهم الشعور الإنساني وألهمهم المعاني ، فقال: «**أَلاَ تُجِيْبُوْنَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟**» قَالَوْا: بِمَاذَا نُجِيْبُكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ؟ للهِ ولِرَسُوْلِه المَنُّ والْفَضْلُ ، قال: «**وَاللهِ لَوْ قُلْتُمْ لَصَدَقْتُمْ ولَصُدِّقْتُمْ ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فصدَّقْنَاكَ ، ومَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ ، وطَرِيْداً فَآوَيْنَاكَ . وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ؟**» أيُّ زعيم ، وأي قائد ، وأي

---

(١) وَجِدةٌ: غَضَبٌ.

(٢) عَالَة: فقراء.

www.abulhasanalinadwi.org

مُربٍّ ، وأي صاحب فضل يستطيع أن يشهد على نفسه بهذا ، واللهِ لولا أنَّ هذه الكلمات قد وردتْ في السيرة النبوية وفي حديث صحيح ، أصلُه في «الجامع الصحيح» للبخاري ، قد ذكره الحافظ ابن القيم في «زاد المعاد» بسياقٍ أوسعَ وأشمل ، لولا أنها قد وردت في الصحاح وفي كتب السيرة ، لما كان لأيّ مسلم أن ينطق لسانه بهذه الكلمات: «**أَمَا أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَقْنَاكَ ، وَمَخْذُوْلاً فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيْداً فَآوَيْنَاكَ!**».

أَوَجِدْتُم عَليَّ فِي لُعَاعَةٍ منَ الدُّنْيَا؟

ثم قال بعد أن أثار نفوسهم وأجرى عُيونهم وفتح الغلاق من قلوبهم: «**يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! أَوَجِدْتُمْ عَلَيَّ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوْا ، وَوَكَلْتُكُمْ إلى إِسْلاَمِكُمْ**» انظروا كيف أوجَد في نفوسِهم الثقةَ التي كانت كفيلةً بحسم كل ما ساور نفوسهم ـ إن كان هناك شيءٌ قد ساور نفوسهم ـ وقال: «**أَوَجِدْتُمْ عَلَيَّ فِيْ لُعَاعَةٍ[1] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوْا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلاَمِكُمْ**»؛ ثم قال الكلمة المثيرة البليغة التي ما يُمكن أن تُطلق أو تنطلق من فمٍ إلا وتُفجِّر الأنهار وتَشُق الصخور ، وتأتي بالمعجزات.

الأنصار شِعارٌ والناس دِثارٌ:

«**أَما تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاهِ والبَعِيْرِ إلى رِحَالِهِمْ ، وتَرْجَعُوْنَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ واللهِ لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرِأً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَوَادِياً ، وسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْباً وَوَادِياً؛ لسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ وَوَادِيْهَا ، الأَنْصَارُ شِعَارٌ ، والنَّاسُ دِثَارٌ ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ ، وأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ ، وأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ**»[2].

ثم ماذا كان؟ كان الشيء المتوقع الطبعي ، هَملَت عيونُهم حتى اخضلَّت

---

(١) لُعَاعَةٌ: خضرة ناعمة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الطائف، رقم الحديث (٤٣٣٠) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم . . . . ، رقم الحديث (٢٤٤١) ، وابن هشام في السيرة النبوية ، وأحمد في المسند (١١٣٢٢).

www.abulhasanalinadwi.org

لحالهم ، وقالوا: رَضِيْنَا بِرَسُوْلِ اللهِ قِسْمَةً وحظاً[1].

أروعُ نموذَج في الآداب البشرية والآداب الإنسانية:

والله لو بَحثنا ـ ولي مشاركة في بعض اللغات غير العربية فضلاً عن اللغة الأردية ـ لو بحثنا في أدب الأمم والديانات؛ ما وجدنا موعظةً أبلغ من هذه الموعظة ، وعِلماً بالنفس الإنساني أكثر عُمقاً وأكثر صدقاً من العلم النبوي.

هذان النموذجان من أروع النماذج التي دُوّنت وسُجِّلت في الآداب البشرية وفي المكتبات الإنسانية.

* * *

(١) يقول فضيلة أستاذنا المحدِّث الشيخ نور الدين عتر ـ حفظه الله وأمتع به ـ في كتابه «في ظلال الحديث النبوي» (ص: ٣٣٦): «وفي الحق أنَّ هذه الخطبة: فريدة في لغات العالم ، وإنها كما قال مولانا الداعية المجدِّد أبو الحسن علي الحسني الندوي لمن دلائل نبوته ﷺ ، في لقاءٍ مع فضيلته في الجزائر في «ملتقى الفكر الإسلامي» في الجزائر اطَّلع على شرحي لهذه الخطبة فقال: إنَّني أُحسن ستَّ لغات عالمية ، لا أعرف فيها مثل هذه الخطبة ، وإنها لمِن دلائل نبوته ﷺ.

www.abulhasanalinadwi.org

نَموذجُ دعوةٍ وحكمةٍ

لأحد السَّابقين من هذه الأمُّة

تمثيل جعفر بن أبي طالب للإسلام والمسلمين في مجلس النجاشي

لقد ضَمَمْنا إلى دعوات ثلاثة أنبياء من كبار الرسل ـ إبراهيم عليه السلام ويوسف عليه السلام وموسى عليه السلام ـ وحوارهم مع أمتهم ـ أمة الدعوة وأمةِ الإجابة ـ حواراً لفرد ، لم يكن له حظٌّ من النبوة والرسالة ، ولا شرفُ البعثة إلى الأمة من الأمم ، أو مجتمع من المجتمعات البشرية ، إنَّ جُلَّ أمرِه أنه كان من المؤمنين بنبيٍّ عصره قد شرح الله صدرَه للإيمان والحكمة ، وفتقَ قريحته لِلكلام الرقيق الدقيق ، والموعظةِ الحسنة البليغة ، وكأنه مخطِّطٌ قد خطط على هدوء وروية ، فتجرَّد من «الارْتِجالِيَّة» الحشو والفضول ، يتراجعُ عنه صاحبه ، أو يندَم عليه أو يعتذر ، وذلك شأنُ من هيأه الله للدعوة ، وأخلَص لدينه ، ولم يُرد إلا وجه الله ، أو إبراء ذمته .

وحين انتهينا في المحاضرة الماضية من عَرض نموذجين لدعوة سيد الأنبياء والرسل وخاتمهم محمد ﷺ وأصحابه وسلم ـ والسيرةُ النبوية لا تنقطع عجائبها ، ولا تنفد دُرَرُها وجواهرها ـ ننتقلُ إلى عرض نموذج من نماذج بعض المؤمنين الذين نشؤوا في أحضان النبوة ، وكانوا غرسَ التربية النبوية ، وزرعَ الدعوة الإسلامية الأولى . وهم كثير ، نختار من بينهم جعفرَ بن أبي طالب ابنَ عمٍّ رسول الله ﷺ ، وهو الَّذي قالَ فيه الرسولُ ﷺ : «أَشْبَهْتَ خَلْقِيْ وَخُلُقِيْ»(١) .

---

(١) قاله رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، راجع «صحيح البخاري» كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء ، رقم الحديث (٤٢٥١) ، والقصة بطولها في «السيرة النبوية» للعلاّمة الندوي صفحة (١٣١) ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

الموقفُ الدقيق الرهيب الذي دعا إلى هذا الكلام:

وقبل أن أعرِض نموذج هذه الدعوة، ونَدرُسه دراسة بلاغية ونَفسية ودعوية، يحسُن بنا أن نستعرضَ ونتمثَّل المحيط الدقيق الذي اكتنفَ هذه الدعوة، والموقفَ الرهيب المُحرج الشائك الذي وقفَه جعفرُ للكلام والخلفياتِ التي تختصُّ بهذا الموقف.

كان من خير هذا المجلس الذي دعا إلى هذا الكلام، والموقف الذي وقفه جعفر بنُ أبي طالب، شارحاً للإسلام، وعارضاً لدعوته، ما رواه أصحاب السيرة: أنه لما رأى رسولُ الله ﷺ ما يُصيب أصحابَه من البلاء، وأنه لا يقدرُ على أن يَمنعهم قال لهم: «**لَوْ خرجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ لَهَا مَلِكاً لا يُظْلَمُ عِنْده أحدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيْهِ**»[1]، فخرج عند ذلك جماعةٌ من المسلمين إلى أرض الحبشة، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكانوا عَشْرَة رجال، أمَّروا عليهم عُثمان بن مظعون، ثم خرج جعفرُ بن أبي طالب، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، وكانوا ثلاثةً وثمانين رجلاً.

ولما رأتْ قريش أن هؤلاء قد أمنوا واطمأنُّوا بأرض الحبشة، بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل[2]، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي، وقد استمالا البطارقة، وأرضياهُم بهداياهم، وتكلَّما في مجلس الملك، فَقَالا: إنَّه لجأَ إلى بلد المَلِك منا غلمانٌ سفهاء، فارقوا دينَ قومِهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدينٍ مُتبدَع لا نَعرفُه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إليك أشرافَ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لِترُدَّهم إليهم، فهُم أَبْصَرُ بهم، وأقربُ إليهم، وقالتِ البطارقة حوله صَدَقاً أيُّها الملك، فأسْلِمْهُم إليهما.

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٢١ ـ ٣٣٠.

(٢) وكانا من دهاة العرب.

www.abulhasanalinadwi.org

الوصفُ الماكر المنفِّر للاجئين المسلمين:

تأمَّلوا في هذه الكلمة التي قد صبَّ فيها صاحباها ذكاءهما وحنكتهما ، وتجلَّت فيها براعتُهما السياسية الماكرة ، لقد وجَّها إلى فريستهما وهدفهما ـ وهي هذه القلَّة المؤمنة اللاجئة إلى هذا البلد النائي الغريب ـ سهاماً مسمومة تُصيب المقتل ، وقد هوَّنا من شأنهم أولاً ، وصوَّراهم تصويراً يدعو إلى الاستخفاف والسخرية ، فقالا: إنه لجأ إلى بلدِ الملكِ منا غِلمانٌ سفهاء ، والكلمة لها معنىً خاص في بلاط الملك الكبير ، الذي لا يَضم إلا النوابغ من الأمراء والوزراء ، والمحنَّكين من البطارقة والعلماء ، وقد استفزَّا في الملك وحاشيته شعورَ المَقت والكراهة ، والنخوة والكبرياء حين قالا: «فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاؤوا بدين مبتدَع ، لا نَعرفه نحن ولا أنتم».

وقد تظاهرا في هذه الكلمة بالنزاهة والعدل والحياد والتَّحاكم إلى العقل السليم ، والعُرف الشائع ، فما قيمةُ دين لا يَمُتُّ بصلةٍ بدين من الأديان المنتشرة ، المعترَفِ بها عند الناس وعند الحكومات ، وإنما هو دين مُحدَثٌ ، ينحصر في نطاق ضيق من الشباب الأغمار ، ثم أضافا إلى ذلك قولهما الذي يَقْبلُه كل عاقل في عامَّة الأحوال:

«قد بَعَثَنا إليك أشرافُ قومِهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهُم إليهم ، فهم أبصرُ بهم وأقرب إليهم».

الوضعُ الدقيق المحرج:

إنَّ هذا الكلام قد صدر عن ذكاء ودهاء ، وقدرة على استمالة المَلِك وحاشيته ، وكسب تأييدِه وعطفِه ، وقد زاده قوة وتأثيراً موقفُ البطارقة ، وبطانةُ الملك ، فقد قالوا: «صَدَقَا أيها الملك ، فأسلمهمْ إليهما» ، إنه موقفٌ دقيق رهيب ، لو وَقفه أيُّ إنسان لحارَ واضطرابَ ، وانسدَّتْ عليه الطرق ، ودارتْ به الأرض الفضاءُ ، فإما أُرتجَ عليه الكلام ، وإما تورط في ما لا تُحمد عاقبته ، ولا تؤمن غائلته ، وكان الواجب على كل من يقف هذا الموقفَ أن يتحرَّز مما يثير تساؤلاً أو ينقل هذا المجلسَ الوقور إلى مجلس

www.abulhasanalinadwi.org

بحثٍ ومناظرة ، وأخذٍ ورَدٍّ ، ونَقْضٍ وإبرام ، وكان الواجبُ عليه كذلك أن يتوقَّى من كل ما يَجرحُ شعور الملك المسيحي ، الحامي لدينه ، فيعتبرُه هجوماً على عقيدته ، وما يدينُ به ، فينبِضَ عرقُه المسيحيُّ ، وتتحرك فيه عاطفةُ الدفاع عن ديانته وأمته ، وكذلك كان يجب عليه أن يبتعد عن البَحث العلمي الفلسفي ، والتعمُّق في عرض العقيدة وشرحها ، فقد كان المجلس يضم كبار علماء الدين النصراني الذين لا يرون فوقهم أحداً في التقعُّر ، وشَقِّ الشعرة في القضايا الدينية والكلامية .

المنهج الحكيم الذي آثَره جعفر بن أبي طالب :

فماذا كان من جعفر بن أبي طالب إزاءَ هذه الشبكةِ الدقيقة التي بسَطها له رسولا قريش ، وأيُّ منهج فضَّله للكلام في هذا الموقف الدقيق الرهيب؟

يبدو للقارىء الذي يقرأ ما أجابَ به جعفر في مجلس النجاشي لأول وَهلةٍ أنه حديثٌ بسيط مُرتَجلٌ ، تحدَّث به جعفر ، ولا يُتوقَّعُ من عربي نشأ في محيط ضيقٍ منعزل عن العالم ، بعيدٍ عن الثقافة والأساليب السياسية ، أكثرُ من ذلك .

ولكنه كلامٌ حكيم قد جاء في أوانه ومكانه ، وقد دلَّ على بلاغة صاحبهِ العقلية ، قبل أن يدل على بلاغته العربية البيانية ، ولا يُعلَّل ذلك إلا بإلهام من الله ، وتأييدِ هذا الدين الذي أراد اللهُ أن يُتمَّ نُورَه ، وأن يَظهر على كل دين ، ويدلُّ على سلامة الفِطرة ، ورجاحة العقل اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريشاً وفاق فيهما قريشٌ العربَ كُلَّهم ، فقد فضَّل جعفر أن يكون جوابُه حكايةَ حالٍ لما كان عليه أهل الجاهلية في الجزيرة العربية ، ولِما آل إليه أمرُهم بعدما أرسل الله رسوله فيهم ، ودعا إلى الله وإلى الدين الحنيفي السَّمْحِ ، ومكارم الأخلاق ، وآمنوا به واتبعوه ، وحكاية حالٍ ـ خصوصاً إذا لم يُجانب فيه صاحبها الصواب ـ أبعدَ شيء عن المناقشة والمناظرة ، وأقدر شيء على غرس المعاني المقصودة ، وتحقيق الأهداف المنشودة والتهيؤ للتأمل والإنصاف ، وحسن الاستماع .

www.abulhasanalinadwi.org

كلمةُ جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي:

والآن اسْمعوا ، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يتكلم في مجلس الملك ، ويقول:

أَيُّهَا الْمَلِكُ! كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ ، نُسِيءُ الْجِوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيْفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُوْلاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وعَفَافَهُ ، فَدَعَنَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ ونَعْبُدَهُ ، ونخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُوْنِهِ مِن الْحجارَةِ والأَوْثانِ ، وأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيْثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحْمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، والْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، ونَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّوْرِ ، وأَكْلِ مَالِ الْيَتِيْمِ ، وَقَذْفِ الْمَحْصِنَاتِ ، وأَمَرَنا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ ، والصِّيَامِ ـ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُوْرَ الإِسْلاَمِ ـ فَصَدَّقْنَاهُ ، وآمنَّا بِهِ ، واتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاء بِهِ مِنَ اللهِ ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً ، وحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وأَحَلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا ، فَعَذَّبُوْنَا ، وَفَتَنُوْنَا عَنْ دِيْنِنا ، لِيَرُدُّوْنَا إلى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ.

فَلَمَّا قَهَرُوْنَا ، وَظَلَمُوْنَا ، وضَيَّقُوْا عَلَيْنَا ، وَحَالُوْا بَيْنَنَا؛ خَرَجْنَا إِلَى بِلادِكَ ، واخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَلاَّ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

أثَرُ حديث جعفر في المجلس الملكي:

يقول أصحابُ السِّيَر ، سمعَ النجاشيُّ كلَّ ذلك في هدوء ووقار ، ولعلَّ ما أبداه جعفر من الثقة بعدله وحُسنِ جواره كان عوناً على ذلك ، والملوكُ العُقلاء يحرصون دائماً على حُسْنِ الصيت وطِيب القالة ، وتحقيقِ حُسن الظن بهم ، ثم قال: «هَلْ مَعَكَ مَا جَاءَ بِهِ صَاحِبُكُمْ عَنِ اللهِ مِنْ شيءٍ»؟

قال جعفر: نعم ، قال النجاشي: فاقرأه علي ، فقرأ جعفر صدراً من سورة «مريم» ، فبكى النجاشيُّ حتى اخضلَّتْ لِحيته ، وبكى أساقِفُه حتى أخضلوا مصاحفهم.

www.abulhasanalinadwi.org

وقال النجاشيُّ: **إنَّ هَذَا والَّذي جَاءَ به عيْسَى يَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ**، ثُم أقبل على رسولَي قريش، فقال: «**انْطَلَقَا فَلاَ وَاللهِ لا أُرْسِلَهُمْ إلَيْكُمْ**».

مِحنةٌ عقيدة وبديهة:

ولم تنتهِ المشكلة هنا، فقد كان على المسلمين أن يواجهوا مِحنةً أخرى، قد تكون أشدَّ من الأولى، فقد أطلق عمرو بن العاص آخر سَهم من سهام جُعبته، وهو سهم مسموم، فغدا على النجاشي من الغد، وقال له: أيها الملك إنهم ليقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأقبلَ الملك على المسلمين، فقال: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟

قال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ، هو عبد الله ورسولُه، ورُوحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضربَ النجاشيُّ بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: «**وَاللهِ مَا زَادَ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَى مَا قُلْتَ مِقْدَارَ هَذَا الْعَوْدِ**»[1].

لو كان رجلٌ مكان جعفر بن أبي طالب، فواجه مثلَ هذه الأزمة والمشكلةِ الطريفة؛ لم يكن غريباً أن يُداهن أو يُحابي أو يراعي دِقَّة الموقف، ويُجيب جواباً سياسياً، ويَخرج من هذا المَضيقِ بكَلمةٍ لَبِقةٍ لا تُصرِّحَ ببشريَّة سيدنا عيسى ابن مريم، وقد كان بليغاً حاضرَ البديهة، مُتصرِّفاً في الكلام، ولكنه كان ممثلاً للعقيدة الإسلامية الصافية خيرَ تمثيل، قائماً في هذا المجلس الملكي مقام الرسل والأنبياء، من غير رسالة ولا نبوة، فما كان له أن يُداهن، أو يَمزج الحقَّ بالباطل، فجاء بكلام صريح واضح، ولكن في بلاغة وحكمة، وفي اتزان وتناسبٍ دقيق، وكلامٍ فَصْل لا فُضول فيه ولا تقصير.

انتصارٌ في معركة حامية:

فكان عاقبةَ هذا الإخلاص والصدق، ونتيجة هذه البلاغة والحكمة، أنه خرج من هذا المأزق منتصراً كريماً سليماً وكسب المعركة، وقد جاء في

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٣٤ـ٣٣٨.

www.abulhasanalinadwi.org

الخبر أن النجاشي ردَّ المسلمين رداً كريماً وأمَّنهم ، وخرج رسولا قريش ـ عبدُ الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بنُ وائل ـ من عند الملك مقبوحين ، وأقام المسلمون بخير دارٍ مع خير جار[1] .

ونكتفي بهذا النموذج الرائع من أدب الدعوة وحكمتها في موقف دقيق رهيب ، ومجلس وقور مهيب ، لرجلٍ من أصحاب النبي ﷺ وأهل بيته ، قد آتاه الله الحكمة وفَصْلَ الخطاب ، وفي ذلك قدوةٌ للدعاة والمُرشدين ، ودرسٌ للعلماء والمتأدِّبين .

* * *

(١) راجع «السيرة النبوية» للعلاَّمة الندوي ص ١٥١ ـ ١٥٥ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

تزكية النفوس
تشغل مكاناً كبيراً
في دائرة الدَّعوة النبوية والبعثة المحمدية[1]

لقد ذكر الله تعالى مقاصد البعثة المحمدَّية الرئيسية الأولى وذكر فوائدها الأساسية الكبرى في نسقٍ واحدٍ في أربع آياتٍ من القرآن الحكيم ، فذكر دعاء خليله إبراهيم ـ وهو جدُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ومؤسس الملَّة الحنيفية ، وعلى يده تمَّ بناء البيت ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] ، وذكرها في نسقٍ واحدٍ في معرض المنِّ والتذكير بالنعم ، فقال: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢] ، وذكرها بهذا الأسلوب ، وهو يذكر عظيم نعمته على الأمَّة التي بعث فيها الرسول ، وكبير مننه عليها ، فقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وذكرها مقرونةً مجموعةً كذلك في سورة الجمعة ، وذكر العرب الذين سعدوا بهذه البعثة أولاً ، وظهرت فيهم آثارها الطيبة المباركة ، ثم لحق بهم

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها السادس ، المجلد الواحد والعشرون عام ١٩٧٧م.

www.abulhasanalinadwi.org

العجم ، وسعد بها العالم ، وستبقى على العصور «شجرة طيبةً ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها» وقد جاءت في هذه الآية الكريمة بداية هذه النعمة وامتدادها ، واتساعها ، وانتقالها من بلدٍ إلى بلدٍ ، ومن جيل إلى جيلٍ ، ومن عصرٍ إلى عصر ، وذكر خلود هذه النعمة وبقاءها؛ لأنَّ فضل الله لا نهاية له ولا تحديد فيه ، فلكلِّ عصرٍ نصيبٌ ، ولكلِّ جيلٍ فيه حظٌّ (عطاءً غير منقوص) وبهذه الزيادة والتفصيل أصبحت هذه الآية متممةً للآيات السابقة ، وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] [الجمعة : ٢ ـ ٤].

فكانت (١) التلاوة ، وكان (٢) تعليم الكتاب ، و(٣) تعليم الحكمة ، و(٤) تزكية النفوس من المقاصد الأولى التي كانت لها البعثة ، وهي أركان هذه الدعوة الأربعة ، والمظاهر الكبرى التي تجلت فيها معجزة هذه النبوة الإصلاحية والتربوية ، وكل ما عداها من تقنينٍ وتشريع ، وأحكام وفروع ، وحكمٍ وجهادٍ ، فهو من توابع هذه المقاصد وذيولها ، ولوازمها ، ومتمماتها.

ومهمَّة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس تشغل مكاناً كبيراً في دائرة هذه الدعوة النبوية ، ومقاصد البعثة المحمدية ، وفي القرآن ما يدلُّ على أنَّ الأخلاق الفاضلة ، والآداب الإسلامية هي من أهم مظاهر الحكمة ، فإنَّ القرآن قد أطلق لفظ الحكمة على هذه الأخلاق والآداب في عدَّة مواضع ، وقد ذكر في سورة الإسراء التعاليم الخلقية الأساسية في موضع واحد ، اقرأ

---

(١) روى ابن أبي حاتم بسنده عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم قرأ «وآخرين منهم» إلخ ، ورواه الطبراني وابن مردويه مرفوعاً ، كذا في «الدر المنثور ٦/ ٣١٥ ، ونقل ابن جرير عن مجاهد وزيد قالا: إنما عني بذلك جميع من دخل في الإسلام من بعد النبي ﷺ كائناً من كان إلى يوم القيامة.

www.abulhasanalinadwi.org

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣] إلى قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨] وهي خمس عشرة آية، فيها النهي عن الشرك، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وخفض الجناح لهما، وإيتاء ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل، والنهي عن التبذير، والأمر بالتلطُّف لهم بالقول، والنهي عن الإفراط والتفريط، والنهي عن قتل الأولاد، وعن الزنا، وعن قتل النفس إلا بحقِّها، وعن الإسراف في القصاص، والنهي عن أكل مال اليتيم إلا بالحقِّ، والأمر بالإيفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والميزان، والنهي عن التبختر، والمرح الزائد، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية، التي تلتقي عليها الأديان والأمم، والفطر المستقيمة، والعقول السليمة من أول العصر إلى آخره، ختمها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وكذلك شأن القرآن في سورة لقمان، إلا أنها كانت نهايةً في سورة الإسراء، وكانت بدايةً في سورة لقمان، فقال قبل أن يذكر تعاليم لقمان الخلقية، من نهى عن الشرك، ومعرفة الفضل للوالدين، وطاعتهما في المعروف، واتباع سبيل من أناب: مراقبة الله في صغيرٍ وكبيرٍ، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المصائب، وعدم احتقار الناس، والخيلاء والكبرياء، والأمر بالاقتصاد في كل شيءٍ، والقصد في المشي، والغض من الصوت، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] افتتح كلَّ ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] فدلَّ على أنَّ كلَّ ما نطق به لقمان، وصدر عنه من التعاليم الخلقية، والوصايا الحكيمة إنما تبعث عن هذه الحكمة التي أكرم الله به لقمان، وخصَّه بها بين الأقران، يرجع الفضل فيها إلى هذه الموهبة الربانية، والأخلاق الفاضلة التي فطر عليها، وتخلَّق بها، ووفِّق لها، لذلك قال في

www.abulhasanalinadwi.org

صلب هذه الآية بعد ما ذكر إيتاء هذه الحكمة: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وكذلك جاءت كلمة الحكمة في سياق الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة الطيبة، من إنفاق الأموال في سبيل الله، ثم عدم إتباعه بالمنِّ والأذى، والحثِّ على القول بالمعروف والمغفرة والتحرُّز من الرياء، والكفر بالله، والإشفاق من بطلان الصدقات وحبط الحسنات، والحرص على ابتغاء رضوان الله، وإصلاح النفس واستقامتها، والإنفاق من طيبات الأموال، وعدم تيمم الخبيث، والنهي عن الخوف الشديد من الفقر، والاسترسال إلى الشيطان، اقرأ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] إلى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ختم كلَّ ذلك بقوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فدلَّ كلُّ ذلك على أنَّ الحكمة في اصطلاح القرآن وتعبيره لها صلة عميقة وثيقة بالأخلاق[1] فإذ لم تكن أخلاق؛ لم تكن حكمة، وإذا لم تكن حكمة؛ لم تكن أخلاق، وإذا تقرَّر ذلك، فتعليم الأخلاق الفاضلة، وتهذيب النفوس وتزكية الأرواح ـ ولا يتمُّ ذلك إلا بتصحيح العقائد، والتطهُّر من دنس الشرك والجاهلية، والتحلِّي بالعلم الصحيح ـ يحتلُّ مكاناً كبيراً في مهمة النبوة المقدَّسة، ويشكل مقصداً كبيراً من مقاصد البعثة الرئيسية، وقد دخل ذلك في تعليم الحكمة، وفي التزكية.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ هذا الغرض العظيم الذي كانت له البعثة بكلمة الحصر، فقال: «إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[2] وقد كان خير مثال

---

(١) انتبهنا لهذه النكتة بحديث لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي، كان يتكلم فيه عن معنى الحكمة في القرآن ـ رحمه الله تعالى ـ (العلامة أبو الحسن الندوي).

(٢) رواه القضاعي في مسنده (مسند الشهاب) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ج٢، ص ١٩٢، =

www.abulhasanalinadwi.org

له ، وأفضل أسوة فيه ، فقد قال القرآن: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤] وسُئلَتْ عَائِشَةُ ـ رضي الله عَنْهَا ـ عَنْ خُلُقِهِ ﷺ فَقَالَتْ: «كانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ»[1] ولذلك دعا الله إلى اتباعه ، واتخاذه أسوةً دائمةً كاملةً ، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وكانت هذه «الحكمة» و«التزكية» من أعظم ثمرات الصحبة النبوية ومجالسته ﷺ وعشرته ، فنشأ في أحضانه جيلٌ تحلَّى بأفضل الأخلاق ، وأكرم الصفات ، وتجرَّد عن رذائل الأخلاق ، ومهلكات العادات ، وذمائم الصفات ، وغوائل النفوس ، وبقايا الجاهلية ، ومغالطات الشيطان ، وقد شهد القرآن باستقامة قلوبهم ، وصلاح نفوسهم ، ووصولهم إلى ذروة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس ، فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨] وشهد لهم رسول الله ﷺ بقوله: «**خَيْرُ النَّاس قَرْني**»[2] وفي روايةٍ: «**خَيْرُ أُمَّتي قُرْني**»[3] وشهد لهم أحد رفاقهم[4] بقوله البليغ الوجيز: «**أَبرُّ النَّاسِ قُلوْباً ، وأَعْمَقُهُمْ عِلْماً ، وأَقلَّهُمْ تكلُّفاً**» وشهد

= رقم الحديث (١١٦٥)، طبع مؤسسة الرسالة، ببيروت ، ورواه البيهقي أيضاً في سننه الكبرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، ج ١٠ ، ص ١٩١ رقم الحديث (٢٥٧١)، طبع مكتبة دار الباز، مكة المكرمة.

(١) رواه أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها، ج ٦ ، ص ٢١٦ ، رقم الحديث (٢٥٨٥٥) ، طبع مؤسسة قرطبة، مصر.

(٢) رواه البخاري عن عبد الله رضي الله عنه، في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جورٍ إذا شهد ، رقم الحديث: (٢٦٥٢).

(٣) رواه البخاري عن عمران بن حصين رضي الله‌عنهما، في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحابي النبي ﷺ، رقم الحديث (٣٦٥٠).

(٤) هو عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل. انظر في «مشكاة المصابيح» ج ١ ، ص ٣٢.

www.abulhasanalinadwi.org

لهم أحد أعدائهم ، فقال: «هُمْ فُرْسَانٌ بالنَّهَارِ ، رُهْبَانٌ باللَّيْلِ ، لاَ يأْكُلُونَ فِي ذِمَّتِهِمْ إلاَّ بِثَمَنٍ ، وَلاَ يَدْخُلُونَ إلاَّ بِسَلامٍ ، يَقِفُوْنَ عَلَى مَنْ حَارَبُوا حَتَّى يأْتُوا عَلَيْهِ»[1] وقال الآخر: «إنَّهُمْ يَقُوْمُوْنَ اللَّيْلَ ، ويَصُوْمُوْنَ النَّهارَ ، وَيُوْفُوْنَ بالْعَهْدِ ، ويَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وينْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، ويَتَنَاصَفُوْنَ بَيْنَهُمْ»[2].

وزر تاريخ الإسلام وتاريخ الإنسانية بأخبار مكارم أخلاقهم ، وفضائل أعمالهم ، وحكاياتهم الجميلة في حسن السيرة ، وكرم الأخلاق ، وشدَّة الخوف من الله ، والزهد في الدنيا ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، وإيثار من سواهم على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والشهادة بالحقِّ ولو على أنفسهم ، أو الوالدين والأقربين ، والإنصاف من النفس ، والانتصار للحق ، والغضب لله ولرسوله ، والحبِّ في الله ، والبغض في الله ، والرحمة على الخلق والضعفاء ، وحسن المواساة ، وشدَّة المساواة ، والتزام الحق والعدل في كلِّ أمرٍ ، والتوسُّط والاقتصاد في كلِّ شيءٍ ، إلى غير ذلك من الأخلاق النبيلة ، والصفات الجميلة ، التي يندر اجتماعها في فردٍ واحدٍ ، وفي جيلٍ واحدٍ ، وقد أصبح كلُّ ذلك خبراً متواتراً أذعن له المسلمون وغير المسلمين.

والفضل في كل ذلك يرجع إلى التعليم النبويِّ ، و«التزكية» التي نوَّه بها القرآن ، والتزم ذكرها في مقاصد البعثة وفوائدها ، فلم يكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلا زرع الإسلام ، وغرس النبوَّة ، وصنائع التربية النبوية ، والتزكية المحمَّدية ، ولسان حالهم ينشد:

صَنَائِعٌ فَاقَ صَانِعُهَا فَفَاقَتْ ... وَغَرْسٌ طَابَ غَارِسُهُ فَطَابَا
وَكُنَّا كَالسِّهَامِ إِذَا أَصَابَتْ ... مَرَامِيهَا فَرَامِيهَا أَصَابَا[3]

* * *

(١) قول أسير رومي في وصف المسلمين أمام هرقل ، انظر البداية والنهاية (ج٧ ، ص ٥٢).
(٢) البداية والنهاية.
(٣) البيتان لأبي فراس الحمداني.

www.abulhasanalinadwi.org

حِكمة الدَّعوة وصِفة الدُّعاة [1]

صاحب السعادة نائب رئيس الجامعة وزملائي الأساتذة والمربين وأبنائي الطلبة المجدين!

إن من الأمثال السائرة في الأدب الأجنبي أَن هنالك شيئين لا يخضعان لقانون مرسوم ولحدود معينة ، وهما الحب والحرب ، أما الحب فأتركه للأدباء والشعراء يبحثون فيه ، وأما الحرب فلا شأن لي بها ، ولكني أعدل عن هذا المثل الأجنبيِّ الذي لا ينم عن روح إسلامية وتفكير إسلامي ، أعدل عنه إلى مثل آخر وإلى أصل من الأصول ، وهو أن التربية والدعوة لا تخضعان لقانون مرسوم ، فإن التربية نظام معين خاص ، إنني أستهين ـ وأنا أثير هذه النقطة ـ بقيمة المكتبة العظيمة التي ألفت في فن التربية ، ولا أستهين بجهود المربين المطلعين على التجارب العملية والمناهج التربوية العالمية ، ولكني قلت في مناسبة في حديث كنتُ أتحدثُ به في إحدى كليات التربية في بلد عربي كبير : إنني أعتقد أن المعلم لا يكون معلماً حتى يكون ملهماً ، وكذلك أقول ، ولا أطلق كلمة الإلهام بمعنى المصطلح الشرعي ، ولكن التربية هي التي تفتق القريحة وتشعل المواهب ، وتلهم المعاني البعيدة إذا سنحتْ لها مناسبة ، وكذلك الدعوة لا يمكن أن تخضع لقانون خشيب مرسوم معين ، وضعه البشر أو وضعه رجال الدعوة ، إن من

---

(١) ألقى العلامة الندوي ـ رحمه الله ـ هذه المحاضرة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، عام ١٤٠٠هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

يخضع الدعوة أو الدعاة لقانون مرسوم أو لقائمة من رؤوس الأقلام أو من الغايات ربما يصطدم بتجربةٍ قاسيةٍ.

عندنا حكاية لا بأس أن نحكيها أمامكم: إن رجلاً استخدم خادماً، وكان هذا الخادم ذكياً طلب من السيد أن يضع له قائمة الواجبات، ما هي الواجبات التي أكلف بها، فوضع له قائمة: تعمل كذا في الوقت الفلاني، وتعمل كذا، وتذهب إلى السوق وتحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم وخضر، وغير ذلك، وتقوم بخدمة فلانية، فأخذ هذه القائمة واحتفظ بها، ومرة ركب هذا السيد جواداً، ولكنه لسوء الحظ ارتبكت رجله في الركاب، وأراد أن يتغلَّب على هذه المشكلة فما نجح، وكان الخادم واقفاً، فاستعان به وقال: أغثني يا فلان فأخرج الورقة من جيبه، وفتحها ومدها إليه وقال: أين في هذه القائمة أن السيد إذا ارتبكت رجله بالركاب فإني أعينه، والسيد يعاني مرحلة فاصلة بين الموت والحياة يخشى عليه أن يسقط، أو أن يتورط في مرحلة أخرى، ولكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة وكان أميناً عليها، مخلصاً لها مرتبطاً بها فأبى ورفض أن يعينه لأنه غير مكلف بهذه الخدمة.

فأخشى أننا إذا قيدنا وفسرنا الدعوة بتفكيرات عصرية أو تفكيرات عملية تقوم على التجربة وعلى طبيعة العصر، وعلى طبيعة البيئة، فإننا نجني على الدعوة، ونجني على المجتمع.

ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حلَّ هذه المشكلة، وجاء القرآن المعجز، الكتاب الخالد، الكتاب الذي لا تبلى جدته فتوسط بين التفريط والإفراط وقال: ـ وإني أحمد الله تعالى ـ على أن القارىء اختار هذه الآية في تلاوته ـ وهذه معجزة من المعجزات القرآنية التي لا تعد ولا تحصى، والمعجزة لا يستحضرها الإنسان إلاَّ إذا عاصرها وعاشها.

ولما وقع حادث وفاة الرسول ـ ﷺ ـ وغلب المسلمون على أمرهم، فقد كثير منهم رشده، وقف سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: **مَنْ قَالَ: إنَّ**

www.abulhasanalinadwi.org

مُحمَّداً ـ ﷺ ـ قَدْ مَاتَ فَسَأَضْرِبُ عُنُقَهُ ، فجاء سيدنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وتَلا هذه الآية الكريمة .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

هنالك ذاقَ المسلمون ـ وفيهم كبار الصحابة رضي الله عنهم ـ لذة هذه الآية ، وشهدوا روعتها وإعجازها ، وكأنما نزلت الآية الساعة ، ونحن لو قرأنا هذه الآية مئات من المرات لم نذق هذه اللذة ، ولم نشعر كما شعر الذين قد شهدوا هذا الحادث الفريد في تاريخ الأمم وفي تاريخ الديانات .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] الآية .

تستشعرون إعجاز القرآن في قوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وتشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية ، وأبعاد التقييد الذي جاء فيها فأطلق وقال : ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ما حدد وما عين شيئاً معيناً خاصاً ، فمثلاً تحثون على الصلاة ، تدعون الناس إلى مكارم الأخلاق ، تدعون الناس إلى الفضيلة ، تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية ، و﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يحوي كل شيء ، إنه يمتد ويسع الآفاق ، ليست هذه الآفاق فقط ، إنها آفاق الحاجات الإنسانية ، آفاق الحياة الإنسانية ، فاستحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وهو لا يختص بالخطابة ، ولا يختص بالكتابة ، ولا يختص بالوعظ والنصيحة إنما قال : «أدع» والدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها ، وهذه الأساليب كلها ، ثم قال : «إلى سبيل ربك» وأي كلمة أوسع أفقاً ، وأوسع إطلاقاً ، من قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ .

أعترف أمامكم أن الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية ـ لا أعتقد أنها من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى ، وكذلك «الموعظة» كلمة مطلقة ، والحسنة أيضاً كلمة مطلقة ، وهنا جاء القرآن يحل

www.abulhasanalinadwi.org

هذه المشكلة فأطلق وقيد ، وأوجز وأعجز ، فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ الآية.

ولكن هناك نماذج من الدعوة الحكيمة ، نماذج رائعة خالدة على مر العصور ، وعلى مر التاريخ ، وعلى مدى تاريخ الدعوة ، جاءت في القرآن ، واختار منها نموذجاً جاء في القرآن ونموذجاً جاء في السيرة النبوية المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ.

من هذه النماذج تستطيعون أن تفسروا الدعوة ، وأن تطبقوها تطبيقاً عملياً ، وأن تستلهموا المعاني الدقيقة التي انطوى عليها هذا النموذج الرائع ، فأذكر ـ أولاً ـ قصة دعوة سيدنا يوسف ـ عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام ـ التي جاءت مفصلة في سورة يوسف ، يقول ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

إخواني! استحضروا ـ أولاً ـ الملابسات التي رافقت هذه الدعوة ، والجو الذي اكتنف هذه الدعوة ، لم تكن هذه الدعوة إلى الله بالأمر الميسور وبالأمر الهين ، إنها تنطلق في جو رهيب مظلم ، قلق ، في بيئة تقف سداً منيعاً ، أمام الغاية النبيلة الشريفة التي يتوخاها سيِّدنا يوسف عليه السلام ، إنه دخل السجن كرجل منهم بجناية شنيعة ، وموقف المتهم دائماً ، موقف ضعيف ، فهو لا يكون في موقف الداعي الكريم المبجل الذي تجله القلوب ، والداعي الوقور المحترم ، وهو وإن كان برئياً من هذه الجناية كبراءة الذئب من دمه كما يقول المثل العربي ، ولكن الحادث كان قد وقع ، التهمة قد وجهت ، والمحكمة قد حكمت ، وشاع في الناس أن يوسف قد ارتكب جريمة شنيعة ، إنه خان سيده في أعز ما عنده ، وفي أكرم ما عنده ، هذا موقف ضعيف ، ولكن سيدنا يوسف لما دخل السجن لفت الأنظار ، وحل في القلوب موضع الحبيب الأثير المفضل المكرم ، وكان ذلك من التخطيط الحكيم وتقدير العزيز العليم.

www.abulhasanalinadwi.org

إن زميلين من زملاء السجن ، وإن لم يكونا زميلين له ، لأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وأما هما فقد ارتكبا جنايات خلقية ، ولكن على كل حال جمع بينه وبينهما سجن واحد ، ومعتقل واحد ، رأى كل منهما رؤيا ، وألهمهما الله ـ تعالى ـ كما أنهما عرفا بتجربتهما وفراستهما الإنسانية ـ التي يكون لكل إنسان حظ منها ـ أن الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يفس هذه الرؤيا هو يوسف ، هذا الذي دخل السجن جديداً ، وكانت تلوح على سيماه النجابة والنسب الرفيع وسيما الصالحين ، فجاءا إليه وحكى كل واحد منهما رؤياه:

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾ [يوسف: ٣٦].

فالنقطة التي أريد أن أبنهكم عليها ، وستكون هذه النقطة مدداً لكم ، وتقوم مقام مأة كتاب.

أن هذه الآيات تشتمل على نقطتين ترجعان إلى علم النفس ـ وعلم النفس عالمي بشري ـ أولا: التأكيد لهما أن يوسف يستطيع أن يفسر النبأ الذي جاءا لأجله وقصداه ، وأنه لم يكن هذا القصد خطأً وأنهما ما ضلاَّ السبيل ، إنهما وصلا إلى غايتهما ، وهو الرجل المطلوب الذي يستطيع أن يرشدهما ، فإن الأصل النفسي العميق أن صاحب الحاجة يريد أن تقضي حاجته في أقرب وقت ، المريض إذا ذهب إلى طبيب يشخص المرض ويصف الدواء والطبيب يماطله ، يقول: سأراجع الكتب من المصادر الطبية ، وسأراجع فلاناً وفلاناً في البلد ثم أحاول أن أعالجك ، والمريض المسكين يتألم قلبه ، وينقطع أمله ، ويرجع خائباً وربما لا يرجع إليه بعد ذلك.

فالشيء الأول أن يُثير الإنسان الثقة في ذلك الرجل الذي سَاقَتْه الحاجةُ إليه ، ويقنعه بأن علاجه عنده ، وأن طلبته وحاجته ستقضى عنده ، فقال:

﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ﴾ [يوسف: ٣٧].

يعني أن حاجتهما ستقضي سريعاً ، لأنهما كانا في السجن مرتبطين

www.abulhasanalinadwi.org

بقوانين السجون والمعتقلات ، فما كان لهما أن يجلسا بجواره ـ طويلاً ـ فأراد أن يطمئنهما أن حاجتهما ستقضى سريعاً ، فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ الآية ، وهنالك تفسيران للآية:

١ ـ التفسير الأول: أن سيدنا يوسف عليه السلام قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي تأويل هذا الطعام يعني حقيقة هذا الطعام ، فإنه أراد أن يوجد الثقة فيها عن طريق إظهار قدرته على التنبؤ بشيء لم يره فاستعان به على إيجاد الثقة في نفوسهما.

وأنا لا أستسيغ هذا التأويل ، أولاً لأنه إخبار بالغيب ، ثم إن السجون ليس هنالك تنوع كبير في الأطعمة ، فباستطاعته ـ بكل سهولة ـ أن يخبرهما بنوع الطعام الذي سيحضر ، فأيُّ ألمعية لسيدنا يوسف عليه السلام وأي براعة له في الإشعار بنوع الطعام الذي سيحضر ، وجاء في التوراة أن سيدنا يوسف عليه السلام ، كان مشرفاً على المطعم ، إن صحَّ هذا فإنه لا غرابةَ لمشرف المطعم في أن يخبر ، أي نوع من الطعام سيحضر ، فأنا أميل إلى التفسير الثاني الذي ورد في بعض كتب التفسير ، وهو أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويل هذه الرؤيا حتى يطمئنا أنهما لا يحتاجان إلى جلوس طويل ، ولا يملاَّن ولا يأتي السجان فيقول: اذهبا إلى مكانكما ، ومن الذي أذن لكما بالحضور هنا ، فقال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾.

وكانت مصر على جانب كبير من الحضارة ، وتنظيم الحياة المدنية ، فالمفروض أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام ، وكان وقت الطعام قد حضر فلذلك قال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ الآية.

ثم هنا نكتةٌ حضرتْ لي الآن ، وهي أن بين المسجونين وبين الطعام الذي يأكلونه في السجن صلة قوية فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق ، وانتعشتْ قلوبهم بسماع ذكر الطعام ، فالطعام حبيب إلى كل إنسان ، ولكنَّه إلى المسجون أحبُّ وألذُّ وأشهى ، فلما ذكره يوسف انتعشت نفوسُهما ، وتهيأتْ آذانُهما فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ الآية ، ثم تثورُ فيه الطبيعة

www.abulhasanalinadwi.org

النبوية ، فلا يرد الفضل في ذلك إلى ذكائه ، ولا إلى براعته ، بل يرد الفضل إلى الله ، ومن هنا ينتقل انتقالاً حكيماً قلَّما يُوجد له نظير ، فقال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ [يوسف: ٣٧] فكان المدخل الكريم إلى النصيحة التي يريدها ، وانظروا: كيف ينتقل من تفسير الرؤيا ـ قبل أن يفسرها إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لا يسيغه ولا يتحمله هؤلاء المسجونون الذين ساقتْهم الحاجةُ إليه ، وكانا قد فزعا بهذه الرؤيا المفزعة ، وجاءا فزعين مرتاعين ، فكيف يحتملان هذا الحديث الطويل ، فقال لهما بأنه لا يرجع الفضل إلى ذكائي وبراعتي بل يرجع الفضل إلى الله ـ تعالى ـ ومن هنا يدخل من هذا المدخل اللطيف الرقيق الخفيف على النفوس إلى الدعوة ، تستحضرون حكمته في الدعوة ، أنه لم يكن يستطيع أن يقول: صبراً أيها الإخوان ، أيها الزُّملاء الكرام! سأفسِّر لكم الرؤيا ، ولكن اسمعوا مني أولاً أن هناك شيئاً أَهمُّ من هذا ، كيف كانوا ينشطونَ لسماع هذا الكلام ، وهذا الحديث الذي لم يتعوَّدوه ، وما جاؤوا لأجله فقال من غير انفصال طويلٍ ، بل في لحظة واحدة.

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ استحضروا الجوَّ الذي وقعتْ فيه هذه الدعوةُ الحكيمةُ التي لا أعرف مثلها دعوة إلا دعوة الرسول ـ ﷺ ـ وسأعرض عليكم نموذجاً منها ، ولم أمر بأي نموذج من نماذج الدعوة في تاريخ الدعوة ، وتاريخ الدعاة أَدَقُّ وأَعْمَقُ منها حيث بدأ الحديثُ بقوله: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ . . ﴾ إلى أن قال ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ كيف انتقلَ إلى الحديث عن الرَّب وإلى التوحيد ، هل هنالك انتقالٌ أخفُّ وأرَقُّ وألطَفُ وأسرعُ من هذا الانتقال؟ فكأنه يقول: ما كنت لأفسر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الإنسان الضعيف العاجز الذي لم أملك نفسي أمام هذا الأمر ، وأراد الناس أن يزجوني في السجن فلم أستطع أن أقاومهم ، وكيف يستطيع الإنسان الضعيف العاجز الذي يساق إلى السجن فلا يملك شيئاً أن يصل إلى هذه القمة الشامخة من العلم بنفسه ، بل ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾ ثم أثار سؤالاً آخر ، وهو لماذا علمني ربي؟ ومن هنا انتقل انتقالاً آخر. إنها رحلة طويلة في طريق الدعوة ، ولكن سيدنا يوسف بحكمته وبروحانيته الشفافة ، وقلبه

www.abulhasanalinadwi.org

المشرق ، وبفكره النقي الرباني استطاع أن يطوي هذه الرحلة الطويلة التي قد يطويها الدعاة والحكماء والفلاسفة في عدد من السنين ، استطاع أن يطويها في لحظةٍ واحدةٍ فقال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

هنالك شعر سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ أنه الآن في موقفٍ قويٍّ ، في موقفٍ عالٍ ، كأنه طلع جبلا ، أو ربوةً عاليةً ، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وكان لو قدم هذا قبل ذلك الكلام ، لكان كلاماً ثقيلاً على آذانهما وعلى قولبهما ، ولكن هنا استطاع أن يقول ، وحق له أن يقول: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ لاحظوا هذا التقديم والتأخير ، ولاحظوا هذا الترتيب القرآني ، الترتيب الحكيم ، وكان لو استمرَّ في الكلام ، كان الكلام ممجوجاً ، ولكنه شَعَرَ بقوةٍ في نفسه ، وشعر بحسن استماع منهم لما كان يقرأ في وجوههم أنهم تهيأوا لاستماع هذا الصوت الذي يأتي من السماء ، لأنه دعوة الله للعبيد عن طريق الأنبياء والمرسلين ، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ اشعروا بالنبرة التي تختلف عن النبرة الأولى ، كانت النبرة الأولى رقيقة لطيفة خفيفة ، فجاءت هذه النبرة قوية متدفقة بالحياة ، متدفقة بالثقة ، وكان ذلك من أقرب الطرق إلى فهمهم أما لو استعان بأشياء منطقية وكلامية لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك.

ثم قال: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠] إنها أسماء من غير مسميات ، إنها أسماء لا حقيقةَ لها ، أسماء عند اليونان ، وأسماء عند البراهمة الوثنيين ، وأسماء عند غيرهم من أمثالهم ، إن الإعجاز القرآني يكمُنُ في أنه أطلق عليه كلمة الأسماء ، إن الذي قرأ تاريخ الديانات وتاريخ الميثولوجيا يعرف إعجاز هذه الآية أنه ليس هناك إلا أسماء محضة ، أين الآلهة؟ أين إله المطر ، وإله الحرب؟ وأين إله الحب وإله الجمال؟ أين هذه الآلهة؟ التي لا وجود لها إلا في الذهن وفي القائمة الخيالية ، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ

www.abulhasanalinadwi.org

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ولا تزال هذه الآية معجزة إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها ، وليست الوثنية إلا أسماء ، وقد فضح القرآن الوثنية بقوله : ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ .

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأن الفراغ الذي وجد في قلوبهم قد ملىء ، وليس من الحكمة الآن أن يُطِيْلَ الكلام ، ويتوسَّعُ في الحديث عن التوحيد ، والطبيب النطاسي[1] يعرف مقدار الوجبة من الدواء ، مَدَى صلاحية المريض وحاجته ، فلا يزيد عليها ، إنها طريقة الداعي الملهم ، الداعي المؤيَّد من الله ، إنه يشعر أنه قد وصل إلى نقطة لا يجوز له أن يتخطاها ، ولأجل ذلك فإن من يضع القوانين المحددة للدعوة أو التربية يجني عليها ، على إطلاقها وحريتها وحيويتها ، ويجني على الدعاة ، ولما شعر سيدنا يوسف أنه لا تَتَّسِعُ نفوسُهم ولا تَتَهيَّأُ لسماع نصيحة أكثر من هذا وقف ، وبدأ يفسِّر الرؤيا .

وقد تجلَّى في هذه القطعة القرآنية جمالُ يوسف ، الجمالُ الحقيقيُّ ، الروحيُّ ، والجمالُ الفكريُّ والجمال النبويُّ في أَروع مظاهرِه .

ولكن من الغريب أن هذه القطعة المعجزة قد تجرَّدْت عنها التوراة ، فقد قارنتُ بين قصة يوسف في القرآن ، وقصة يوسف في «Bible» فدهشتُ عند ما رأيتُ أن هذه القطعة التي هي من أَجمل القطع الأدبية فضلاً عن أنها من القطع الدينية لم ترد في التوراة ، تجد فيها الأعداد والأرقام والمساحة ، كان الشيء الفلاني كذا من الأَذرع والأَشبار ، ولكن تجرَّدَ العهد القديم (Bible) بطوله وعرضه عن هذه القطعة الجميلة ، وتعرض للتابوت أن كان كذا من الأمتار ، وأن لباسه كان كذا وكذا ، وأنه تشقَّق من هنا وهناك ، ولكن هذه القطعة التي تَسْحَرُ النفوسُ وتلهم المعاني ـ التي لم تتعرض لها التوراة ـ تمثل نموذجاً رائعاً من نماذج الدعوة في القرآن الحكيم؟

وأذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر :

---

(١) الطبيب النطاسي ، أي : الطبيب البارع المازق .

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما وَزَّعَ سبايا ومغانم حنين في الجعرانة على أشراف قريش كما تعرفون وقرأتم في السيرة ، أنه أعطى قريشاً فأجزل لهم العطاء ، أعطى أبا سفيان ، وعكرمة بن أبي جهل ، وفلاناً وفلاناً ، وكان نصيب الأَنصار فيها قليلاً ، اعتماداً على إيمانهم وعلى حبِّهم وصلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالإسلام ونبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

هناك تَقَاوَلَ بعضُ الشباب ، فقالوا: إن رسول الله ـ ﷺ ـ خَصَّ بني قبيلتِه بأكبر نصيب من العطايا والمغانم ، وبلغ هذا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فحسب له حساباً لأنه النَّبيُّ المربِّي وليس النبيُّ فقط ، فأمر بجمع الأنصار في حظيرةٍ فاجتمعوا ، وقال: لا يدخل الحظيرة إلا الأَنصار ، ولما اجتمعوا كلهم قَالَ لهم:

«ما هَذِهِ الْقَالَةُ الَّتي بَلَغَتْني عَنْكُمْ ، وِجِدَةٌ وَجَدْتُمُوْهَا عَلَيَّ في أَنْفُسِكُمْ».

فاستحيوْا وقالوْا: لاَ شيءَ يَا رَسُولَ اللهِ ، إنَّمَا هُمْ بَعْضُ الشَّبَابِ قَدْ وَسْوَس لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، ثُمَّ قَالَ: **أَمَا أَتَيْتُكُم ضَلالاً فَهَداكُمُ اللهُ بِيْ ، وَعَالَةً فأَغْنَاكُمُ اللهُ بِيْ ، وأَعْدَاءً فألَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوْبِكُمْ؟** قالوا: للهِ وَلِرَسُوْلِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ!.

ولم يتبدر الرسول ـ ﷺ ـ بالكلام ، بل أراد أن يتكلم بلسانهم ، فأثار فيهم الشعور الإنساني وألهمهم المعاني فقال: **ألا تُجِيْبُوْنِي يَا مَعْشَر الأَنْصَارِ؟** قالُوْا: بِماذَا نُجِيْبُكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ؟ للهِ وِلِرَسُوْلِهِ الْمَنُّ والْفَضْلُ ، قَالَ: **وَاللهِ لَوْ قُلْتُمْ لَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ ، ومَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ ، وطَرِيْداً فآوَيْنَاك ، وعَائِلاً فَوَاسَيْنَاكَ؟** أيُّ زعيمٍ ، وأيُّ قائدٍ وأيُّ مربٍّ ، وأيُّ صاحبِ فضلٍ يستطيع أن يشهد على نفسه بهذا؟ والله لولا أن هذه الكلمات قد وردتْ في السيرة النبوية وفي حديث صحيح أصله في الجامع الصحيح للبخاري ، وقد ذكره الحافظ ابن القيم في «زاد المعاد» بسياق أوسع وأشمل ، لولا أنها قد وردتْ في الصحاح وفي كتب السيرة لما كان لأيِّ مسلم أن ينطق لسانه بهذه الكلمات: «**أَمَا أَتَيْنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُوْلاً فَنَصَرْنَاكَ ، وطَرِيْداً فآوَيْنَاكَ**».

www.abulhasanalinadwi.org

ثم قَالَ بعد أَن أَثَارَ نفوسَهم وأَجْرَى عُيُـوْنَـهم ، وفتح الأغلاقَ من قلوبهم: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! أَوَجَدْتُمْ عَلَيَّ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمَوا وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلاَمِكُم؟**»[1] انظرُوا ، كيف أوجد في نفوسهم الثقة التي كانت كفيلة بحسم كل ما ساور نفوسهم ـ إن كان هناك شيء قد ساور نفوسهم ـ وقَالَ: «**أَوَجَدْتُمْ عَلَى فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوْا وَوَكَّلْتُكُمْ إِلَى إِسْلاَمِكُمْ**» ، ثم قال الكلمةَ المُثِيْرَة البليغةَ التي ما يمكن أن تطلـق أو تنطلـق مـن فـمٍ إلَّا وتُفَجِّـرُ الأنهـارَ وتشـق الصخـورَ ، وتـأتـي بالمعجزات.

«**أَمَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! أَنْ يَذْهَبَ النَّاس بالشَّاءِ والْبَعِيْر إِلَى رِحَالِهِمْ ، وتَرْجَعُوْنَ بِرَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ إِلَى رِحَالِكُمْ ، وَاللهِ لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءاً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَو سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَوَادِياً ، وسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْباً وَوَادِياً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ وَوَادِيْها ، الأَنْصَارُ شِعارٌ ، والنَّاسُ دِثَارٌ ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ ، وأَبْنَاء الأَنْصَارَ ، وأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارَ**»[2].

ويحلُو لي أن أقول وأردد هذا الكلام في مدينة الأنصار:

«**اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ ، وأَبْنَاءَ الأَنْصارِ ، وأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ**».

ثم ماذا كان؟ كان الشيء المتوقع الطبيعي ، هملتْ عيونُهم حتى اخضلتْ لحاهُم ، وقالوا: رضينَا برسول الله ـ ﷺ ـ قسمة وحظاً.

والله لو بحثنا ـ ولي مشاركة في بعض اللغات غير العربية فضلاً عن لغتي الأردية ـ لو بحثنا في أدب الأمم والديانات ، ما وجدنا موعظة أبلغ من هذه الموعظة ، وعلماً بالنفس الإنساني أكثر عمقاً وأكثر صدقاً من العلم النبوي.

---

(١) اللعاعة: خضرة ناعمة.

(٢) أخرجه البخاري عن عبد الله بن زيد بن عاصم في كتاب المغازي (٤٣٣٠) ، ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه في كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم. . . ، رقم الحديث (٢٤٤١) ، وابن هشام في السيرة النبوية ، وأحمد في مسنده (١١٣٢٢).

www.abulhasanalinadwi.org

هذان النموذجان من أروع النماذج التي دونت وسجلت في الآداب البشرية وفي المكتبات الإنسانية.

أيها الإخوان، أقول لكم: إن الأشياء الكفيلة الضامنة لنجاح الدعوة إنما هي عوامل معدودة، أستطيع أن ألخصها في عاملين أساسيين:

أولهما: أن تملك الفكرة وتهيمن على مشاعر الداعي، وأن تجري منه مجرى الروح والدم، وأن تمتزج بنفسه، هنالك يكون الداعي هو الداعي الموفق الملهم، المؤيد من الله الذي سيكتب له النصر، ولا يكتب له أي إخفاق أو فشل.

فالشرط الأول ألا تكون الدعوة صناعة أو حرفة أو فناً، وألا تكون حذلقة ومجرد براعة في الخطابة، بل تكون عقيدة وفكرة، وإيماناً يستحوذُ على النفس الإنسانية، ويملأ جميعَ جوانب النفس، حتى إذا أراد الإنسان أن يتخلى عنها لم يستطع ولم يقدر، هذا كان شأن سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - يوم الردة، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التي نطق بها والتي غيرت مجرى التاريخ؟!

طُلب مني أن ألقي الكلمة الأخيرة في المؤتمر الآسيوي الإسلامي الأول في كراتشي، وأمامي نخبة من قادة الفكر الإسلامي ومن قادة العالم الإسلامي، فاستعنت بهذه الكلمة، وقلت لهم، ما هي تلك الكلمة التي ستكون رائدة هذا المؤتمر، فيحملها الذين يتصرفون من هذا المؤتمر؟ قلت لهم: إن الكلمة التي تحملونها من هنا هي الكلمة التي جرت على لسان أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - يوم الردة، ومَنْع الزكاة: «**أَيَنْقُصُ الدِّيْنَ وَأَنَا حَيٌّ؟**».

أنتم المسؤولون أمام الله يا إخوتي الطلبة، أبنائي شباب المسلمين والعرب! أنتم مسؤولون أمام الله، درستم في هذه الجامعة المباركة، وأي مكان أقرب إلى مدرسة الرسول ﷺ وإلى صفة المسجد النبوي التي درس فيها كبار الصحابة، وحفظوا، ووعوا أحاديث رسول الله ﷺ، وتخرج منها مثل أبي هريرة راوية الحديث، ووعاء من أوعية العلم، أي جامعة أقرب

www.abulhasanalinadwi.org

إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة ، إذاً فمن أي جامعة تتوقع أن يخرج منها دعاة تملكهم الدعوة؟!

والله لو استطعتُ أن أنقشَ هذه الكلمة على صدر كل واحد منكم لفعلت ، يا ليتها كانت هذه الكلمة مكتوبة في كل بيت على لوحة بقلم عريض: «**أَيَنقُصُ الدِّيْنُ وَأَنَا حَيٌّ؟**».

أما الشيء الثاني: فهو التجرد عن المطامع ، والزهد في الدنيا ، لا أعني به زهداً نصرانياً ، ولا زهد رهبانياً.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] الآية.

ولا رهبانية في الإسلام ، ولكن الدعوة تحتاج إلى شيء من سمو النفس وعلو الهمة ، والتجرد عن المطامع ، والزهادة في المناصب والوظائف الكبيرة.

إن من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم ، وفيما وسع الله به عليهم ، فإنهم يشكون في إخلاصكم ، ويكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم أنكم لستم طلاب ملك ، ولا منتجعي جاه ومنصب ، ولا رواد ثروة ورخاء ، أو مدفوعين من شحّ وحرص.

قيل لشيخ الإسلام ابن تيمية: يقالُ: إنك تريد الملك ، فَقَالَ في دهشةٍ وقوَّةٍ: **أَنَا أُرِيْدُ الْمُلْكَ؟! وَاللهِ إِنَّ مُلْكَ التَّتَارِ لاَ يُسَاوِيْ عِنْدِي دِرْهَماً** ، وقد كانت دولة التتار أكبر دولة ، وأكبر قوة على وجه الأرض في ذلك الحين.

وإن أحد المربين في الهند الذي نفع الله به خلقاً كثيراً ، عرض عليه ملك «دهلي» مالاً طائلاً ، فقال له: **لاَ شَأْنَ لِيْ بِهِ** ، قال: لابد من أن تقبل شيئاً مما أَعْطَاني الله ، قال: **إِنَّ اللهَ** ـ سبحانه وتعالى ـ **يَقُوْلُ**: ﴿**قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾ [النساء: ٧٧] **فَإِذَا كَانَتَ الدُّنْيَا كُلُّها قَلِيْلَةٌ: فَقَارَّة آسيا ـ طبعاً ـ أَقَلُّ مِنْهَا ، والْهِنْدُ أَقَلُّ مِنْهَا ، ثُمَّ دِهْلي أَقَلُّ مِنْهَا ، وَأَنْتَ لاَ تَمْلِكُ إِلاَّ هَذَا ، فَكَيْفَ أَرْزُؤُكَ فِي الزَّهِيْدِ الْيَسِيْرِ؟!**

وأحكي لكم قصة وقعتْ في دمشق ، كان الشيخ سعيد الحلبي من كبار

www.abulhasanalinadwi.org

الأساتذة والمربين في القرن الماضي ، وكان ـ مرة ـ يلقي درساً في جامع من جوامع دمشق ، فجاء إبراهيم باشا ـ الحاكم العام لسورية ـ وإبراهيم باشا مَنْ تعرفونه في القسوة والعنف ـ ودخل ووقف أمام الباب ، وكان الشيخ يشكو ألماً في رجله ، وكان ماداً رجله إلى الإمام؛ لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب ، ويلقي الدرس ، فكانت رِجْله إلى الباب فدخل إبراهيم باشا ومعه المحافظون العسكريون ، والشرطة ، فانتظر وتوقع أنه سيقبض رجله ، ولكنه لم يفعل ، وخاف أصحابه عليه من السيف ، وقبضوا ثيابهم لئلا يصيبها دمٌ زكي ، دم عالم تقي ، وبقي إبراهيم باشا واقفاً ، ثم رجع ، وأرسل صرَّة من دنانير ذهبية مع أحد الخدم ، وقال: تقدم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي ، وتقول له: هذه هدية من إبراهيم باشا ، فلما جاء بها الخادم إليه قال كلمته البليغة الحكيمة؛ التي هي أبلغ من ألف قصيدة ، قال: قل لسيدك إن الذي يمدُّ رِجْلَه لا يمدُّ يده.

فالإنسان مخير ، إما أن يمدَّ رجله وإما أن يمدّ يده ، فإذا مدَّ رجله لا يسوغ له أن يمدَّ يده؛ لأنه تناقض.

وقد جُبِل الناسُ على حب من زهد فيما عندهم والبغض لمن ينافسهم فيما يحرصون عليه ، هذه هي الطبيعةُ البشرية منذ آلاف السنين ولا تزال ، فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا في نفوس من توجهون إليهم الدعوة ، فأوضحوا لهم أولاً ، وطمئنوهم أنكم لستم طلاب ملك ومال وطلاب رئاسة وجاه ، وطلاب مناصب ووظائف ، إنما أنتم تفعلون ذلك شفقة عليهم ، ورقّة بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه.

أنا تلميذٌ صغيرٌ لتاريخ الإصلاح والتجديد ، وإن هواياتي ـ وإن كانت متعددة ـ ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ ، وخاصة تاريخ الإصلاح والتجديد ، فما رأيتُ تجربةً في القرون الأخيرة ـ أعني: بعد القرن الثامن على الأقل ـ أنجح وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية ، وقد حكيتُ قصته في الجزء الرابع من كتابي: «رجال الفكر والدعوة» الذي سيصدر إن شاء الله قريباً

www.abulhasanalinadwi.org

باللغة الأردية ، وستقرؤون هذه القصة بالتفصيل .

تقرؤون فيه أنه كيف استطاع الرجلُ الأعزلُ المجرد من كل سلاح ، والمجرد من كل ثروة مادية ، والمجرد من كل جيش ، أن يحوِّل التيار في الإمبراطورية المغولية العظمى؛ التي كانت في الدرجة الثانية بعد الإمبراطورية التي لم تكن إمبراطورية ـ بعد الإمبراطورية العثمانية ـ أكبر منها مساحة ، وأكثر منهما فتوحاً ونجاحاً ، كان على رأسها الملك القوي القاهر الذي اتسعت له الفتوحات الواسعة العظيمة؛ وهو جلال الدين أكبر ، وكان هذا الإمبراطور نشأ في قلبه عداء للإسلام ، وحقد عليه؛ لأنَّ مَنْ ينحرف عن الإسلام ، ويثور عليه أقبح وأشد من الذي نشأ في الكفر ، كما حكيتُ لكم في حديثي بالتفصيل في محاضرتي بعنوان: «عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي» وفي هذه الجامعة نفسها ، ولأنَّ الذي يخرجُ من النور إلى الظلام يكون أعمش ، وأقل إبصاراً من الذي نشأ في الظلام ، ثم إنه يُصاب بمركَّب النقص .

فكان الإمبراطور جلال الدين ، نشأ فيه عداء شديد للإسلام ، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيعُ أحد في بلاطه أن يُسمِّي ابنه محمداً؛ لأنه كان يكره هذا الاسم ، فترك الناس التسمية بهذا الاسم ، وكان مَنْ يذبح بقرة في عهده يُعاقب بالقتل ، وكان قد فتح الخمارات ، وشجَّع الناس على شرب الخمور ، وأكل لحم الخنزير ، وكان قد تأثر بالبرهمية والوثنية الهندية . كان يتَّجه بالمملكة إلى الطابع الهندي البرهمي ، والفلسفة الهندية القديمة[1] .

هنالك قيَّض اللهُ ـ تعالى شأنه ـ لمكافحة هذا التيار ، ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السرهندي (١٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) فجلس في ركن من أركان بيته ، وبدأ يفكر في شقّ الطريق لمكافحة هذا التيار ، فجعل يراسلُ الملك وأهل البلاط ، من الوزراء الكبار ، والأمراء العظام ، ويثيرُ فيهم

---

(١) راجع للتفصيل محاضرة العلامة الندوي في آخر هذا الكتاب بعنوان «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» صفحة : (٢٠٤) .

www.abulhasanalinadwi.org

النخوة الإسلامية ، والحمية الدينية ، ويقول لهم: يا جماعة ، أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقد شرَّفكم الله تعالى بنعمة الإسلام ، ورغم ذلك نرى أتباع محمد ﷺ ـ وهو حبيبُ ربِّ العالمين ـ أذلاء في هذه البلاد التي فتحها المسملون ، واراقوا عليها أزكى دمائهم ، وصرفوا لها أفضل عبقرياتهم ، وأحسن مواهبهم كيف تحتملون هذا الوضع ، وكيف ترضون بذلك يا عباد الله؟!

صار يثيرُ فيهم كامنَ الإيمان ، ويُحرِّك فيهم العرقَ الإسلامي الذي لا يخلو منه قلبُ أيِّ مسلم ، وما زال يثيرُ فيهم النخوة الإسلامية ، ويُواصل العمل ، وبقي هكذا مدة طويلة يراسل ، ويكتب ، ويقابل حتى كسب عدداً من الأمراء ، فكانوا أنصاره وتلاميذه ، ومات جلال الدين أكبر ، وخلفه ابنه نور الدين جهانكير ، وطلبه إلى بلاطه ، ولم يسجدْ له الشيخ تعظيماً كما كانت العادة في البلاط ، فسجنه فبقي في السجن سنتين ، ثم أمره بأن يبقى في المعسكر ، ويرافقه لمدة ثلاث سنين ، فصبر على هذه الحالة ، وعرف جهانكير أنه من طراز آخروأنه عالم رباني مخلص ، زاهد في الدنيا محب للخير فأحبه وأجله ، وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها ، واحترام الإسلام والمسلمين.

ولم يزل يُجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء؛ حتى كوَّن مجموعةً مؤمنة ذات حمية دينية ، فقلب التيار ، وغيَّر مجرى التاريخ ، فكان جهانكير أفضل من أبيه أكبر ، وكان ابنه شاهجان أفضل من أبيه جهانكير ، ومما يدلُّ على ذلك أنه لما صنع له «عرش الطاووس» الذي صرف عليه الملايين ، وتربَّع عليه نزل بعد هنيهة ، وقال: لقد كان فرعون سفيهاً ، إنه جلس على عرش آبنوس ، وادعى الألوهية ، وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ولكني أنا مسلم ، ثم سجد لله شكراً ، ثم جلس على العرش.

وخلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذي دوَّن الفتاوى الهندية ، وطبق الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس ، وكان من أفقه الملوك

www.abulhasanalinadwi.org

الذين عرفناهم في العصور الأخيرة ، ومن أغير الملوك على الإسلام ، ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنة لا تفوته جمعة ولا جماعة ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً ، وشرحها .

كلُّ ذلك بجهود رجل واحد فقير أعزل ، ولكنه تملكته العقيدة ، وسيطرت عليه الفكرة ، وتشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه ، ولا يقدر على التحول من موقفه ، وقد أثبت للملوك أنه لا يريد الملك ، وقال لهم : إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم ، ولا أنافسكم في ملككم ، وأدعو الله تعالى لكم بالتوفيق والنجاح ، وخذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبقوا الأحكام الشرعية ، وتوجَّهوا بهذه البلاد إلى الإسلام .

هذان عاملان أساسيان في رجال الدعوة : أحدهما : تملك الفكرة وسيطرتها على نفسه ، والثاني : التَّجرُّد عن المطامع الدنيوية ، والزهد في المناصب ، والملك .

وأكتفي بذلك ، وأرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء أبنائنا أبناء الجامعة الإسلامية ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين .

وأعود لأقول لكم : إنه ينبغي أن تكون كلمتكم الرائدة : «**أَيَنْقُصُ الدِّيْنُ وَأَنا حَيٌّ**»؟! .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

منهج أفضل في الإصلاح

للدُّعاة والعُلماء[1]

اختار الله للدعوة الإسلامية في الهند أصحاب قلوب رقيقة ، لأن الشعب الهندي هو رقيق الشعور قوي العاطفة ، يفعل فيه الحب والحنان ، ما لا يفعله المنطق والبرهان ، فاختار الله للدعوة الإسلامية في الهند ، أصحاب قلوب لينة خفاقة ، وعيون دامغة فياضة ، هؤلاء الذين كانت عيونهم تدمع لكل مفجوع منكوب ، وكانوا يؤون كل طريد وشريد ، ويلجئون كل من أقصته الأسرة وطردته القرية.

كان الفرق بين البرهمي وغير البرهمي أكبر من الفرق بين الإنسان والحيوان ، إن الكتب التي تناولت هذا الموضوع ، (النظام الطبقي والاجتماعي في الهند) كثيرة[2] ، ثم كان غير البراهمة طبقات ، ثم هنالك سيدات مات أزواجهن فكن يحرقن أنفسهن مع أزواجهن وكان ذلك من العادات التي تفردت بها الهند.

فكان أولئك الربانيون يلجئونهم في ملاجئهم العلمية والروحية ، يطعمونهم معهم ، ويجلسونهم على مائدة واحدة ، ما كان هنالك من المألوف أن يؤاكل إنسان إنساناً ، ولا يزال هذا في الهند ، إذا سافرتم في القطار ترون صديقين من غير المسلمين يتحدثان ويتلاطفان ، فإذا حضر

---

(١) هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي ـ رحمه الله ـ في كلية الدعوة والإرشاد في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، عام ١٣٨٩هـ.

(٢) ليراجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» و «السيرة النبوية» طبع دار ابن كثير ، دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

الطعام صرف هذا وجهه إلى الغرب ، وهذا وجهه إلى الشرق ، بدأ يأكل هذا وبدأ يأكل ذلك ، كأنه لا لقاء بينهما ، فهؤلاء الدعاة والمربون كانوا يعاملون أولئك اللاجئين معاملة الأولاد وكانوا يجلسونهم على مائدة واحدة ، ويفضلونهم على أنفسهم وأولادهم ، وبذلك انتشر الإسلام انتشاراً هائلاً في هذه البلاد التي تشبه قارة.

وكانوا مع هذا الزهد والابتعاد عن قبول الصلات الملوكية ، يشرفون على الحكومة ويراقبونها من بعد ، كالنار يصطلي بها الإنسان ويستدفىء بها ولا يمسها فتحرقه ، وكان ذلك إلهاماً من الله تعالى.

أنا أؤمن بأن الداعية المخلص ، لا يكون داعية إلا إذا كان ملهما مؤيّداً من الله ، فكانوا يراقبون الدولة ويراقبون اتجاهاتها وميولها ، ويرون هل المجتمع الإسلامي إلى خير أم إلى شر ، وإلى صلاح أم إلى فساد ، وهل هناك اتجاه موافق للإسلام أم معارض للإسلام؟ فإذا كان هناك اتجاه معارض للإسلام جروا الحبل من بعيد وباحتياط ، وأشاروا على الملك بما هو صالح للعباد والبلاد ، وبما فيه تأييد للدين وتقوية للمسلمين ، وقد تكون لهم يد خفية في اختيار ملك أو عزل ونصب.

فإذا سنحت لهم فرصة لكلمة حق عند سلطان جائر كانوا من أفصح الناس وأشجعهم ، أحكي لكم قصة واحدة:

إن محمد تغلق عرف في تاريخ الهند بالجبروت والطغيان ـ بل بالجنون والهوس ـ ويسمى في تاريخ الهند «السلطان العاقل المجنون» إنه كان رجلاً علامة ، وهو أول ملك من ملوك الهند اطلع على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وأعجب بها ، إنه كان في آخر القرن الثامن وكان شديد الإنكار على المنكرات والبدع ، وقد عسكر مرة بقرب عالم رباني اسمه الشيخ قطب الدين منور ، وجاء العلماء والشيوخ يسلمون عليه ، ولزم الشيخ بيته فلم يأته ، وغضب الملك وطلبه إلى دهلي عاصمة البلاد ، ولما حضر البلاد ودخل الديوان رأى الأمراء والوزراء والحكام ورجال البلاط واقفين

www.abulhasanalinadwi.org

سماطين[1] متخشعين مسلحين ، في هيئة تخلع منها القلوب ، وكان معه ولده نور الدين وكان حديث السِّنِّ لم يزر بلاط الملك في حياته ، ففزع لهذا المنظر الغريب وامتلأ رعباً ، فناداه الشيخُ قطب الدين بصوت عال قائلاً : يا ولدي! العظمة لله ، يقول نور الدين : إني استشعرتُ فيَّ قوة غريبة بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي وذابت ، وبدأ الجميع عندي كأنهم قطيع من ضأن أو معز ، وسأل الملكُ الشيخَ وعاتَبَه قَائِلاً : «**إِنَّنَا مَرَرْنَا بِزَاوِيَتِكُمْ فَلَمْ تُشَرِّفُوْنَا بِزِيَارَتِكُم وَمَوْعِظَتِكُمْ**» فأجاب الشيخ : «**إِنَّ هَذَا الْفَقِيْرُ لاَ يَجْدِرُ بِمُقَابَلَةِ الْمُلُوكِ ، إِنَّهُ يَعِيْشُ فِي عَزْلَةٍ وَيَدْعُوْ لِلْمَلِكَ وَلِجَمِيْعِ الْمُسْلِمِيْنَ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْذِرُوْنِي فِي هَذَا الأَمْرِ**» وبعد انصرافه قال الملك لوزرائه : إنه صافح كثيرا من الشيوخ والعلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً وإشفاقاً ، أما هذا الشيخ فما وجدت في كفه ليناً وضعفاً ، وما رأيت في يده ارتعاشاً ، بل صافحني بقوة وحرارة زائدة واعتزاز نفس .

وقدم إليه الملك مائة ألف «تنكة» (قطعة ذهب) فقال الشيخ سبحان الله تكفيني أقتان من أرز وسمن بفلس واحد ، ماذا أفعل بهذا المال الكثير؟ ولكن قيل له إن الملك يسخط إذا لم يقبل هذه الهدية وينقم منه ، فقبل الشيخ ألفي روبية وقسمها بين إخوانه وأصحابه وذوي الحاجة ، هذه قصة من القصص الكثيرة[2] .

والآن أتحدث إليكم عن دور الإصلاح والتنظيم : لما رسخت الحكومة الإسلامية في الهند وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في جميع أنحائها ، تأثر المسلمون بمواطنيهم الهنود ، فانتقلت إليهم عادات الجاهلية ، وانتقلت إليهم بعض العقائد الخرافية ، وتسرب إليهم الشرك والبدع وتغلغلت فيهم الفلسفة اليونانية والفلسفة الهندية القديمة ، وعن طريق هاتين الفلسفتين انتقلت إليهم اتجاهات ونزعات لا يقبلها الإسلام ، فهنالك جاءت مرحلة

---

(١) أي صفين متقابلين .

(٢) انظر هذه القصة بطولها في كتاب العلامة الندوي «المسلمون في الهند» . طبع دار ابن كثير ـ دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

الإصلاح والتنظيم ، ولما جاءت هذه المرحلة ، قيض الله في هذه المرحلة الدقيقة رجالاً غَيَارى متألمين للإسلام ، وهبوا نفوسهم وأرواحهم ومواهبهم وذكاءهم لقيادة المسلمين في هذه البلاد.

واتفق أن أكبر ملك عرفه تاريخ الهند ، هو الملك المغولي السلطان جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند ، اتجه اتجاهاً معارضاً للإسلام ، ونشأ فيه عداء للإسلام وعناد شديد للدين الإسلامي وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، وعطف شديد على البراهمة وعقائدهم وعاداتهم.

هذه مرحلة أدق من مرحلة الجاهلية المحضة ، إذا كانت بلاد لا تعرف الإسلام فقضيتها قضية سهلة ، إذا تعرفت بالإسلام فقد تعرفت بالإسلام الحقيقي والدين الخالص ، ولكن إذا ثار الملوك والحكام على الإسلام ، وانحرفوا عن الجادة وارتدوا عن الإسلام أو عارضوه ، فهنا العقدة الكبرى.

إن «أكبر» كان أولاً مغرماً بدراسة الديانات ، كان من سوء حظه أنه كان أميّاً أو شبه أميّ ، لم تسمح حياته الخاصة بدراسة وثقافة ـ ولكن مع ذلك عنده غرام بالمقارنة بين الديانات ـ ، والإنسان إذا كان جاهلاً وليست عنده الوسائل الكافية للمقارنة الأمينة ، والوصول إلى النتائج الصحيحة ، فهذه محنة عظيمة ، وهذا الرجل كان يجمع بين طبيعتين متناقضتين ، جاهل ولكنه كان مفرط الذكاء ، سريع الانفعال عصبيّاً ، ومغرماً بالمقارنة بين الديانات ، فجمع علماء أهل السنة وعلماء الشيعة وعلماء الطوائف الإسلامية التي انحرفت عن الإسلام ، وعلماء البراهمة والبوذيين والمجوس والمسيحيين ، وكان يثير موضوعاً خلافياً يناظر فيه هؤلاء العلماء فكانوا يتناقرون كالديك ويتناطحون كالتيوس ، وكان يتفرج على ذلك ويتسلى به ، كما كان الملوك في العصر القديم يتفرجون على قتال التيوس وبعض الطيور ، هذه المناظرات قد غرست في قلبه الشكوك وصار ينسلخ عن الإسلام رويداً رويداً حتى انسلخ تماماً.

ثم العامل الثاني الذي أثر فيه وعدل به عن الإسلام ، هو حب العلماء

www.abulhasanalinadwi.org

الزائد للدنيا وتنافسهم في الجاه والمال ، كان في بلاطه علماء يعتبرون من كبار العلماء في عصره ، ولكنهم مع الأسف الشديد ، كانوا متنافسين تنافساً شديداً في الجاه ، وكان كل واحد يريد أن يستأثر بالملك وكان بعضهم ادخر مالاً عظيماً ، وكان بعضهم استخرجت من مقبرة أسلافه لَبِنَاتٌ من ذهب كان قد خبأها ، فلما اطلع هذا الرجل على هذه المناظرات واطلع على مواضع الضعف في هؤلاء العلماء الكبار ، الذين كان أحدهم المحدث الأكبر والآخر قاضي القضاة والمفتي الأكبر ، رأى أنهم لصوص الدنيا ، وأنهم لا يقلون عن عباد الدنيا في حب المال ، فانسلخ عن الإسلام.

وأقول لكم ـ أيها الإخوان ـ عن تجربة واختبار ، إن الذي يرتد عن الإسلام يكون أكثر عناداً للإسلام ، وأكثر معارضة للإسلام والمسلمين من الذين ليس لهم عهد بالإسلام ، ومن أتباع كل ديانة ، مسيحيين كانوا أو يهوداً ، وهذا الذي تشهدونه اليوم في بعض البلاد العربية والإسلامية ، التي يحكمها الذين ولدوا في الإسلام ونشأوا في بيت مسلم وفي بيئة مسلمة ، ثم كرهوا الإسلام وأبغضوه لتأثير أجنبي أو بفعل ثقافة أو فلسفة ، فهم دائماً أشد عناداً للإسلام من الهنادك والمجوس والمسيحيين.

ونعود إلى القصة فنقول ، إن «أكبر» عادى الإسلام عداءً شديداً ، حتى يروى عنه أنه كان لا يستطيع أن يسمع اسم محمد ، كانت تثور ثائرته إذا سمع هذا الاسم الكريم ، فكان لا يملك نفسه ، وقد أصدر الأوامر الشديدة بأن كل من سجل عليه أن ذبح بقرة فإنه يقتل ، إنه أحل الخنزير وأحل الخمر ، ولكنه حرم ذبح البقر ، وحرم على رجال بلاطه أن يسموا أولادهم محمداً أو أحمد.

هذه فترة دقيقة جداً ، تقرر مصير الهند وتقرر مصير المسلمين في هذه البلاد التي فتحوها بدمائهم ، هذه البلاد التي هجروا فيها وفي سبيلها أوطانهم ، هذه البلاد التي عاشت فيها أجيال ، ونبغ فيها علماء ومؤلفون ، ونهض فيها دعاة ومربون هل يتجرد المسلمون فيها عن دينهم؟ هل يلفظ فيها الإسلام نفَسَه الأخير؟ هل يكتب عليه الفناء؟

www.abulhasanalinadwi.org

هنالك قام رجل له فضل على كل مسلم في الهند ، هو الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ وكان عالما كبيراً مشاركاً في علوم كثيرة ، وكان إذا أراد أن يكون له مركز كبير علمي كان يمكن أن يتصدر مجلس السلطان أكبر ، وكان هناك من دونه في العلم ومن دونه في الذكاء ، ولكنه ملكته فكرة واحدة: حرام على هذه البلاد أن ترتد عن الإسلام وأن يحرم المسلمون فيها حقهم أن يعيشوا كراماً أحراراً شرفاء ، يزاولون شعائرهم الدينية ، ويحافظون على خصائصهم وشخصيتهم الإسلامية ، ملكته هذه الفكرة حتى حالت بينه وبين كل لذة ، فوهب نفسه وحياته لها ، ترونه في رسائله (وأصلها بالفارسية ، وقد نقلت إلى العربية) كيف يبكي دماً وكيف يبكي على الإسلام ـ إن رسائله دافقة بالحياة. الإنسان إذا قرأ هذه الرسائل يشعر بأن فيها شعلة إيمانية ، ولهيباً من إيمان وصراحة وحزن ، فيقول في إحدى رسائله ، كتبها إلى أحد كبار الدولة: «واويلاه ، واحزناه وامصيبتاه ، إن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام الذي هو حبيب رب العالمين ، بهذا المكان من الذل والهوان ، والكفار والمشركون والوثنيون يتمتعون بالحرية ، وهذا في عهد رجلٍ يتسمى بالإسلام» إنه ينعزل عن مركز الحكم ، يجلس بعيداً ولكنه لم يزل متصلاً برجال البلاط والأمراء ، يكتب إليهم الرسائل البليغة التي تسيل عذوبة ، وتشتعل ناراً في وقت واحد ، والتي تعتبر من أقوى الرسائل الدعوية والإصلاحية في المكتبة الإسلامية. إنه لم يزل يثير غيرتهم الإيمانية ويلهب فيهم: جمرة الإيمان التي كانت مدفونة تحت الرماد فيزيل عنها التراب ، فيقول للواحد منهم: «أنت مسلم والحياة عارضة ، والملك لا يعيش دائماً ، وهذا الحكم لا يدوم ، اتق الله في نفسك ، اتق الله في أمتك ، اتق الله في بلادك» هذا كان دأبه على مر الأيام حتى استطاع أن يجر إليه عدداً كبيراً من الأمراء والوزراء وكانت سياسة البلاد تمر بمرحلة دقيقة جدّاً ، لأنه إذا ثار ضد هذا الملك الجبار ، الملك الذي ارتد عن الإسلام ، وقد سمعنا قصة ارتداده وثورته على الإسلام ، فإن معنى ذلك أن هذه البلاد ستذهب إلى الهنادك ، فيستولون عليها لأنهم بالمرصاد ، فلم يوافق على أن

www.abulhasanalinadwi.org

يعارض الحكومة بالسيف ، لأن هذه الحكومة إذا ضعفت فمعنى ذلك أن الهنادك يستولون عليها ، وأنهم سيخلفون المسلمين ، فكان من الاحتياط ومن الحكمة وكان من السياسة ، ألا تضعف شوكة المسلمين المادية والعسكرية ، فاقتصر على الدعوة ، واقتصر على الرفق وعلى الحكمة .

فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه وخليفته نور الدين جهانكير وكان أحسن سيرة وأسلم عقيدة من أبيه الراحل .

فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه وخليفته نور الدين جهانكير وكان أحسن سيرة وأسلم عقيدة من أبيه الراحل .

طلب السلطان الإمام السرهندي إلى مقره ، وأكد على حاكم سرهند أن يوجهه إليه كيف ما استطاع ، فتوجه الإمام مع خمسة من أصحابه ومريديه ـ كانوا إذ ذاك عنده ـ ولما قرع سمع السلطان مجيء الإمام بعث الأمراء والأعيان ليستقبلوه في الطريق ونصب له خيمة بجوار قصره وطلبه في البلاط للمقابلة ، ولما دخل عليه في البلاط لم يأت بالآداب والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه ، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك[1] ، فسأله السلطان عن السَّبب ، فقال : «**إِنَّني لَمْ أَزَلْ مُتَقَيِّداً بالآدَابِ والأَحْكَامِ الَّتِيْ دَعَا إِلَيْهَا اللهُ وَرَسُوْلُهُ ـ ﷺ ـ وَلاَ أَعْرِفُ غَيْرَ هَذِهِ الآدَابِ** ، فغضب السلطان وقال : «**اسْجُدْ لِيْ**»[2] ، فقال الإمام : **مَا سَجَدْتُ لِغَيْرِ اللهِ قَطُّ ، وَلَنْ أَسْجُدَ لِغَيْرِهِ أَبَداً**» ، فتغيظ السلطان وزاد غضبه وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة «كواليار»[3] .

---

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد الملك أكبر ، وكانت تعد من التأدب بالأداب الملوكية وكانت على ثلاثة أصناف ، أولها الكورنش وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأطىء رأسه إلى الصدر ، وثانيها التسليم وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس ، وثالثها السجدة كما يسجد في الصلاة .

(٢) حضرات القدس : ص ١١٧ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١١٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

لقد كانت هذه الإقامة الجبرية في سجن كواليار تنطوي على حكم ومصالح دينية كثيرة تسبب له الحب والقبول في الناس وتزيده زكاء نفس وسمو روح ، وإشراق باطن ، فشمر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجد والاجتهاد في الدعوة والإرشاد في أولئك المسجونين الذين كانوا معه ، ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] مما اهتزت له أركان القلعة وارتجت الجدران ، وسمع صداه في الخارج ، يذكر بعض المؤرخين أن آلافاً من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه ، ودخلوا بصحبته وتربيته وإرشاده ودعوته في الإسلام ، وإن مئات من السجناء والمسلمين تابوا على يديه وبايعوه وتمتعوا بصحبته[1] حتى بلغوا درجات الإحسان .

كان لمرافقته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة في الملك جهانكير وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر الإسلام فيها[2] فقد أمر ببناء أول مسجد في القلعة وذبح البقرة ، وهو يدل على حدوث التحول والتقدم في التدين الذي يمكن معه القول بأنه كان فيضاً من فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته .

ولم يزل الشيخ مذكراً للملك وناصحاً ومشجعاً يرشده ويوجهه ويراسله ، وقد طلب مرة من أمرائه أن يرشح له عدداً من العلماء يذاكرهم في الأمور الدينية ، فلما علم الشيخ بذلك قال : لا : إن العلماء إذا اجتمعوا فإنهم يتنافسون ويتناظرون ، فهذا يفسد الملك ، وهذا الذي حدث في العهد السابق وأضر بالإسلام ، رجل زاهد في الدنيا ، متعمق في الدين

---

(١) كتاب Preaching of Islam (الدعوة إلى الإسلام) لمؤلفه البروفيسور آرنلد Arnold ص ٤١٢ الطبعة الثالثة . «دائرة معارف الأخلاق والديانات» ص ٧٤٨ ج٨ .

(٢) انظر «نزك جهانكيري» ص ٣٤٠ وراجع للتفصيل الباب السابع منه وليلاحظ أن هذه القلعة كانت قد فتحت على يد قائد هندكي .

www.abulhasanalinadwi.org

راسخ في العلم ، أفضل من أن يختار عدد من العلماء ، وهم يتصارعون ويتناظرون ويظهرون براعتهم وحذقهم ، وهذا لا أراه لك رأياً ، وكان كما قال ، ولم يزل نور الدين جهانكير يتدرج من صالح إلى أصلح ومن حسن إلى أحسن حتى محا كثيراً من أثار أبيه السيئة وأزال كثيراً من بدعه ومحاربته للإسلام.

خلف الملك نور الدين جهانكير نجله شهاب الدين الملقب بشاه جهان وهو الملك المسلم الخاشع لله ، وهو الذي لما تربع على عرش الطاوس الذي أنفق عيه الملايين نزل وخر لله ساجداً يثبت عبوديته وإسلامه ويحمد الله على الملك الذي آتاه ، ولم يزل الشيخ والحبل في يده فيقبضه ويرخيه ، إذا رأى من المصلحة أن يرخيه أرخاه ، وإذا رأى من المصلحة أن يجره جره.

وخلف الشيخ أحمد ابنه النجيب المتمم عمله والأمين على دعوته الشيخ محمد معصوم بن أحمد بن عبد الأحد السرهندي (١٠٠٧ ـ ١٠٧٩ هـ) وله فضل كبير في تربية السلطان «عالمكير» أورنك زيب بن شاهجان الذي يعد من أكبر ملوك المسلمين ، ليس في الهند فقط بل في تاريخ الإسلام (يعني بعد نور الدين وصلاح الدين وبعض ملوك المسلمين الصالحين) ، هو الذي دوّن «**الفتاوى الهندية**» وجعلها قانوناً للدولة ، وهو الذي طبق الأحكام الشرعية بدقة وعناية ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها ، وله عوائد والتزامات لا يقدر علهيا كثير من العلماء والعباد فضلاً عن الملوك والسلاطين ، هذا الرجل قلب تيار الحياة وأرسخ قواعد الإسلام في هذه البلاد وربط مصيرها بالمسلمين وبالعلم والدين وأزال خطر زوال الإسلام وجلاء المسلمين ، كما وقع في إسبانيا قبل قرنين ، وهذه ناحية من نواحي جهاد الشيخ أحمد وتجديده الأولى.

وبغض النظر عن حياة أورنك زيب الشخصية التي اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً ، متورعاً ، متمسكاً بالشريعة ، عاملاً بها ، محافظاً على نوافل الطاعات ، فضلاً عن الفرائض والواجبات ، نكتفي بما يتعلق

www.abulhasanalinadwi.org

بالسياسة الشرعية التي في مملكته الواسعة وتنظيم الشعائر الإسلامية وتنفيذ الأحكام الشرعية ، وبما له من أثر عميق في المجتمع الإسلامي الهندي والإصلاح الاجتماعي.

يقول المؤرخُ في حوادث العام الثاني من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ:

«أسِّسَ التقويمُ المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر عى أول «فروردي» التي تدخل فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع وكان تاريخ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءاً من شهر «فروردي» إلى شهر «اسفنديار»[١] ، وسمى الشهور «شهوراً إلهية» ، ولما كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عباد النار ، بدأ السلطان ـ مراعاة للشريعة الإسلامية ـ التقويم الهلالي العربي للشهور والسنين لجلوسه وإدارته ومهرجاناته ، وأمر بتقديم التقويم العربي الهلالي على التقويم الشمس ، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز.

ويعلم جميع الناس أن الشهور الهلالية تتغير دائماً ، وتحدث مشاكل وتعقيدات في استخدام التقويم الهلالي ، ولكن هذا السلطان المتدين لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، وينتهي عن الاحتفال بمهرجان «نوروز» لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس ـ أصلاً ـ وقرر بداية تاريخ الجلوس الثاني بغرة شهر رمضان ، وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس ، وأبدل مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر[٢].

ويذكر المؤرخ وقف السلطان للدخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غير شرعي ، فيقول: **«أمر السلطانُ بإلغاء «راهداري» ـ ضريبة الطريق ـ الذي كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور ، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة ، فكان دخلها ودخل خراج «بلغاري» الذي يسمَّى**

---

(١) وهما شهران في التقويم الإيراني القديم.

(٢) حضرات القدس ، ص ٨٣ ، ٨٤.

www.abulhasanalinadwi.org

«ته بازاري» يزيد على مئات الآلاف ويدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات والخمارات والغرامات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر وغير ذلك مما يبلغ الملايين من الروبيات ، وكان دخلاً كبيراً للدولة»[1] .

كانت الحسبة منصباً خطيراً في الحكومات الشرعية ، وشعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلامية ، وألف كثير من العلماء لبيان مسؤوليات هذه الوظيفة المهمة ونوعية العمل فيها كتباً بعنوان «الحسبة في الإسلام» وكانت هذه المهمة الخطيرة مهجورة معطلة في الحكومات المسلمة في الهند ، وأحيا السلطان هذه السنة أيضاً .

يقول المؤرخ :

«عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسباً ، وأمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرمات ، خاصة عن شرب الخمور ، وتناول الحشيش وجميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع المسيئات والمنكرات»[2] .

ويقول المؤرخ في حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨ هـ :

«كان السلطان يزداد ـ كل يوم ـ اهتماماً بإجراء الأحكام الشرعية وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر فرامين مفصلة للإلغاء دخل «راهداري» و«بانداري» الذي كان يبلغ مئات الآلاف من الروبيات كل عام ، وكان يدخل في الخزانة السلطانية ، وكان يأمر بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكامن الريبة والفساد»[3] .

---

(١) حضرات القدس : ص٩ .

(٢) حضرات القدس : ص ٩٢ ، ذكر مؤلف «نزهة الخواطر» اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية ، أن عالمكير نسخ عام ١٦٩هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب ، التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاثة ملايين روبية .

(٣) حضرات القدس : ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ باختصار .

www.abulhasanalinadwi.org

ويزيد قائلاً:

«أمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء ونهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورؤية طلعته من نافذة في أعلى القصر ـ وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة. ويُسمَّى «جهروكه درشن» وترك نفسه الجلوس على النافذة ، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية».

كان السلاطين المسلمون في الهند ـ حسب معتقدات الهنادك وعادتهم القديمة ـ يثقون كثيراً بالتنجيم والمنجمين ، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون في ضوء علم التنجيم ، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة ، وأهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها ، فعين السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية.

«الشعراء والمنجمون الذين كانت لهم مكانة واعتبار في الدولة ، (خاصة في عهد السلطان شاهجهان) منعوا من ممارسة أعمالهم وعين القضاة للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن والاستقلال في شؤونهم ما بعث الأمراء وأعيان الدولة على الغبطة والحسد»[1].

وأما الناحية الثانية من نواحي التجديد فقد عارض الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي البدع والعقائد الشركية والشعائر الجاهلية المجوسية والفلسفة اليونانية ، أشد المعارضة ، وهو الذي شن الحرب على فكرة وحدة الوجود التي كان لها سحر عجيب على العقول والنفوس ، ونفوذ عميق في العلوم والآداب ، وكون معسكراً كبيراً له قيمته وأهميته إزاء معسكر وحدة الوجود الذي كاد يكون المعسكر الوحيد في الهند وفي البلاد

---

(١) حضرات القدس ، ص ١٧ ـ ٢٧ ، وراجع كتاب كذلك (Aurangzeb His Age) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقي «أورنك زيب وعصره» الباب بعنوان A.Reformer.

www.abulhasanalinadwi.org

العجمية ، فعارض هذه الفكرة معارضة شديدة وحاربها حرباً شعواء لا هوادة فيها ولا رفق.

وأنا أقرأ لكم طرفاً من إحدى رسائله الخالدة على سبيل المثال:

كتب إليه أحد تلاميذه أن الشيخ عبد الكبير اليميني يعتقد أن الله سبحانه وتعالى يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، وهو من ضمن الأفكار والعقائد التي تسربت في المسلمين عن طريق الفلسفة اليونانية ، فكتب إليه يقول: **«يَا أخي ، إنِّي لاَ أَسْتَطِيْعُ أَنْ أَصْبِرَ عَلَى سَمَاعِ هَذِهِ الْخُرَافاتِ ، وإنَّ عَرَقِي الْعُمَرِيِّ يَنْبِضُ ، وإنَّ الدَّمَ الْفَارُوْقِيَّ الَّذي يَجْرِي فِيْهِ يَفُوْرُ»**[1] كان قائل هذا عبد الكبير اليمني أو الشيخ ابن عربي الطائي ، إن الفتوحات المدنية[2] أغنتنا عن الفتوحات المكية[3] ، **نَحْنُ نُرِيْدُ مُحمَّد العَرَبي ، لا الشَّيْخ ابْن عَرَبيُ ، إنَّنَا مِنْ أَتْبَاعِ النُّصُوْصِ[4] لاَ الْفُصُوْصِ»**[5]. هذا مثال من الأمثلة الكثيرة.

والواقع أن عمله التجديدي الأساسي الذي تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، ومنبعه الأصيل الذي تتفجر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية وجهوده الثورية ، وتتحول إلى نهر يجري في العالم الإسلامي كله ، هو ذلك العمل الإصلاحي العظيم الذي تجلى في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة.

ويقول هو نفسه في رسالة وجهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله وهو يصور هذا الوضع المكفهر:

---

(١) لا يُنسى أن الشيخ أحمد ينتهي نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

(٢) يعني التعليمات النبوية والأحاديث الصحيحة.

(٣) كتاب مشهور للشيخ ابن عربي.

(٤) يعني نصوص الكتاب والسنة.

(٥) يُشير إلى فصوص الحكم للشيخ ابن عربي وهو يتضمن الشيء الكثير من مثل هذه الأقوال.

www.abulhasanalinadwi.org

«لَقَدْ كَثُرَتِ الْبِدَعُ والمُحْدَثاتُ في هَذِهِ الأَيَّام كَثْرَةً فَاحِشةً ، حَتَّى لِيُخَيَّلَ للنَّاظِرِ أَنَّ بَحْراً من الظُّلماتِ تَتَلاطَمُ أَمْوَاجُهُ ، وَأَنَّ نُورَ السُّنَّة في هَذَا الْبَحْرِ الْهَائِجِ الْمَائِجِ يَتَلأْلأُ تَلأْلُؤَ يَرَاعاتٍ مُنْتَشِرةٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيْمِ» .

لقد كان معين الإسلام الصافي في الهند ـ التي لم يزل أساس الإسلام فيها ضعيفاً لأسباب وعوامل تاريخية مختلفة ، وكانت موطن شعوب مشركة وديانات وثنية ـ تتسرب إليه المخلفات والرواسب من الديانات السائدة ، وكان يخشى أن يغيب هذا الينبوع في الظلمات المتراكمة ، حتى يضل الخِرِّيت[1] ويحار الدليل .

ولذلك لما بدأ الإمام السرهندي رحلته التجديدية وكانت أول خطوة خطاها على طريق الأنبياء وعلى نفس المنهج الذي سار عليه الرسل ، هي الخطوة نحو إصلاح العقائد وتصحيح الاتجاه ، فقد كان إباؤه عن سجدة التحية أمام السلطان جهانكير ورفضه لهذه البدعة الشنيعة عنواناً لامعاً في تاريخ إصلاحه وتجديده ، وقد تناول في رسائله التي وجهها إلى مختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوب واضح مبين ، وعبارات موجزة جامعة رصينة ، وقدم دلائل وبراهين على وحدانية الله ـ تعالى ـ وأنه هو المستحق للعبادة وحده ، بأسلوب يدل على رسوخه وعلو كعبه في هذا العلم ، وقام يدحض الشرك ومظاهره وتقاليده ونهى أصحابه وأتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشركية والعادات الجاهلية وتقاليد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ، إذ إنه لا بداية لعمل الإصلاح والتجديد إلا به فضلاً عن نهايته وكماله .

وهن مقتطفات من رسالة مسهبة كتبها إلى امرأة صالحة بايعته وتابت على يده . وقد تضمنت هذه الرسالة الرد على عامة ما يبتلى به الجهلاء من المشركين خصوصاً النساء منهم ، يقول فيها :

«إنَّ تَعْظِيْمَ مَظاهِرُ الشِّرْكِ ، وأَعْيَادِ الْجَاهِلِيَّة مِنْ أَعْظمِ أَنْواعِ الإِشْراكِ باللهِ

---

(١) الخِرِّيت : كسكِّيت ، الدليل الحاذق .

www.abulhasanalinadwi.org

ـ عَزَّ وجلَّ ـ وَإِنَّ مَنْ يَعْتَقِدْ بصحَّة دِيْنَيْنِ وصَلاَحِيتِهَما في وَقْتٍ وَاحِدٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ ، وإنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِأَحْكَام الإسْلاَم وأعْمَالِ الْكُفْرِ والشِّرْكِ فَهُوَ مُشْرِكٌ ، وَلاَ يَتِمَ الإسْلاَمُ إلاَّ بالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ ومُحَادَتِهِ ومُعَادَاتِهِ.

إنَّ التَّوْحِيْدَ هُوَ الاشْمِئْزَازُ والنُّفُوْرُ مِنْ كُلِّ شائِبَةٍ مِن شَوَائِبِ الشِّرْكِ».

ويقول رحمه الله: «إنَّ الاسْتِعَانَةَ بالطَّواغِيْتِ والأَصْنَام في دَفْع الأَمْرَاضِ ، وشَفَاءِ الأَسْقَام ـ الَّتِي رَاجَتْ في الْمُسْلِميْنَ وعَمَّتْ في دَهْمَائِهِمْ ـ عَيْنُ الشِّرْكِ والضَّلالِ ، وإنَّ طَلْبَ قَضَاءِ الْحَاجَاتِ مِنْ الأَحْجَارِ الْمَنْحُوتَةِ جَحَوْدٌ صَرِيْحٌ باللهِ ـ تعالى ـ وعَيْنُ الْكُفْرِ ، يَقُوْلُ اللهُ ـ تَبَارَكَ وتَعَالَى ـ مُبَيِّناً حَالَ بَعْضِ الْغُوَاةِ الضَّالِّيْنَ:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ .

وإن كثيراً من النساء ـ لغاية جهلهن وضلالهن ـ يطلبن قضاء حوائجهن من غير الله ويسألن بأسماء ما أنزل بها من سلطان دفع البليات وكشف الكربات ، إنهن لأسيرات في أغلال الشرك وطقوسه وتقاليده.

وتتجلى هذه العقائد الشركية وتشاهد هذه الأعمال وتقاليد الجاهلية ـ بصفة خاصة ـ عندما ينتشر مرض الجدري (الذي يعرف في أوساط النساء في الهند باسم «سيتله»[(١)]) حيث تقع جميع النساء في الجهل المطبق ، والكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركية ، وقلما تجد امرأة تتقي دقائق هذا الشرك ، ولا تُقدم على أي نوع من أنواع الشرك بهذه المناسبة ، **اللَّهُمَّ إلاَّ مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ**».

وقد كانت أكبر أغلوطة في هذا الصدد ، أغلوطة البدعة الحسنة ، فكان الناس قسموا البدعة قسمين: البدعة السيئة ، والبدعة الحسنة ، وكانوا

---

(١) اسم إلهة من الإلهات المفروضة المتخيلة عند وثني الهند ، يعتقدون أنها تسبب الجدري ، ولا يرتفع هذا الوباء ، ولا يشفى المريض إلا إذا أرضيت هذه الآلهة بالنذور والقرابين.

www.abulhasanalinadwi.org

يقولون: إنه ليس كل بدعة سيئة فكثير من البدع حسنة ، استثنيت من إطلاق حديث «كُلُّ بِدْعَةٌ ضَلاَلَةٌ».

إن ما قام به الإمام السرهندي من معارضة شديدة واستنكار قوي لهذا التقسيم المحدث للبدعة الحسنة والبدعة السيئة في ثقة وقوة واعتماد وبأسلوب علمي واستذلال موضوعي ، لا يوجد له نظير في كثير من الأقطار والأدوار في تاريخ الإصلاح الديني.

وهكذا استطاع أن يعيد إلى الإسلام مركزه من جديد في الهند ، ويعيد إلى السنة اعتبارها ويعيد في المسلمين الثقة بالمصادر الصحيحة وبالكتاب والسنة ، وأن يكون للإسلام انتفاضة في الأقطار الإسلامية من شبه القارة الهندية إلى أفغانستان وتركستان ، إلى العراق وسوريا وتركيا ، وينهض جيل جديد من دعاة الإسلام الصحيح والعقيدة السليمة البعيدة من شوائب الفلسفات والانحرافات وتأثير الديانات والحضارات الجاهلية ، ونشأت جبهة قوية واعية لمعارضة البدع والمحدثات ، ودعوة سافرة إلى العمل بالشريعة المطهرة والسنة السنية البيضاء ، وإقبال عام على الإنابة إلى الله وتزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتجديد صلة العبودية بالله تعالى في ضوء الكتاب والسنة.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الدَّعوة إلى الله حماية المجتمع من الجاهليَّة وصِيانة الدِّين من التَّحريف[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإنني سأتحدث في هذه المناسبة الكريمة وهي **«دورة مؤتمر الدَّعوة»** التي تعقدها الجامعة الإسلامية في مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ومنطلق الدعاة إلى الله في مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ونطلق الدعاة إلى الله في العالم **«المدينة المنورة»** عن بعض السمات البارزة التي يجب أن تتسم بها الدعوة والدعاة في هذا العصر حتى يستطيعوا أن يقوموا بدور الدعوة في أتم وجه ويبلغوا رسالة الرسل عليهم السلام ويؤثروا التأثير المطلوب.

أما الدعوة الإسلامية فيجب أن تكون هذه الدعوة جامعة بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطبين والمجتمع الإسلامي، وإثارة الشعور الديني، وبين إكمال الوعي وتنميته وتربيته، فإن المتتبع لأحوال العالم الإسلامي اليوم وواقع الأقطار الإسلامية وحكوماتها وشعوبها يعرف أن تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وحبها له هو الحاجز السميك والسد المنيع لكثير من القيادات التي خضعتْ للحضارة الغربية وقيمتها ومفاهيمها، وفلسفاتها ونظمها، وآمنت بها إيماناً كإيمان المتدينين

---

(١) ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في مؤتمر الدعوة الإسلامية الذي انعقد في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

www.abulhasanalinadwi.org

بالديانات والمؤمنين بالشرائع السماوية ، وفقدت الثقة بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث وتطوراته وأحداثه ، وكرسالة خالدة عالمية ، فإسلام هذه الشعوب والمجتمعات ، وكونها لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ولا تندفع إلا لما يجيء عن طريقهما ، ولما يمس قلبها ويخاطب ضميرها ، يعوق كثيراً من هذه القيادات عن نبذ الإسلام نبذاً كلياً وإعلان الحرب عليه ، وقد لجأ بعض هذه القيادات في ساعات عصية إلى إثارة هذا الإيمان والحماس الديني ، واستخدامهما لكسب المعركة أو الانتصار على العدو حين رأتْ أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وإلى إيمان هذه الشعوب السليمة المؤمنة ، فرفعتْ هتاف التكبير «الجهاد» و«الشهادة» في سبيل الله ، ومحاربة العدو الكافر المهاجم كما فعلت الجزائر في حربها مع الفرنسيين وباكستان في حرب ١٩٦٥ م ، وجربت فائدة هذه الإيمان وقوة هذه العاطفة .

فأصبح إيمان هذه الشعوب وتمسكها بالإسلام وتحمسها له ، هو السور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثير من القيادات والحكومات الإسلامية في حظيرة الإسلام ، إذا تهدم هذا السور ـ لا سمح الله بذلك ـ أو تسوره دعاة الكفر واللادينية ، أو تيار الردة الفكرية والحضارية فالخطر كل الخطر على الإسلام في هذه البلاد ، ولا يمنع هؤلاء القادة المحاربين للإسلام ، والمضمرين له العداء والحقد شيء من أن يخلعوا العذار ويطرحوا الحشمة والتكلف ، ويجردوا هذه الأقطار والشعوب العريقة في الإسلام من كل ما يمت إلى الإسلام بصلة ، فإن الشيء الوحيد الذي يخافون معرته ، ويحسبون له حساباً هو ثورة هذه الشعوب على هذه القيادات بدافع الإيمان والحماس الإسلامي ، فيفقدهم ذلك ما يتمتعون به من كراسي الحكم ومركز القيادة ، فإذا زال الحاجز لم يقف في وجههم شيء .

إذن فيجب على دعاة الإسلام والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية الاحتفاظ بهذه البقية الباقية من الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير ، والمحافظة على الجمرة الإيمانية من أن لا تنطفىء .

www.abulhasanalinadwi.org

ولا يصح الاقتصار على تحريك الإيمان ، وإثارة العاطفة الدينية في نفس الشعوب والجماهير ، بل يجب أن تضم إليه تنمية الوعي الصحيح وتربيته والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، فقد رأينا أن الشعوب التي يضعف فيها هذا الوعي أو تحرمه يتسلط عليها ـ رغم تمسكها بالإسلام وحبها له ـ قائد منافق ، أو زعيم ماكر أو عدو جبار ، فيصفق له الشعب بكل حرارة ويسير في ركابه فيسوقها بالعصا سوق الراعي لقطعان من الغنم ، ولا تعقل ولا تملك من أمرها شيئاً ، ولا يمنعها تمسكها بالإسلام وحبها له من أن تكون فريسة سهلة أو لقمة سائغة للقيادات اللادينية أو المؤامرات ضد الإسلام.

وقد كان ما يمتاز به المجتمع الإسلامي الأول المثالي الصحابةُ رضي الله عنهم بفضل التربية النبوية الدقيقة الشاملة بالجمع بين الدين المتين الذي لا مغمزَ فيه ، والإيمان القوي الذي لا يعتريْه وهن ، وبين الوعي الناضج الكامل ، فكانوا لا يخدعون ولا ينخدعون ، ولا يسيغون شيئاً ينافي الإسلام وينافي العقل ، والذي يضرهم ويجني عليهم ، أو يوقعهم في خطر أو تهلكة ، قد بلغوا من الرشد واستكملوا الحصافة والنضج ، فلا يؤخذون على غرة ولا يقعون في شرك ينصبه العدو الماكر يخطئون ولكن لا يصرون ، ولا تتكرر منهم غلطات وتورطات ، وقد جاء في حديث صحيح «**لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ واحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[1] بخلاف الشعوب الفاقدة الوعي فهي تلدغ مرة بعد مرة ، وذلك لأن رسول الله ﷺ أخذهم بتربية وتعاليم أمنوا بها عن الوقوع في الشباك ، وامتنعوا بها عن قبول ما لا يتفق مع تعاليم الإسلام ، وآدابه والفطر السليمة والعقول المستقيمة ، فكان مجتمعاً نموذجاً مثالياً في كل شيء.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الأدب ، باب لا يلدغ المؤمن . . . ، رقم الحديث (٦١٣٣).

www.abulhasanalinadwi.org

أعرض لكم ـ على سبيل المثال ـ مثالين من هذا العقل الحصيف والوعي الكامل:

الأول أن النبي ﷺ قَالَ مرة: «أُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوْماً»[1] وهو مثلٌ جاهليٌّ قديمٌ وعرف من أعراف العرب الأولين، تمسك به العرب في جاهليتهم كما قال العلاَّمة الحافظ بن حجر في شرح هذا الحديث في كتابه الجليل «فتحُ الباري» فكان المتوقع المعقول أن يتلقاه الصحابة ـ وقد نشأوا في الجاهلية وعاشوا في الجزيرة ـ إما بالقبول وإما بالسكوت.

وقد صدر هذا الكلام من النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الْهَوَى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] وقد عرف حبهم لنبيهم ﷺ وفداؤهم له بالنفس، والنفيس، وكان حباً لا نظير له في تاريخ الديانات والرسالات، وفي تاريخ الحب والطاعة العالمي، وكان تفسيراً للحديث المشهور «لا يُؤْمنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِه وَ النَّاسِ أَجْمَعِيْنَ»[2] وجاء في بعض الروايات «مِنْ نَفْسِهِ»، ولكن كل ذلك لم يمنعهم عن التساؤل أو الاستيضاح فإن ظاهر الكلام كان ينافي ما فهموه من تعليم الإسلام وما شاهدوه من تربية الرسول وأخلاقه، وما آمنوا به من منبدأ الإنصاف والمساواة وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فقالوا: يَا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه، رقم الحديث (٦٩٥٢)، وفي كتاب المظالم، باب أَعِنْ أخاك... رقم الحديث (٢٤٤٣) و(٢٤٤٤)، والترمذي في باب انصر أخاك ظالماً ومظلوماً، رقم الحديث (٢٢٥٥)، وأبو يعلى (٣٨٣٨) والطبراني في الصغير (١/ ٢٠٨) وابن حبان (٥١٦٧) والبيهقي (٦/ ٩٤) و(١٠/ ٩٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ...، رقم الحديث (٧٠)، والنسائي في كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان، رقم الحديث (٥٠١٧).

www.abulhasanalinadwi.org

رَسُوْلَ اللهِ ، «هَذَا نَصَرْتُهُ مَظْلُوماً فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِماً» هنالك فسَّره رسولُ الله ﷺ تفسيراً يتَّفقُ مع تعاليمه السابقة الدائمةِ فقال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَذَاكَ نُصْرُكَ إِيَّاهُ» هنالك اقتنع الصحابة رضي الله عنهم ، وشفيتْ صدورهم ، فازدادوا إيماناً على إيمان ، وهو مثالٌ بليغٌ رائعٌ من أمثلة الوعي الإيماني العقلي الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصدر الأول .

والمثال الثاني أن رسول الله ﷺ أرسلَ سريةً ، وأمر الصحابةَ بطاعةِ الأمير ، وقد كان في هذه السرية ما لم يرضَ الأمير ، وشك في انقيادهم له فأمر بالحطب ، فجمع ، وأمر بالنار فأشعلتْ ، ثم قال: خوضوها ، فامتنع الصحابة رضي الله عنهم عن طاعته في ذلك ، لأنه «لا طَاعَةَ لِمَخْلُوْقٍ في مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ» وقالوا إنما فررنا من النار ، ولما رجع إلى المدينة شكا إلى رسول الله ﷺ فصوب فعلهم ، وقال: «لَوْ دَخَلُوا فِيْهَا لَمْ يَزَالُوْا فِيْهَا ، وَقَالَ: لاَ طَاعَةَ في مَعْصِيَةِ اللهِ ، إِنَّما الطَّاعَةُ في الْمَعْرُوفِ»[1] .

وكانت نتيجة ضعف بعض الشعوب المسلمة القوية في إيمانها ، الغنية في مظاهرها الإيمانية ومراكزها الدينية وثروتها العلمية ، أنها كانت فريسة سهلة للهتافات الجاهلية والنعرات القومية أو العصبيات اللغوية والثقافية ، ولعبة القيادات الداهية والمؤامرات الأجنبية ، وذهبَت ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني ، والعقل الإيماني كما وَقَعَ في «باكستان الشرقية»[2] في ١٩٧١ م ، المصادفة ١٣٩١ هـ قامتْ فيها مجزرةٌ إنسانيةٌ هائلة ، وما ذلك إلا بسحر دعوات العصبية اللغوية والعصبية الوطنية على هذا الشعب المسلم ، المؤمن الذي كان له تاريخ مجيد في البطولات الإسلامية وخدمة الإسلام والعلم ، ونهض فيه علماء كبار ودعاة إلى الله ، وغصتْ بلادها بالمساجد والمدارس وكانت عاصفة هوجاء هبتْ ثم ركدتْ ، ونار حامية التهبتْ ثم انطفأتْ ، ولكنها زلزلتْ أركان الإسلام في

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب في الطاعة ، رقم الحديث (٢٦٢٥) .

(٢) التي انفصلت عن باكستان عام ١٩٧١م ، وأصبحت دولة مستقلّة تعرف اليوم بـ «بنغله ديش» .

www.abulhasanalinadwi.org

هذه المنطقة ، وأضعفت الكيان الإسلامي ، وكانت حجة لأعداء الإسلام الذين يقولون إن الإسلام لا يستطيع أن يقاوم العصبيات القومية ولا يقتلع جذورها من نفوس أتباعه.

وواجب ثالث مقدس من واجبات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية هو صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية المغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصة ، وبيئات مختلفة ولها خلفيات وعوامل وتاريخ ، وهي خاضعة دائماً للتطور والتغيير فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض والكرامات بل أكثر منها وأشد ، لأنها حصون الإسلام المنيعة وحماه وشعائره ، وإخضاعها للتصورات الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان ، وإضعاف لها لا تقوية ، وتعريض للخطر لا حصانة ، ونزل بها إلى المستوى الواطئي المنخفض لا رفع نشأتها كما يتصور كثير من الناس. فإذا قلنا: الحج مؤتمر إسلامي عالمي ، لم ننصف للحج ولم ننصف لمن نخاطبه ونريد أن نفهمه حقيقة الحج وروحه ، ولما شرع له ولم ننصح لكليهما ، وأن روح الحج وسر تشريعه غير ما تعقد له المؤتمرات صباح مساء ، ولو كان الحج مؤتمراً إسلامياً عالمياً لكان له شأن ونظام غير هذا النظام ، وجو غير هذا الجو ، ولكان النداء له مقصوراً على طبقات مثقفة واعية فقط وعلى قادة الرأي وزعماء المسلمين[1].

كذلك حقيقة العبادة وحقيقة الصلاة ، وحقيقة الزكاة والصوم. فلا يجوز العبث بهذه المصطلحات والتجني عليها ، وإخضاعها للفلسفات الجديدة وتفسيرها بالشيء الذي لا ثقة به ولا قرار به ولا قرار له ، وقد استخدمتْ هذه «الاستراتجية الدعائية» الباطنية في القرن الخامس الهجري فما بعده ، ففسروا المصطلحات الدينية بما شاؤوا وشاءت أهواؤهم

---

(١) راجع معرفة أسرار الحج ومقاصد الشريعة الإسلامية فيه في كتاب العلاَّمة الندوي «الأركان الأربعة» طبع دار ابن كثير ، دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

ومصالحهم وتفننوا فيه ، وأتوا بالعجب العجاب ، وحققوا به غرضهم من إزالة الثقة بهذه الكلمات المتواترة التي هي أسوار الشريعة الإسلامية وحصونها ، وشعائرها ، ونشر الفوضى في المجتمع الإسلامي ، والجماهير المسلمة ، وإذا فقدتْ هذه الكلمات التي توارثتْ فهمها الأجيال المسلمة وتواتر في المسلمين ، وأصبح فيها مساغ لكل داع إلى نحلة جديدة ، ورأى شاذ وقول طريف ، فقد أصبحتْ قلعة الإسلام مفتوحة لكل مهاجم ولكل منافق ، وزالتْ الثقة بالقرآن والحديث واللغة العربية ، وجاز لكل قائل أن يقول ما شاء ويدعو إلى ما شاء ، وهذه فتنة لا تساويها فتنة وخطر لا يكافئه خطر .

إن مفاهيم هذه الكلمة معينة ـ على اتساعها وبلاغتها وعمقها وكثرة معانيها ـ وإن الأمة توارثتْ هذه المفاهيم المعينة كما توارثتْ أشكال الصلاة والصوم والحج ونظمها الظاهرة ، وتناقلتها وحافظتْ عليها من غير أقل انقطاع أو أقصر فترة ، وإنه معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] و﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] وهو معنى الحديث المشهور الذي صح معناه لا تجتمع أمتي على الضلالة[1] وقد أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية أن سنة واحدة من السنن الكثيرة لم ترتفع من هذه الأمة بشكل كلي ، وأنها «ولا تَـزَالُ طَائِفَـةٌ مِنْ أُمَّتِـي ظَـاهِرِينَ عَلَى الْحَـقِّ»[2] .

والكلمات هي الوسيلة الوحيدة لنقل المعاني والحقائق من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ، ومن إنسان إلى إنسان ، فإذا وقع الشك في مدلول هذه الكلمات ومصداقها ، أو صار التلاعب بها هيناً اضطربت دعائم

---

(١) انظر البحث في هذا الحديث في محاضرة العلامة الندوي في كتاب «محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» للعلامة الندوي بعنوان «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» ، ج٣ ، ص ٦ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة . . . ، رقم الحديث (١٩٢٠) .

www.abulhasanalinadwi.org

الدين وتزلزلتْ أركانه ، وهذا يعم التاريخ والشعر والأدب ، لذلك كانتْ الفوضى اللغوية (Linguistic Anarchy) أشدَّ خطراً وأكثر ضرراً من الفوضى السياسية Political Anarchy)[1].

وليستْ قضية الأسماء والمصطلحات من البساطة بالمكان الذي يتصوره كثير من الناس، فإنها تؤثر في النفس تأثيراً خاصاً ، وتثير معاني وأحاسيس ذات الصلة بالماضي وذات الصلة بالعقائد والأعراف أحياناً، ولذلك كره رسول الله ﷺ أن يقال «العتمة» مكان العشاء و«يوم العروبة» بدل الجمعة ، واستبدال كلمة يثرب بمدينة الرسول أو بالمدينة، ولها أمثلة أخرى في الشريعة الإسلامية.

وكذلك أحذركم أيها الإخوان مما لوحظ من بعض الكتاب من الضغط على أن هذه الأركان الدينية وفرائض الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج وسائل لا غايات ، إنما شرعت لإقامة الحكم الإسلامي وتنظيم المجتمع المسلم ، وتقويته ، وأحذركم من كل ما يحط من شأن روح العبادة والصلة بين العبد وربه وامتثال الأمر ، ومن التوسع في بيان فوائدها الخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أحياناً ، توسعاً يخيل للمخاطب أو القارىء أنها أساليب تربوية أو عسكرية أو تنظيمية ، قيمتها ما يعود منها على المجتمع من قوة ونظام أو صحة بدنية وفوائد طبية فإن أول أضرار هذا الأسلوب من التفكير أو التفسير أنه يفقد هذه العبادات قيمتهما وقوتها وهو امتثال أمر الله وطلب رضاه بذلك ، والإيمان والاحتساب

---

(١) ومن أمثلة هذا التلاعب بالمصطلحات الدينية ، أن استاذاً في إحدى جامعات الهند الكبرى ، وهو يدرس اللغة العربية وآدابها ، ألقى محاضرة في دورة مؤتمر الدراسات الإسلامية الأخيرة قال فيها: إن المراد بكلمة «الصلاة» حيثما وردت في القرآن مطلقة «الحكومة المحلية» أو «الإقليمية» والمراد بالصلاة الوسطى «الحكومة المركزية» أو «الخلافة العامة» وكان المقال باللغة العربية ، وقد رددت عليه في حينه وقلت: في تعليقي عليه: إنه تلاعب بالقرآن وبالعقل وتمهيد لفوضى لغوية فكرية ، وفتح الباب للإلحاد على مصراعيه ، ونالت هذه الكلمة رضا المستمعين وتلقوها بالقبول والاستحسان ، (العلاَّمة الندوي).

www.abulhasanalinadwi.org

والقرب عند الله تعالى ، وهي خسارة عظيمة لا تعوض بأي فائدة ، وفراغ لا يملأ بأي شيء في الدنيا.

والضرر الثاني أنه لو توصل أحد المشرعين أو الحكماء المربين إلى أساليب أخرى قد تكون أنفع أو يخيل أنها أنفع لتحقيق هذه الأغراض الاجتماعية أو التنظيمية أو الطبية لاستغنى كثير من الذين آمنوا بهذه الفوائد عن الأركان والعبادات الشرعية ، وتمسكوا بهذه الأساليب أو التجارب الجديدة ، وبذلك يكون الدين دائماً معرضاً للخطر ولعبة للعابثين والمحرفين.

وهذا لا ينافي الغوص في أعماق هذه الأركان والأحكام والحقائق الدينية ، والكشف عن أسرارها وفوائدها الاجتماعية ، وقد أفاض علماء الإسلام قديماً وحديثاً في بيان مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرار العبادات والفرائض والأحكام الشرعية ، وألفوا كتباً مستقلة وكتبوا بحوثاً جليلة ، كالغزالي والخطابي ، وعز الدين بن عبد السلام ، وابن قيم الجوزية ، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، ولكن كل ذلك من غير تحريف لحقيقة هذه العبادات والأحكام والغاية الأولى التي شرعت لها ، وهي امتثال الأمر الإلهي ، والتقرب إليه بذلك والإيمان والاحتساب فيها ومن غير إخضاع لها للفلسفات العجمية أو الأجنبية في عصرهم ، ومن غير خضوع بسحرها وبريقها.

وأحذركم ثانياً أيها الشباب من كل ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية والشرك الجلي من عبادة غير الله والسجود له وتقديم النذور والقرابين ، وإشراكه في صفات الله من قدرة وعلم وتصرف وإماتة وإحياء ، وإسعاد وإشقاء ، وأحذركم من الاكتفاء بالتركيز على شناعة الخضوع للحكومات والنظم الإنسانية والتشيعات البشرية ، وتحويل حق التشريع للإنسان ، وأن ذلك هو وحده عبادة الطاغوت والشرك ، وأن الوثنية الأولى وعبادة غير الله قد فقدت أهميتها ، وإنما كانت لها الأهمية في العصر القديم ، العصر البدائي ، وأنه لا يقبل عليها الآن إلا الرجل الجاهل الذي لا ثقافة له ،

www.abulhasanalinadwi.org

ففضلاً عن أن هذه الوثنية والشك الجلي لا يزال له شيوع وانتشار ، ودولة وصولة يجربه كل إنسان في كل زمان ومكان ، فإنها الغاية الأولى التي بعث لها الأنبياء وأنزلت لها الكتب السماوية ، وقامت لها سوق الجنة والنار ، وكانت دعوة جميع الأنبياء تنطلق من هذه النقطة ، وكانت جهودهم مركزة على محاربة هذه الجاهلية ، والقرآن مملوء بذلك بحيث لا يقبل تأويلاً[1] .

وإن كل ما يقلل من أهمية محاربة الشرك الجلي وعبادة غير الله سواءا كانوا أشخاصاً أو أرواحاً ، أو ضرايح ومشاهد ، والعناية بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات فحسب إحباط لجهود الأنبياء واتجاه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسي ، وهو تحريف لا محالة ، هذا من غير أن أقلل من قيمة التركيز على أن التشريع لله وحده ، وله الحكم والأمر وحده ، وأن من يدعو إلى طاعة نفسه الطاعة المطلقة العمياء منافس للرب والطاغوت ، وأنه يجب أن يدعى إلى التشريع الإلهي وإلى إقامة الحكم الإسلامي القائم على منهاج الكتاب والسنة ومنهاج الخلافة الراشدة ، وأن لا يدخر سعيٌ في ذلك ، ولكن من غير أن يكون ذلك على حساب الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، ومحاربة الوثنية والشرك ، فإنها لا تزال في الدرجة الأولى وهي أكثر انتشاراً ، وأعظم خطراً في الدنيا والآخرة ، فقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ و﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ وقد قال ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ .

أما ما يتصل بصفات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية وجنود الدعوة إلى الله ، فإنني أركز في هذا الحديث المعجز على نقطة واحدة ، وهو أنه يجب أن يكون الدعاة يمتازون عن الدهماء والجماهير ، ودعاة النظم الجديدة والفلسفات الجديدة ، والفلسفات السياسية والاقتصادية بقوة

---

(١) اقرأ على سبيل المثال سورة «الأعراف» وسورة «هود» وسورة «الشعراء» والحديث عن كل نبي ودعوته .

www.abulhasanalinadwi.org

إيمانهم وحرارة قلوبهم ، وزهدهم في زخارف الدنيا وفضول العيش ونهامة للمادية ، ومرض التكاثر ، فإنهم لا يستطيعون أن يؤثروا فيمن يخاطبونهم ، ويحملون على إيثار الدين على الدنيا والآجلة على العاجلة ، وتلبية نداء الضمير والإيمان على نداء المعدة والنفس والشهوات ، وإشعال مجامر قلوبهم التي انطفأت أو كادت تنطفىء ، إلا إذا شعر الناس فيهم بشيء لا يجدونه في قلوبهم وحياتهم ، فإن الناس ما زالوا ولا يزالون مفطورين على الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القوى ، والفقير مفطور على احترام الغني ، والأمي مفطور على احترام العالم. حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم ، أما إذا رأى الناس علماء ودعاة لا يقلون في حب المادة والجري وراءها والتنافس في الوظائف والمناصب والإكثار من الثراء والرخاء ، والتوسع في المطاعم والمشارب ، وخفض العيش ولين الحياة ، فإنهم لا يرون لهم فضلاً عليهم وحقاً في الدعوة إلى الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والتمرد على الشهوات ، والتماسك أمام المغريات ، وقد قيل «إِنَّ فَاقِدَ الشَّيء لا يُعْطِيْهِ» وكذلك القلب الخاوي لا يملأ قلباً آخر بالإيمان والحنان ، وأن الموت لا ينشىء الحياة. وأن البرودة لا تعطي الحرارة ، وأن الرماد الذي لا تكمن فيه جمرة لا يلهب القلوب الخامدة ولا يحي النفوس الميت ، والكشاف لا ينير الطريق إذا كانت قد نفدت شحنته ، فلا بد أن تشحن القلوب بشحنة جديدة ، وإذا كانت بطارية من غير شحنة كانت أقل غناء وقيمة من عصا يحملها الإنسان ، فقيمة البطارية الشحنة وقيمة الشحنة النور ، فإذا لم تكن شحنة أو كانت شحنة ولا نور فالعصا خير منه.

أسألكم أيها الإخوان أليس هذا العصر هو العصر الذي انتشر فيه العلم وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية ، وازدهرت فيه الخطابة والكتابة ، وبلغت حد الشعر والسحر ، وعمت الجامعات في كل مكان ، وتدفق السيل من المطبوعات والمنشورات من المطابع ودور النشر ، ونبغ فيها علماء وباحثون ووعاظ ومرشدون ، فلماذا فقد العلماء والموجهون التأثير في النفوس والقلوب في صد تيار المادية والاستغلال والجشع والنهامة للمال؟

www.abulhasanalinadwi.org

هذه البلاد العربية ـ بما فيها البلاد المقدسة ـ أصبحت مصداقاً لما أخبر به الرسول ﷺ في إحدى خطبه قبل وفاته «ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

وأخوف ما نخاف أن تكتسح هذه البلاد الموجة العارمة من التكاثر في الأموال ، واستغلال حاجة الناس وضعفهم ، والانتهازية ، وهي الموجة التي لا تعرف الرحمة والهوادة ، ومكارم الأخلاق التي عرف بها العرب في العصر الجاهلي ، وربما يعود ذلك خطراً كبيراً على الحج ومركزه ، ويمكن أن يشكل محنة للوافدين إليه ، فيضطر الدعاة في صد هذه الموجة إلى مكافحة خلقية وحملة دعوية تربوية تنظم لإصلاح الحال ، وإيقاظ الضمير ، وإثارة الغيرة الإسلامية والشعور النبيل ، وتنطلق من المنابر والصحف ، والإذاعة ووسائل الإعلام ، وتجند لها الطاقات والألسن والأقلام.

وسمة الدعوات الحية المخلصة التي تقتبس النور من مشكاة النبوة ، وتسير على نهجها ، أنها تجس نبض المجتمع جساً صحيحاً أميناً ، وتهتدي إلى الداء الحقيقي ومواضع الضعف في جسم هذا المجتمع ، وتضع الأصبع عليها ، وتضرب على الوتر الحساس ، من غير محاباة أو مداهنة ، ولا تكترث بألم هذا المجتمع أو ملامه ، كما فعل شعيب في دعوته ، فوجه دعوته ـ بعد الدعوة إلى التوحيد ـ إلى إيفاء الكيل ، والوزن بالقسطاس المستقيم ، وشنع على التطفيف ، إذ كان ذلك عيب المجتمع الذي بعث فيه ، وسمته البارزة ، وكذلك فعل غيره من الأنبياء.

وهذه كانت سنة الدعاة إلى الله من المخلصين الربانيين في تاريخ الإسلام ، فكانوا ينتقدون المجتمع في الصميم ، ويصيبون المحز ، ولذلك كان وقع كلامهم في النفوس عظيماً وعميقاً ، وما كان يسع المجتمع أن يتغافل عنهم أو يمر به مراً سريعاً ، أو يسلي نفسه بأنه إنما يعنون غيره من المجتمعات التي سبقت أو المجتمعات التي لم تخلق بعد ، وهذا كان شأن

www.abulhasanalinadwi.org

الحسن البصري في مواعظه إذ كان دائماً يشير إلى النفاق الذي كان داء المجتمع الإسلامي ، وهو في أوج مجده ورخائه ، ويذم حب الدنيا وطول الأمل ، وهذا كان شأن الشيخ عبد القادر الكيلاني ، فيدعو إلى التوحيد الخالص وقطع الرجاء والخوف من غير الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع سواه. لأن الناس كانوا قد ربطوا مصيرهم بالخلفاء والأمراء وأصحاب الحول والطول والأمر والنهي في العاصمة ، وهذا كان شأن ابن الجوزي في مواعظه الساحرة ، ومجالسه المزحومة ، فإنه كان يشنع على الحياة اللاهية الماجنة التي كان يحياها كثير من الناس في بغداد ، وعلى الذنوب والمعاصي التي كانت تقترف جهاراً والمنكرات التي شاعت ، فكان مئات وآلاف من الناس يتوبون ويقلعون عن الذنوب وكان نشيج يعلو وقلوب ترق وعيون تدمع ، وموجة من الإنابة والرقة تكتسح الجموع الحاشدة لأنه كان يمس القلوب ويصور الواقع ، ولا يكتفي بالكلام العام والوعظ التقليدي[1].

وهنا أنقل إليكم قطعةً من كتابنا «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» والمؤلف يتحدث عن الإمام أحمد بن حنبل وزهده:

«وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام ، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام ، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين ، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب إلا وله نزعة في الزهد وتغلب على الشهوات ، وسيطرة على المادة ورجالها ، ولعل السر في ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهاداً في الحياة ، متمردين على الشهوات ، وبعيدين عن

---

(١) اقرأ تفاصيل مجالس ابن الجوزي وتأثيرها في كتاب «صيد الخاطر» و «رحلة ابن جبير».

www.abulhasanalinadwi.org

الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ، ويلهب الروح ، وبالعكس أن الدعة والرخاوة تبلد الحس وتتيم النفس وتميت القلب .

وهناك تعليلات أخرى يوافق عليها علم النفس وعلم الأخلاق ، ولا أطيل بذكرها ، واقتصر على هذه الملاحظات التاريخية ، وألح على أن منصب التجديد والبحث الجديد يتطلب لا محالة زهداً وترفعاً عن المطامع وسفساف الأمور ، ويأبى الاندفاع إلى التيارات ، ويتنافي مع الحياة الوداعة الرخية والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلافة للرسول الأعظم ﷺ ، وقد قيل له : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] .

وأمَر بأن يقول لأزواجه ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨] وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم ، ومن يرشح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير «ولن تجد لسنة الله تحويلاً»[١] .

ومِن أبرز سمات الدعوة التي يقوم بها الأنبياء وخلفاؤهم أنها تقوم على الإيمان بالآخرة والتحذير من عقابها والترغيب في نعمائها وثوابها ويكون مناط العمل فيها الإيمان والاحتساب والأجر والثواب ، لا على الإغراء بالفوائد الدنيوية والجاه والمنصب والمال والملك فإنه أساس ضعيف منهار ولا يتفق مع طبيعة دعوات الأنبياء والمساومة فيه سهلة ، وقد يملك أعداؤهم وخصومهم والقادة السياسيون مثله أو أكثر منه ، ومن رضع بلبان هذه المطامع لم يمكن فطامه عنها ، ولا يصح الاعتماد عليه ، وإنما يبنون دعوتهم على رضى الله وثوابه وما أعده الله لعباده المؤمنين وما وعدهم به على لسان أنبيائه ، من نعيم لا يزول ولا يحول ، والصحف السماوية ـ غير صحف العهد القديم والتوراة ـ[٢] مملوءة بالحديث عن الآخرة والاهتمام بها

---

(١) انظر «رجال الفكر والدعوة» ترجمة الإمام أحمد بن حنبل (ج ١ ، ص ١٣٢) .

(٢) فقد تجردت بعد التحريف ، من ذكر الآخرة ونعمائها والترغيب فيها بطريقة عجيبة .

www.abulhasanalinadwi.org

الإيمان والنجاة وقد جاء في القرآن صريحاً ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وهنا أستعير لنفسي من نفسي ما قلته في إحدى المحاضرات التي ألقيتها في هذه الجامعة العزيزة سنة ١٣٨٢ هـ تحت عنوان «النَّبوَّةُ والأَنْبِياءُ في ضَوْءِ الْقُرْآنِ»[1] وأختم به هذا الحديث مؤملاً في أن تكون هذه السمات التي تحدثت عنها شعار الدعوة التي يقوم بها الدعاة المتخرجون في هذه الجامعة أو القائمون بأعبائها في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، قلت وأنا أتحدث عن الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية :

«ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة أو الإشادة بها كضرورة خلقية أو كحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة فضلاً عن المجتمع الإسلامي ، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما أن الأول منهج الأنبياء ، إيمان ووجدان ، وشعور وعاطفة وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره ، وتفكيره ، وتصرفاته ، والثاني اعتراف وتقدير وقانون مرسوم ، وأن الأولين يتكلمون عن الآخرة باندفاع والتذاذ ويدعون إليها بحماسة وقوة والآخرين يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية والحاجة الاجتماعية وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي ، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية».

* * *

(١) انظر هذه المحاضراة في الجزء الثالث لـ«محاضرات إسلامية في الفكر والدّعوة للعلامة الندوي» ، صفحة (٥) ، طبع دار ابن كثير ، دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

الفتنة المتحدِّية في مجال الدَّعوة والإصلاح وطُرق مُقاوَمتها (١)

الحمد لله والصَّلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد:

فأحمد الله تعالى على هذا اللقاء الذي جاء في أوانه ومكانه ، وأستطيع أن أقول لكم إنَّه إن تأخر عن أوانه فقد جاء في مكانه ، ولا يزال في مكانه ، وأعتبره لقاءً أبوياً ، أخوياً ، مدرسياً ، عائلياً ، توجيهيّاً ، دعوياً في وقتٍ واحدٍ ، إنَّه كان كان من الطبيعي ، ومن المعقول بل من الواجب أن تتكرَّر هذه اللقاءات وإن طالت ، أو قصرت ، وإن اختلفت أمكنتها ، وألسنتها ، فإنَّ هذا الموضوع الذي سألقي بعض الأضواء عليه؛ إنَّه هو العمود الفقري في النظام التعليميِّ ، والتربويِّ الدعيِّ؛ الذي تعيشون فيه ، وإنَّ في إمكانه أن يثير فيكم بعض الاهتمام بمعرفة واجبكم ، وما يستقبلكم إذا عدتم ـ بمشيئة الله وكرامته ـ إلى بلادكم.

ما هي التحدّيات التي تواجهونها؟ ما هي العراقيل؟ ما هي المشاكل؟ ما هي العقد النفسية السِّياسيَّة التي تُبتَلون بها؟ كان من الواجب أن يكون عندكم بعض تخمين ، أو بعض تقديرٍ للوضع الاجتماعيِّ ، الدِّينيِّ والسِّياسيِّ الذي

---

(١) هذه كلمة قيمة ارتجلها العلامة الندوي في المعهد العالي للدّعوة والفكر الإسلامي في جامعة ندوة العلماء بمناسبة افتتاح العام الجديد له ، وهو في عام ١٤١٣هـ ، وقد نشرت هذه الكلمة فيما بعد بعنوان «الحاجة إلى التركيز على جانب حاسم ومقاومة فتنة متحدِّية في مجال الدعوة والإصلاح ، وأمثلته من تاريخ الفكر والدعوة الإسلامية».

www.abulhasanalinadwi.org

ينتظركم ، ولابدَّ لكم أن تواجهوه ، وأحمد الله تعالى على أنَّه أتاح هذه الفرصة الكريمة للجلوس معكم ، والحديث إليكم .

إخواني! إنَّكم تعرفون أنَّ الدعوة هي رسالة الأنبياء عليهم السلام جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإنَّ الدعوة هي رسالة الأنبياء ووظيفة خلفائهم ، بل تعتبر الدَّعوة نَفَس الرسالة ونطقها ، إذا تنفَّست؛ كانت الدعوة ، وإذا نطقت؛ كانت الدعوة ، وإذا سارت؛ كانت الدَّعوة ، وهي دعوةٌ معيَّنة صريحةٌ مكشوفةٌ ، متفقٌ عليها ، لا جدال فيها ، هي الدعوة إلى الله تعالى ، الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والإيمان بالله ، والإيمان بالرُّسل عامَّةً وبالرسول الخاتم خاصَّةً ، والإيمان باليوم الآخر ، والدعوة إلى الفضائل ، والدعوة إلى إنقاذ الإنسانيَّة من التردِّي في هوَّة الضلال والهلاك ، فهذه الدعوة متَّصلةٌ ، وستظلُّ متَّصلةً إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وهي لكلِّ عمل إسلاميٍّ صعيدٌ وأرضيَّةٌ يقوم عليها ، وهي أساسية ، وهي المبتدأ والمنتهى ، وهذا ما لا شكَّ فيه ، وما زالت هذه الدعوة باقيةً مستمرَّةً نشيطةً مهما تنوَّع الدعاة في عرضها ، واختلفوا في طريقها .

ولكنِّي أريد أن أشير في ضوء دراستي للدَّعوة الإسلاميَّة ، وتاريخ الديانات والشعوب ، وتاريخ الحضارات والفلسفات في هذا الوقت القصير: أنَّ هنالك فجواتٍ أو ثغراتٍ تحدث في حياة الأمم وفي حياة المجتمعات ، قد حدثت في حياة كلِّ أمَّةٍ ، وفي كلِّ ديانةٍ ، وإن لم يُسجِّل تاريخها تسجيلاً أميناً مفصَّلاً موثوقاً به ، ولكنه من طبيعة البشر ، ومن طبيعة الديَّانات ، ومن طبيعة المجتمعات البشرية ، وهو أنَّ الإنسان حيٌّ نامٍ ، صاحب شعورٍ ، وصاحب عقليَّةٍ ، وصاحب تجارب ، وصاحب أهواء وميولٍ وشهواتٍ ، وصاحب غاياتٍ وأهدافٍ ، يواجه معارضاتٍ وصراعاً نفسيَّاً ، وفي بعض الأوقات صراعاً سياسيَّاً وصراعاً اجتماعياً ، وفي بعض الأوقات صراعاً خُلقياً ، فإنَّه لابدّ أن تحدث في كلِّ مجتمع ـ مهما بلغ من العلم الدِّينيِّ ، والصلاح العلميِّ ، ومن الفضيلة الخلقية مكاناً سامياً ـ لابدَّ أن تحدث في هذا المجتمع الحيِّ النامي الذي يسعى على قدميه ، وينطق بلسانه ، والذي تحرِّكه محرّكاتٌ داخليةٌ وخارجيَّةٌ كثيرةٌ ، قد تكون

www.abulhasanalinadwi.org

مفروضةً عليها ، وقد تنبع من داخلها ، لابدَّ أن تحدث هناك فجواتٌ ، أو ثغراتٌ .

ولابدَّ أن تُملأ هذه الثغراتُ والفجواتُ ، تقتضي ذلك طبيعة الدِّين ، وحكمة حامليه وشارحيه ، وتقتضي ذلك الطبيعة البشرية ، ولا يجوز أبداً أن تغفل هذه الفجوات ، والثغرات ، ويقول الدَّاعية والغَيور على الدين : ما لنا ولهذه الفجوات والثَّغرات ، وما الحاجة إلى ملئها والاشتغال بها؟ ما دام الدِّين هو الدِّين الكامل ، هو الدِّين الذي يحتوي عليه كتاب الله العزيز ، والذي وصل عن طريق الحديث وعن طريق الفقه ، أو عن طريق البحوث العلمية؟

لا أبداً ـ إذا بقيت فجوةٌ عميقةٌ ، فجوةٌ حقيقيَّةٌ يصحُّ أن تسمَّى فجوة؛ فإنَّه يخشى على هذا المجتمع ـ مهما بلغ من الفضائل الخلقية والتمسّك بالدين ـ يخشى عليه أن يتردَّى ، أو يهوي هذا المجتمع في هذه الفجوة ، فهنالك فجواتٌ وثغراتٌ تحدث ، وهي تطلب أن تُملأ وبتعبير أصحَّ أن تُردم .

وكذلك هنالك تشكُّكاتٌ وتساؤلاتٌ قد تبلغ إلى حدِّ التحدِّيات ، تحدٍّ لصحة الدين ، تحدٍّ لإمكان انطباقه في هذا العصر ، تحدٍّ لإمكان العمل به ، تحدٍّ لإمكان القيام به قياماً كاملاً ، هذه التساؤلات (وبالأصح : الاعتراضات ، والتشكُّكات) تحدث في حياة كلِّ أمَّةٍ ، وفي تاريخ كلِّ ديانة ، وهي حدثت ، وستحدث ، وتستمرُّ حادثةً موجودةً طارئةً في كلِّ عصر ومصر ، فهذه ثغراتٌ وفجواتٌ يجب أن تُملأ ، وهذه تساؤلاتٌ وتحدِّياتٌ ، يجب أن يُجاب عنها ، ويجب أن تقابل .

وهنالك معارضاتٌ كذلك ، وتناقضاتٌ يجب أن تستقبل بعقلٍ واعٍ ، وصبرٍ واسع ، وحكمةٍ عاليةٍ ، ونظرةٍ ثاقبة ، هذه كلها من واجبات الدُّعاة .

وأضرب لكم بعض الأمثلة ، والوقت قصيرٌ ، لذا أشير علكيم من غير خجلٍ ومن غير اعتذارٍ ، بأن تطالعوا كتابي : «رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام» فتمرُّون في أثناء سياحتكم في هذا الكتاب ـ الذي هو في عدَّة

www.abulhasanalinadwi.org

أجزاء ـ بهذه الثغرات الزَّمنية التي حدثت في تاريخ الإسلام ، وما يتَّصل بالدَّعوة الإسلاميَّة .

أضرب لكم مثلاً بالإمام الحسن البصري رحمه الله ، فالإمام الحسن البصري هو من كبار دعاة الإسلام ، قدَّر الله له زماناً ـ وهو المقدِّر لما يشاء ومتى يشاء ـ كانت هنالك حكومةٌ إسلاميَّةٌ ، بل وفقاً للمصطلح الجديد : إمبراطوريةٌ قويَّةٌ واسعةٌ ، ومجتمعٌ إسلاميٌّ متنوِّع ، وشريعةٌ واضحة المعالم ، واسعة التفاصيل ، وحديثٌ محفوظٌ ، كلُّ ذلك كان هنالك متوفِّراً ، ولكن حدثت هنالك مرحلةٌ جديدةٌ كان يجب أن ينتبه لها ، وإنها جديرة بأن تحدث في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهو وجود النِّفاق ، لم يكن هنالك نفاق عقيدة ، ولكن كان هنالك نفاقٌ خلقيٌّ وعمليٌّ ، وهو وجود تناقض ما بين التعاليم الصحيحة الإسلامية التي جاءت في القرآن ، وجاءت في الحديث النَّبويِّ المتواتر الصحيح ، تناقض بين السِّيرة الإسلامية المتينة الرَّاسخة ، بين طلب الآخرة ، والسعي لها ، وإيثارها على المنافع الدنيوية ، والجهد في سبيلها ، وبين انتهاز الفرص التي حدثت لوجود حكوماتٍ واسعةٍ غنيَّة ، ذات وسائل وإمكانيات متوفِّرة ، فقد انهزمت الإمبراطورية الرومية ، والإمبراطورية الساسانية (الفارسية) أمام الجيوش الإسلامية والغزو الإسلاميِّ ، واستولى المسلمون على هاتين الإمبراطوريتين ، وكانت هنالك فرصٌ سانحةٌ ، فرص مُغريةٌ كلَّ الإغراء لانتهاز هذه الفرص ، لتبوُّء المناصب الرفيعة ، وتملُّك وسائل الرَّفاهية ، والشرف بالتزلُّف إلى الحكام ، ومخالفة الضمير والمبدأ .

هذا ما أحدث تناقضاً ، وتفطَّن له الإمام الحسن البصري بما أوتي من فراسة إيمانية ، وعلمٍ راسخٍ ، ونظرٍ ثاقبٍ ، وربّما كان من حظه إدراك عصر الصحابة ، ودراسة سيرتهم ، وأخلاقهم ، فهو وهب نفسه لمعارضة هذا التناقض الذي حدث في المجتمع الإسلاميِّ الإنسانيِّ الناشىء ، المجتمع الإسلاميِّ الغنيِّ في مواهب ، وفي طاقاتٍ ، وفي ذكاءٍ ، وإمكانياتٍ ، كان الواحد منهم يؤمن بالله كما هو بأسمائه ، وصفاته ، ويؤمن بالرسل جميعاً ، ويؤمن بالآخرة ، ويؤمن بالتَّعاليم التي جاءت في القرآن ، ولكن كان

www.abulhasanalinadwi.org

طموحه ، وما وُهبه من ذكاء ، ومقدرة يغريه بأن ينتهز هذه الفرصة ، يذهب إلى الحاكم ويقول ما لا يرضاه دينُه ، ويقول ما لا يتَّفق مع إيمانه ، وعقيدته ، ولكنَّه أراد أن ينتهز هذه الفرصة ، وينال كرامةً ، أو منصباً رفيعاً.

وهذا أحدث تناقضاً في المجتمع الإسلاميِّ ، وكان نفاقاً خلقياً ، وقد جاء في التاريخ: أنَّ هذا أحدث ـ لما قام سيدنا الإمام الحسن البصري لمحاربة هذا النفاق ، ولاستئصال شأفته ، والتغلُّب عليه ـ تساؤلاً في نفوس كثيرٍ من الناس ، قالوا: يا أبا سعيد هل اليوم نفاقٌ؟ لأنهم كانوا يعرفون أنَّ النفاق قد مضى زمنه ، وهذا بحثٌ علميٌّ قد جاء في كتاب «الفوز الكبير»[1] للإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله الدَّهلوي ، هل النفاق داءٌ مستمرٌ؟ وهل يمكن أن يوجد بعد عصر الرسول عليه الصلاة والسلام؟ وشيءٌ آخر أكثر حساسيَّة ، هو أنه من الصعب بل من المحال تعيين المنافق ، فقيل لسيدنا الحسن البصري رحمه الله: هل اليوم نفاق؟ قال: «لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها» هم في عدد لا يستهان به في المدن ، ثم قيل له مرَّة ثانية؛ قال: لو خرجوا لما انتصفتم من عدوِّكم ، يعني هم الذين يكوِّنون الجيش الإسلامي ، فإذا انسحبوا ، ولم يكن لهم وجود ، لما استطعتم أن تقاوموا ، وتحاربوا عدوَّكم ، لأن قوَّتكم هي المستمدَّة من هؤلاء الذين يعيشون عيش تنعُّم ، وهؤلاء الذين يتَّصفون بالنفاق.

فعارض الإمام الحسن البصري النفاق ، وركَّز عليه عنايته وبلاغته التي ـ أكرمه الله بها ـ ومن المقررات التاريخيَّة الأدبيَّة ، ومن المقررات في التاريخ الأدبيِّ ، أن كان هنالك بليغان لا ثالث لهما ، أبلغ البلغاء الحسن البصريُّ ، والحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، ولكن يكاد المؤرخون للأدب يُجمعون على أنَّ الحسن البصريَّ أبلغ من الحجَّاج ، فوهب نفسه ، ووهب طاقاته ، وكلَّ إمكانيته ، وقوة بيانه ، وقدرة لسانه ، ووهب عنايته

---

(١) نقله إلى العربية الشيخُ سلمان الحُسيني الندوي ، طبع في دار الفارابي ، دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

وإخلاصه لمحاربة هذا النفاق ولمحاربة هذا التناقض ـ الحادث في المجتمع الإسلامي بحكم الطبيعة ، واتِّساع المملكة ، وتضخُّم الثروة ـ من ذلك تعرفون أنَّه كانت هنالك ثغرةٌ حتى في العهد القريب من البعثة النبوية ، والرسالة السَّماوية .

وهنالك مثالٌ آخر وهو ما حدث في آخر القرن الثاني الهجري ، وهي فتنة عقيدة خلق القرآن ، وهي العقيدة التي تزعَّمها المعتزلة الخاضعون للفلسفة الإغريقية في قليلٍ أو كثيرٍ ، والتنوُّر السَّطحيِّ العاجل أو (العقلانية Rationalism) ولهذه العقيدة لوازم فاسدةٌ ، ونتائج معارضةٌ لحقيقة إعجاز القرآن ، وكونه مُنزّلاً من الله لفظاً ومعنى[1] .

وقد احتضن الخليفة العبّاسيُّ الكبير المأمون بن الرشيد هذه العقيدة وحماها حماية الحكَّام والملوك ، وأصدر سنة ٢١٨ هـ رسالةً يأمر فيها بجمع القضاة ، وامتحانهم في عقيدة خلق القرآن ، وعزل من لا يقول بذلك منهم ، وإسقاط شهادة من لا يراها من الشُّهود ، وكانت محنة عقَّدتها وضخَّمتها حمايةُ المملكة وحماسُ القائم عليها .

وهنالك قام لمعارضتها وللوقوف في وجهها ، الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) وخاطر بنفسه وحياته ، وتركَّزت فيه رئاسة المعارضة ، فحُبس ، ومكث في السِّجن نحواً من ثلاثين شهراً ، وفي أيام المعتصم خليفة المأمون ضُرب بالسِّياط ، ضرب تسعة عشر سوطاً ، يقول السوَّاط : لو ضُرب فيلٌ سوطاً واحداً لصاح ، وهو يقول كلَّ مرة : «**إيْتوني بشيءٍ من كتابِ الله وسُنَّة نبيِّه حتى أقولَ بِهِ**» وقد كان من ثبات ابن حنبل وصُموده

---

(١) إنَّ ما كان يقصد به الدُّعاة إلى هذه العقيدة ، ومعرفة مراميها وغوامضها صعبٌ لضياع كثير من مصادر الاعتزال وكتب المعتزلة بعد خمود هذه الدعوة ، وانقراض عصر المعتزلة ، ولكن مما لا شك فيه أن هذه العقيدة كانت معارضةً لعقيدة السوادِ الأعظم من المسلمين والصحابة والتابعين ، مُضعفةً لعقيدة إعجاز القرآن ، وكونه منزلاً من الله بكلماته ومعانيه ، فإن الله يقول : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] واللغة لا تتخيل ولا تُفهم إلا مركبة من كلماتٍ وألفاظٍ معيَّنةٍ .

www.abulhasanalinadwi.org

وإخلاصه أن انطفأت عقيدة خلق القرآن حتى بقيت مدفونةً في كتب الملل والنحل ، وعلم الكلام ، وانهزمت حكومة هي من أقوى الحكومات وأوسعها في عصرها ، حتى ذُكر اسمُ الإمام أحمد بن حنبل مقترناً بالصِّدِّيق في الثبات والصمود ، والقضاء على الخطر ، فقيل «**أبو بكر يَوْم الرِدَّةِ وأحمد بن حنبل يَوْمُ المِحْنَةِ**» .

ثم كان هنالك شخصيةٌ أخرى هي شخصية الإمام أبي الحسن الأشعري (٢٧٠ ـ ٣٢٤ هـ) فقد قام بدورٍ حاسم في مقاومة الاعتزال وسلطانه ، فقد كان هذا الاعتزال قد أثر تأثيراً عميقاً في عقلية الشباب الواعي ، فكانوا «يتظرَّفُون» بالانتساب إلى الفلسفة ، ومذهب المعتزلة ، وأصبحت الفلسفة كما يقول الدكتور أحمد أمين «موضةً» (FASHION) يتظرَّف بها الشباب ، ويتنبلون بها ، ويقول بعضهم: أنا معتزليٌّ افعلوا ما شئتم! أنا معتزليّ! وأصبح الاعتزال رمزاً وإمارةً للذكاء والتعمق والعقلانية ، حتى في العقائد والمسائل الشَّرعية ، فكان هذا خطراً كبيراً على الفهم الديني الصحيح ، وعقيدة السَّلف المأثور ، فوفق الله الإمام أبا الحسن الأشعري فاعتزل أياماً ثم خرج ، وهو مقتنع بصحة الشريعة الإسلامية عقيدةً ، وشريعةً ، وعقلاً ، وعملاً ، مؤمناً بها إيماناً واعياً ، ليس إيماناً عاطفياً فقط ، فصار يفحم المعتزلة ، ويُقنع الشباب المتأثرين بعض التأثُّر ، أو كلَّ التأثُّر بالفكر المعتزليِّ الفلسفيِّ ، فكان يجيبهم كما يجيب معلمٌ حاذقٌ كبيرٌ أطفالاً صغاراً ، وتلاميذ أحداثاً ، فكان يجتمع هناك عددٌ كبير من المتأثرين بالاعتزال ، ويقول: يا سيدي! أجب عن كذا ، يا مولانا! ماذا تقول في هذا؟ يا سيدي! ما المسألة الفلانية؟ فكان يسمع كلَّ هذا ، وكان الناس يتعجبون كيف يحفظ الإمام أبو الحسن الأشعري هذه الآراء ، وبعد ذلك يبدأ يناقشهم ويردُّهم واحداً بعد واحدٍ ، أما فلان؛ فقد قال كذا ، وأقول هذا ليس بصحيح ، وإنَّه شيءٌ مفروضٌ ، وشيءٌ غير عقليٍّ ، وقال الثاني كذا ، وقال الثالث كذا ، والرابع كذا ، كان الناس يتصوَّرون أنَّه رجل ملهمٌ ، كيف استطاع أن يحفظ هذه الآراء الشاذَّة المنتشرة المبعثرة التي لا تناسبَ ، ولا التئام فيها ، كيف حفظ هذا ثم يردُّ على كلٍّ كما يردُّ شابٌ

www.abulhasanalinadwi.org

أو رجلٌ كهلٌ مكتمل الشباب على أطفالٍ صغار ، وهذا كان من تقدير الله تعالى ، وبدأ الاعتزال يفقد تأثيره ، وسلطته ونفوذه ، والنفوذ شيء خطرٌ جداً ، إذا كان لفلسفةٍ نفوذ ، وكان لها إجلالٌ وأثرٌ في أعماق النفس؛ فهو خطرٌ على الدِّين السماويِّ المنزَّل من الله ، ويسير بالعقل الإسلاميِّ ، والفكر الإسلاميِّ إلى اتِّجاهٍ غير سليم ، إلى اتجاهٍ غير شرعيٍّ ، وغير نبويٍّ .

هذا كان من تقدير الله تعالى ، فقد فقد الاعتزال وجاهته ، وأنا تحريَّت هذه الكلمة بصفةٍ خاصَّةٍ فقد الاعتزال وجاهته العقليَّة ، والوزن العقليَّ ، فإذا لم يكن فيه وزن عقليٌّ ، فما قيمته؟ كلُّ قيمته أنها عميقةٌ وأنَّها مؤسسةٌ على الدراسات ، وأنَّها تلائم العقل ، وترضي العقل ، وتُسلّيه ، فإذا فقدت هذه الفلسفة هذه القيمة فقدت كلَّ شيء ، أصبحت مفلسةً ، لا قيمة لها ، ولا جاذبية فيها .

وكذلك شأن حجَّة الإسلام الإمام الغزاليّ في عصره ، والعلامة ابن الجوزي في عصره ، والإمام عبد القادر الجيلي (الكيلاني) في عصره ، وشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية في عصره ، ومولانا جلال الدِّين الروميُّ في عصره ، أما المجدِّدون للإسلام ، والدَّاعون إلى الله والدين الصحيح ، والمقاومون للتحديات والأخطار على بقاء الإسلام في شبه القارة الهندية ، والمانعون من تحوُّلها إلى الوثنية البهمية والحضارة الهندية الجاهلية ، والناشرون للكتاب والسنَّة ، والاشتغال بالحديث ، فيمكنكم أن تقرؤوا قصة كفاحهم وجهودهم ، وغَيْرتهم على الدين الأصيل المحفوظ ، ومدى نجاحهم في جهدهم وجهادهم في كتابنا: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الثالث ، والرابع ، والخامس[1] .

فالقضية يا إخواني! هو ملء الفجوة الواقعة في الفكر الإسلاميِّ ، أو في المجتمع الإسلاميِّ ، ومواجهة التحدِّي ، فملء الثغرة ، وملء الفجوة ،

---

(١) قد صدر الجزء الثالث والرابع مع الأول والثاني من دار ابن كثير بدمشق ، وأما الخامس فهو بالأردوية لم يترجم بعد ، وهذه سلسلة نفيسة ، يجب أن يقرأها كل من ينسلك في مجال الدعوة الإسلامية .

www.abulhasanalinadwi.org

ومواجهة الخطر الذي حدث ويحدث بالوجود الإسلامي ، أو بالشريعة الإسلامية واجبٌ ومحتَّمٌ.

وأقول لكم: القضية ليست قضية دعوةٍ جديدةٍ ، القضية: التركيزُ على جانبٍ خاصٍّ ، وقضية الضغط على جانب خاصٍّ ، والتضلُّع بمسؤوليةٍ خاصَّةٍ ، فليس هنالك تعارضٌ أبداً ، إنَّ الدعوة هي الدعوة الإسلامية ، الدعوة النَّبوية ، الدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، المقبولة عند الله تعالى ، مهما تباعد الزَّمان ومهما تضخّمت المشاكل ومهما اتَّسع المجتمع ، ومهما تغيَّرت مطالب الزمان ، الدَّعوة هي الدَّعوة ، ولكنَّ الشيء الذي أريد أن ألفت إليه أنظاركم ، هو التركيز على جانبٍ خاصٍّ ، والضغط عليه ووهب الطاقات ، ووهب الإمكانيات ، ووهب القوة الإرادية التي يهبها الله كلَّ إنسانٍ لمواجهة هذا الخطر ، ولملء هذا الفراغ ، ولإزالة هذا التحدِّي.

فما هو الجانب المحدّد المعيَّن الرئيسيُّ في هذا الزمان؟ ما هو الواقع المحدَّد الآن في البلاد الإسلامية؟ هو موضوع حديثي اليوم.

إنها إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة بصلاحية الإسلام، ليس بصلاحية الإسلام فقط ، بل بصلاحيته للقيادة وحل المشاكل ، ولصياغة المجتمع صياغةً سليمةً عصريَّةً ، جديدةً صحيحةً ، فالجانب الذي أريد أن أركِّز عليه اهتمامكم الآن ، وأركِّز عليه طاقتكم ، وإمكانياتكم ، وذكاءكم ومجهودكم في بلادكم؛ إذا رجعتم بسلامة الله تعالى ، هو إعادة الثقة بصلاحية الإسلام في الطبقة المثقَّفة؛ لأنَّ هذه الطبقة المثقَّفة قد ضعفت الثقة بصلاحية الإسلام فيها، أو فُقدت تماماً؛ لأن النظام الدَّعويَّ التربويَّ العصريَّ الغربيَّ هو نجح في ذلك نجاحاً ، تسعين في المئة تقريباً ، أو تسعاً وتسعين في المئة ، فإنَّ الطبقة المثقفة التي تخرَّجت من الكليات والجامعات، أو رجعت من الغرب بعد الدراسة، أو تخرَّجت من جامعاتها الكبيرة، لا أقول: إنَّها ضعفت فيها الثقة ، بل هي فقدت ثقتها تماماً بصلاحية الإسلام ، فالآن القضية الرئيسية المركزية عندهم هي إزالة هذه الثقة عن

www.abulhasanalinadwi.org

نفوس الشعب، والتحرُّز من ربقة الإسلام ومن قيوده الشرعية، والخلقية ، والتشريعية ، والقانونية ، والمدنية.

هذه هي الحرب الحقيقية السافرة التي توجد الآن في البلاد الإسلامية ، ما هي الحرب؟ أقول لكم بكلِّ صراحةٍ ، وعلى بصيرة ، وعن تجربةٍ واختبار ، أنَّه لا حرب في بلدٍ إسلاميٍّ بين الإسلام والصهيونية ، لا حرب بين الإسلام والصليبية ، ولا حرب بين الإسلام والنفوذ الغربيِّ لا حرب بين الإسلام وفساد الأخلاق ، هي حربٌ واحدةٌ ، هي حربٌ بين الطبقة المثقفة الرئيسية التي تملك زمام الحكم وبين الزُّعماء ، وبين الجمهور والشعب لإزالة هذه الثِّقة بصلاحية الإسلام ، إنهم يقولون بلسان الحال: نعم ، الإسلام كان ديناً ، مثَّل دوراً ، دوراً محموداً جزاه الله خيراً ، جزى الله القائمين به ، إنَّ الإسلام ردَّ على الوثنية السافرة ، وإنَّه أزال وأد البنات ، وإنه أعطى النساء بعض الحقوق ، وإنَّه أزال بعض المنكرات ، وبعض العيوب الخلقية ، وبعض الذمائم من المجتمع العربيِّ ، ولكنَّ خصوم الإسلام يقولون: قد مضى زمنه ، فقد وقف ، وتقدَّم الزمان ، إنما هي قضية القيادة ، وقضية الصياغة للحضارة والقانون ، وأن يتصرَّف ويتحكَّم في حياة الإنسان ، ويقول: هذا حرامٌ وهذا حلالٌ ، وهذا معروفٌ وهذا منكرٌ ، هذا دين وهذا لا دين ، ـ لا ـ هذا لا نسمح به ، الإسلام قد قضى دوره ، الإسلام قد انتهى أجله ، إنه قام بدورٍ محمودٍ في التاريخ ، إنه قام بعمليةٍ إصلاحيةٍ محدودةٍ في جزيرة العرب وخارج الجزيرة ، ولكن الآن في هذا العصر المتمدِّن الراقي الذي يطير الإنسان فيه في الهواء ، ويسير على الماء ، الذي وصل إلى القمر وركَّز الراية على القمر ، إنَّ الإسلام لا يستطيع أن يسايره ، ويقوده ، ويحلَّ مشاكله.

فأنتم يا إخواني! أقول لكم الآن بصراحةٍ وبتركيزٍ ، أنتم أمام القضية الرئيسية الكبرى التي تواجهونها ، بل هي تُفرض عليكم فرضاً رضيتم أم لم ترضوا ، هي قضَّة صلاحية الإسلام للبقاء ، وصلاحيته للقيادة البشرية ، وصلاحيته للسَّيطرة على المجتمع ، هذه القضية ستواجهونها إذا رجعتم إلى

www.abulhasanalinadwi.org

بلادكم ، ولابدَّ لمواجهة هذا التحدِّي ، وهذا الخطر ، لابدَّ له من دراساتٍ عميقةٍ متنوِّعةٍ تدرسونها في تاريخ الحضارة الغربية ، والفلسفة الغربية ، أو تاريخ إيران وروما ، وماذا خسرت الإنسانية بها؟ وما هي رسالتها للإنسانية؟ وما هي عطاياها؟ فعليكم أن تطالعوا بعض الكتب التي قد عالجت هذا الموضوع ، وأقول لكم ومعذرةً إليكم من ضميري ونفسي : لابدَّ أن تطالعوا بعض الكتب التي وفق الله لتأليفها في هذه البيئة المحدودة الصغيرة هنا ، أنا أحمد الله تعالى بل هذا توفيق من الله تعالى فقط ، ولا يرجع الفضل إلى أحد أبداً ، ـ حاشا ولا ـ ولكن «**ندوة العلماء**»[1] أقول لكم بصفة خاصة ، إنما قامت لذلك .

وأنتهز هذه الفرصة للفت النظر إلى هذا ، إنَّ البلاد كانت غنية زاخرة بالمدارس العربية الدينية ، ما كان هنالك فراغٌ أبداً ، لا أسمِّي هذه المدارس احتراماً لها ، كانت البلاد زاخرةً بالمدارس العربية الدينية ، كانت البلاد زاخرةً بالمكتبات العظيمة الغنيَّة ، كانت البلاد زاخرةً بوجود العلماء ، وبوجود العلماء الكبار المدققين المتوسعين في الفقه ، وأصول الفقه ، وفي الحديث ، وفي التفسير ، وفي العلوم الدينية ، ولكن كان هنالك ثغرٌ ، ما هو هذا الثغر؟ هو كيف تخاطب المتخرِّج من الجامعة والكلِّية ، والمتعلِّم في بيئةٍ غربيَّةٍ ، بأيِّ لسانٍ تخاطبهم؟ وما هي الوسائل التي تستخدمها ، ما هو السلاح الذي يستطيع الداعية أن يقاوم أو يحارب به ، ويدافع عن دينه ، وعن ضميره وعن شريعته؟ لذلك قامت ندوة العلماء وأنا أعتذر إذا قلت : إنَّه كانت هنالك حاجة لظهورها مع وجود هذه المدارس والجامعات الكثيرة ، التي كانت حظيت بتقدير من الجماهير المسلمة هنا ، وإذا كانت لندوة العلماء قيمةٌ ، فإنَّ هذه القيمة هي أن تنتج شباباً يستطيعون أن يستردُّوا القيادة الفكرية من الطبقة المثقفة الناشئة في الجامعات المدنية الغربية ، أو في الكلِّيات المدنية الغربية الواقعة في البيئة الغربية ، ورضعت بلبانها ، ونشأت في أحضانها ، تنتزع القيادة الفكرية من هؤلاء وتردُّها إلى

---

(١) يريد بها العلاَّمة ـ رحمه الله ـ دار العلوم التابعة لندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند).

www.abulhasanalinadwi.org

الراسخين في العلم ، المطمَئِنين ، المقنعين ، المنشرحة صدورهم ، والواعية عقولهم لفهم الدين الإسلاميِّ ، يؤمنون هؤلاء بأبديَّة الإسلام وبصلاحية الإسلام للبقاء في كلِّ عصرٍ ومصر ، كقائدٍ موجِّهٍ ، وداع ، وبأنَّ الشريعة الإسلامية متكفلةٌ بالسعادات الدنيوية والأخروية صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهي أفضل وأجدر بحلِّ المشكلات العائلية ، والاجتماعية ، والتشريعية من كلِّ قانونٍ وتشريعٍ إنسانيٍّ علمانيٍّ .

فأنتم يا إخواني! لابدَّ أن تستعدوا لهذه المعركة ، هذه المعركة التي تنتظركم بصبرٍ نافد ، لا أستطيع أن أقول إن آباءكم ينتظرون قدومكم بهذا الجزع ، أو بهذه الرغبة ، أم هذه المعركة تنتظركم؟ وأنا أميل إلى أنَّ هذه المعركة تنتظركم أكثر مما ينتظركم آباؤكم وإخوانكم الذين فارقوكم ، والذين ودَّعوكم إلى هذه البلاد ، وحرموا لقاءكم ، والحديث معكم ، والأكل معكم هذه المدَّة الطويلة ، لا ، هذه هي المعركة الحامية الحاسمة ، هذه المعركة الإلحادية ، هذه المعركة العلمانية ، هذه المعركة المعادية للإسلام ، والمعادية لكل الأديان ، هذه المعركة تنتظركم .

فلا بدَّ أن تستعدُّوا لها قبل أن تبتلوا بها ، وقبل أن تواجهوها وجهاً لوجه ، والاستعداد يمكن هنا ، فلابدَّ أن تقرؤوا الكتب التي ألفت ومعذرتي إلى نفسي قبل معذرتي إلى غيري ، لابدَّ أن تقرؤوا كتاب : «**الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية**» وكتاب : «**نحو التربية الإسلامية الحرَّة**» وكتاب : «**إلى الإسلام من جديد**» ولابدَّ أن تقرؤوا كتاب : «**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**» ومن غير مؤلفات علماء النَّدوة ـ بما أنا فيه ـ كتاب : **الإسلام على مفترق الطرق**» و«**الطريق إلى مكة**» للأستاذ محمد أسد المهتدي (ليوبولدويس سابقاً) وكتب الأستاذ سيِّد قطب رحمه الله ، والأستاذ أبي الأعلى المودودي في نقد الحضارة الغربية ، وبيان الحاجة إلى الإسلام ، وقبل ذلك كتاب أستاذنا وأستاذ الجيل الإسلامي المعاصر العلامة

www.abulhasanalinadwi.org

السيد سليمان الندوي «**الرسالة المحمَّدية**»[١] و«**السيرة النبوية**».

وكذلك تدرسون شعر إقبال[٢]، لا أقول أن تقرؤوا محاضراته[٣]، لأنِّي لا أوافِق على بعض ما جاء في هذه المحاضرات مئةً في المئة في صراحة، وأشرت إلى ذلك في مقدمة «**روائع إقبال**» ولكن لا بدَّ أن تقرؤوا شعره، وأن تتذوَّقوه، وأقول لكم إنَّ هذا يثير فيكم الذكاء والتذوُّق، ويثير فيكم حماساً إسلاميَّاً قوياً، فتكونون بذلك على مستوىً رفيع وعلى صعيدٍ صاعدٍ عالٍ من الثِّقة بالإسلام ومن القدرة على إقناع المتعلمين الدارسين الجامعيين.

يا إخواني! ويا أبنائي!

إنَّ الزمان لا يتسامح، والأعداء لا يتسامحون أبداً، إنهم قد شمَّروا أذيالهم، وإنهم قد أعدُّوا نفوسهم، وهم واقفون بالمرصاد، يعدُّون الساعات عدّاً، بل يعدُّون الدقائق عدّاً، لترجعوا إلى بلادكم، فيزاحموكم، أو يصارعوكم ويبدوا لشعبهم أنَّ هؤلاء رجال أمّيُّون، إنَّهم أبناء جيل ماضٍ، وإنَّهم أبناء جيل القرن التاسع عشر المسيحيِّ، أو قبل هذا، فهم يغيرون عليكم عن طريق العلم، وعن طريق الدِّراسة والصحافة، والإذاعة، وعن طريق النَّدوات العلميَّة، والمحاضرات الجامعية، فعليكم أن تستعدُّوا لهذه المعركة هنا، المعركة الحامية دالدامية، وهي معركة بين من يعتقد أنَّ الإسلام هو دينٌ خالدٌ، وهو دين البشرية إلى يوم القيامة، وأنَّه الدِّين الكامل لسعادة البشرية حياةً وموتاً، وخلقياً، واجتماعياً، وتشريعياً، وعبادةً، وحكماً، وسيادةً، ومن يعتقد

---

(١) قد صدر لأول مرة منقحاً ومحققاً بعناية مُعِدِّ هذاالكتاب من دار ابن كثير دمشق عام ٢٠٠٢.م. وهو ـ كما قال العلامة الندوي ـ «من أقوى الكتب في السيرة النبوية وأورعها في جمال التعبير، وبث حلاوة الإيمان، وتوثيق الصلاة بذات النبي ﷺ»، وهو جدير بأن يقرأه كل طالب مثقف.

(٢) وقد صَدَرَتْ مجموعةُ دواوين محمد إقبال لأول مرَّةٍ محقَّقةً ومنقَّحةً بعناية مُعِدِّ هذاالكتاب بعنوان «ديوان محمد إقبال» من دار ابن كثير بدمشق، عام ٢٠٠٢م.

(٣) يريد بها العلامة الندوي مجموعة محاضرات محمد إقبال التي طبعت بعنوان «تجديد الفكر الديني في الإسلام».

www.abulhasanalinadwi.org

ويؤمن ويعلن بأعلى صوته: أنَّ الإسلام قد مضى زمنه ، وأنَّه لا محلَّ له الآن في هذا العصر الراقي ، في هذا المجتمع المعقَّد المواجه لمشكلات تحدث كلَّ يوم ـ ولا بدَّ أن تستعدُّوا هنا ، وأنتم متفاوتون في الفرصة ، بعضكم لهم فرصةٌ قليلةٌ ، وبعضكم لهم فرصةٌ واسعةٌ ، فعلى كلٍّ يجب عليكم أن تستعدوا للعودة إلى بلادكم قبل الخوض في هذه المعركة ، فلا تعودوا إلى بلادكم إلا وأنتم تتسلَّحون بالسِّلاح الإيمانيِّ العلميِّ العقليِّ العصريِّ ، بسلاحٍ أقوى ، لم يخلق أقوى منه ، ولا يمكن أن يخلق أقوى منه ، ولا بدَّ من السلاح مهما كان الإنسان قوياً وغنياً ، لابدَّ من أن يتسلّح بسلاح العلم لمواجهة الجيل المثَّقف.

ولا بدَّ أن تحاربوا مركَّب النقص في هذه الطبقة المثقَّفة الثقافة الحديثة المصابة بمركب النَّقص فيما يتَّصل بالإسلام ، وبالشريعة الإسلاميَّة.

هم مبتلون بمركب النَّقص في كل ما يسمعونه عن الإسلام ، أو يقرؤونه عن الإسلام ، ويقولون هذه قصَّة الزمن الماضي ، هذه حكاية للزمن الماضي ، لا قيمة له في هذا العصر ، وهم عازمون على الإبادة المعنوية العقائدية للجمهور عن طريق التعليم ، والتأليف ، والصُّحف ، والمجلات ، والإذاعة ، والنَّدوات.

هذا هو الواقع الذي ينتظركم يا إخواني!

وأسأل الله تعالى أن يوفِّقكم للقيام بهذا الواجب ، وللوفاء بحقِّ الإسلام ، وللوفاء بحقِّ الضمير السليم المسلم ، وللوفاء بالنِّسبة إلى الإسلام ، وإنَّ الله تعالى قد أنعم عليكم بنعمة الإسلام ، فلا بدَّ أن تقدِّروا هذه النِّعمة ، وأن تكافحوا كلَّ ما يهاجم ، وكلَّ ما يعارض ، وكل ما يتحدَّى الإسلام بِكلِّ قوَّةٍ ، وبكلِّ وضوحٍ ، وبكلِّ ذكاءٍ ، وبكلِّ استعدادٍ ، وبكلِّ تسلُّحٍ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١١/ محرم الحرام ١٤١٣ هـ

www.abulhasanalinadwi.org

حاجة العالم إلى الدّعوة الإسلامية(١)

العالم الإسلامي اليوم حائر بين دين لا يسهل عليه العمل به والقيام بمطلبه لعادات نشأ وتربىٰ عليها ، وحكومات أفسدته ، وشهوات لا تتفق مع عقيدته ورسالته ، وبين جاهلية لا ينشرح لها صدره لإيمان لا تزال له بقية فيه ، إنه حائر بين فطرته التي تنزعه إلى الدين وتاريخه الذي يدفعه إلى الإيمان والجهاد ، وكتاب الله الذي يُقبِل به على الآخرة ويبعث في نفسه الصورة على المجتمع الفاسد والحياة الزائفة ، وبين التربية العصرية التي تزين له المادية وتطبعه على الجبن والضعف ، إنه حائر بين شباب ثائر ، ودم فائر ، وذهن متوقد ، وبين قيادة شائخة شائبة قد تفتت في العقلية والحياة ، وحرمت الابتكار والإبداع .

لقد كان يحدث مثل هذه المحن والنكبات في الأمم السابقة ، وكان الله يبعث الأنبياء والمرسلين ، ولكن نبوة محمد ﷺ لم تكسف شمسها ، ولم يتوار نورها ، وإنَّ دينه لا يزال حياً ، وإنَّ الكتاب الذي جاء به لم يزل محفوظاً ، وإنَّ أمته التي أرسلت معه لتبليغ رسالته ، والقيام بدعوته لا تزال على وجه الأرض ، ولا تزال فيها الحياة والروح .

لقد أغنانا الله بفضل دينه وكتابه ونبوءة رسوله محمد ﷺ عن رسالة جديدة ، ورسولٍ جديد ، وكان لا بدَّ من تجديدٍ واسع ، ودعوة صارخة ،

(١) نشر هذا المقال في مجلة «البعث الإسلامي» في عددها التاسع ، المجلد الثامن ، عام ١٩٦٣ م .

www.abulhasanalinadwi.org

وكفاح شديد يغير هذا الوضع الجاهلي؛ الذي تورَّط فيه العالم الإسلامي تورُّطاً قبيحاً ، وقد وعد الله وأخبر رسوله باستمرار هذه الدَّعوة الإسلامية وبقاء التجديد الديني ، ودوام الكفاح في تاريخ الإسلام ، وقد أصبح حالُ العالمِ الإسلاميِّ ، وفساد أحوال المسلمين ، وانحرافهم عن جادة الإسلام ، وطغيان بحر المادية أعظم وأوسع من أن يتدارك بجهودٍ فردية ، وخطب منبرية ، ودروسٍ دينية ، ورسائل دورية ، ومحاربة الأفراد والأشخاص ، إنَّ السبيل لا يمسكه إلا سبيلٌ مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيارٌ أقوىٰ منه ، فلا بدَّ إذاً من كفاحٍ عنيفٍ ، وصراعٍ شديدٍ ، يغير مجرىٰ الزمن ، ويقلب تيار الحياة من جهة إلى جهة ، ويحدث انقلاباً في المجتمع والحياة.

ليس حالُ الدعوة الدينية ، والتجديدُ الإسلاميُّ بهيِّن ، فليست رسالتها ومهمتها قلب نظام فقط ، أو تغيير وضع سياسيٍّ بوضع سياسيٍّ آخر ، ونظام اقتصاديٍّ بنظام اقتصاديٍّ آخر ، ولا نشر الثقافة والعلم ، ومكافحة الأمِّية والجهل ، أو معالجة عيوب اجتماعية ، أو خلقية ، وإنما هي دعوة الإسلام التي تشمل العقيدة ، والأخلاق ، والأعمال ، والسياسة ، والعبادة ، والسلوك الفردي والاجتماعي ، وتتناول العقل ، والقلب ، والروح والجسم ، وتعتمد على تغيير عميق في القلب والنفسية والعقيدة ، والعقلية ، وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلم أو صحيفة أو كتاب ، وتنفذ على جسم الداعي قبل أن يطالب المجتمع والأمة بتنفيذها.

هذه الدعوة كانت جديرة في الحقيقة بالأنبياء ، ومواهبهم ، وقواهم ، ورسالتهم ، وإيمانهم ، وجهادهم ، وثباتهم ، وفقههم ، وحكمتهم ، وإخلاصهم ، ولكنها ليست خاصَّةً بالأنبياء ، بل هي دعوة خلفائهم ، وأتباعهم ، فلا بدَّ أن تتجدَّد في كلِّ زمان ، وفي كلِّ مكان ، وتكون مطابقةً لسيرتهم ، مقتبسةً من مشكلتهم.

إننا إذا تتبعنا سيرة الأنبياء عليهم السلام ـ في دعوتهم رأينا جوانب كثيرة

www.abulhasanalinadwi.org

تقوم عليها دعوتهم ، يميزون بها عن سيرة ودعوة القادة المصلحين من عامة البشر.

١ ـ الالتجاء إلى الله في جميع مراحل الدعوة والجهاد ، بل في جميع مراحل الحياة ، والإيمان القوي بأنَّ الله وحده هو النافع الضارُّ ، والناصر الخاذل ، وألا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، هذا الإيمان كان يوحي إليهم بالابتهال في الدعاء ، وإطالة الوقوف ببابه ، وفي هذا كان يدعو رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ! إنَّكَ تَسْمَعَ كَلاَمِيْ ، وَتَرَىٰ مَكَانِيْ ، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلاَنِيَتِيْ ، لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْكَ شَيءٌ مِنْ أَمْرِي ، وَأَنَا الْبَائِسُ ، الفَقِيْرُ ، المُسْتَغِيثُ ، المُسْتَجِيْرُ ، الوَجِلُ ، المُشْفَقُ ، المُقِرُّ ، المُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ المِسْكِيْنُ ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالِ المُذْنِبِ الذَّلِيْلِ ، وَأَدْعُوْكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيْرِ ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ ، وَفَاضَتْ لَكَ عَبْرَتُهُ ، وَذَلَّ لَكَ جِسْمُهُ ، وَرَغَمَ لَكَ أَنْفُـهُ ، اللَّهُمَّ! لاَ تَجْعَلْنِيْ بِدُعَائِـكَ شَقِيَّـاً ، وَكُنْ بِيْ رَؤُوْفاً رَحِيْماً ، يَا خَيْرَ الْمَسْؤُولِيْنَ! وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِيْنَ!**»[1].

وأذكر موقفه عليه الصلاة والسَّلام في بدر حين فزع إلى الله تعالىٰ في إنابة نبي ، وإلحاح عبد ، ودعاء مضطر ، وشفع لهذه العصابة في كلمات صريحةٍ ، واضحةٍ ، خالدةٍ ، هي تعريف لهذه الأمة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذي خلقت له: لقد عدَّل رسولُ الله ﷺ الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر ورسولُ الله يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول ما بعث المسلمون لأجله: «**اللَّهُمَّ! إِنْ تُهْـلِكْ هَذِهِ العِصَابَـةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَـدُ في الأَرْضِ**»[2].

أجاب الله دعاء الرسول ﷺ ، وقضىٰ بانتصار المسلمين على عدوهم وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية ، بهم وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصِّلة بينهم وبين العبادة انقطعت الصلة بينهم

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/ ١٧٤) برقم (١١٤٥٥) ، والصغير (٢/ ١٥) برقم (٦٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده يحيى بن صالح الأيلي ، رُوي عنه مناكير.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم الحديث (١٧٦٣).

www.abulhasanalinadwi.org

وبين الحياة ، ولم يبق لهم على الله حقٌّ ولا ذِمَّة ، وأصبحوا كسائر الأمم ، خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون ، بل كانوا أقلَّ قيمة من الأمم الأخرىٰ ، إذا لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وقال: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبروا بهذا العهد ، وتذكروا أنَّهم إنما نصروا على عدوهم ـ وقد كان يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر ـ لأنَّ عبادة الله منوطةٌ بهم على أرض الله.

بهذه الرسالة انبثوا في العالم ، وحملوها إلى الملوك ، والسوقة ، والأمم ، وفي سبيل ذلك هاجروا ، وجاهدوا ، ولأجل ذلك حاربوا ، وعاهدوا ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعثون من الله إلى الأمم ، وحملوا راية الإسلام في العالم.

بهذه الرسالة الخالدة سار أصحاب رسول الله ﷺ ، فكانت كلمتهم حقيقةً ، وكان إيمانهم حقيقةً ، وكانت صلاتهم حقيقةً ، ونحن اليوم متجردون عن هذا الحقائق كلِّها.

أما سمعتم عن قوة خُبيب ـ رضي الله عنه ـ حين رفع على الخشبة ، وتناوله المشركون بالرماح والأسنة حتى تمزق جسمه ، وهو قائم لا يشكو ، ولا يئنُّ ، فيقال له: أتحبُّ أن يكون محمد مكانك؟ فيضطرب ويقول: والله لا أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه.

إنَّ الذي ثبَّت خبيباً في هذا المكان ، وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة في حبِّ الرَّسول هي حقيقة الجنة التي مثلت بين عينيه وهي تناجيه: «صَبْراً يا خُبَيْبَ! فَمَا هِيَ إِلاَّ لَمَحَاتٌ وَثَوَانٍ ، وهَا أَنَذَا أَنْتَظِرُكَ ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَرْتَقِبُكَ ، فَإِذَا احْتَمَلْتَ آلاَمَ هَذَا الْجَسَدِ الْفَانِي ، وَالْحَيَاةَ الزَّائِلَةَ الْعَابِرَةَ؛ نِلْتَ السَّعَادَةَ الدَّائِمَةَ ، وَالْحَيَاةَ الْبَاقِيَةَ».

ومثل قصة خبيب في تاريخ الإسلام كثير.

فهذا صهيبٌ ـ رضي الله عنه ـ حين كان في طريقه من مكة مهاجراً إلى المدينة؛ إذ يعترضه جماعةٌ من المشركين ويقولون له: أتيتنا صعلوكاً

www.abulhasanalinadwi.org

حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك!! والله! لا يكون ذلك أبداً. وهنا قامت المعركة بين حقيقة الإسلام وحقيقة المال ، فانتصرت حقيقة الإسلام ، وقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلُّون سبيلي! قالوا: نعم! قال: فإني قد جعلت لكم كلَّ مالي! وهكذا انطلق صهيب بدينه متجرداً من ماله ، فرحاً مسروراً ، كأن لم يفقد شيئاً ، ولم يخسر شيئاً.

وكذلك خرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة فلما رآه رجالٌ من بني المغيرة؛ قاموا إليه ، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نترك تسير بها في البلاد؟؟ ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد ولده الصغير سلمة. وهنا اصطدمت حقيقةُ الإسلام بحبِّ الزوج والولد ، فما لبثت أن انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله ، وهاجر وحيداً... أين نحن من هذا؟! أين نحن ممن يقدر على ترك الزوجات والأولاد في سبيل العقيدة والدين؟ لقد سمعنا أن أناساً قد ارتدُّوا عن دينهم في سبيل المال والأزواج والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها.

تلك كانت عدة الأنبياء عليهم السلام ، وعلى هذا السنن نهج أصحابه رضوان الله عليهم ، فامتازت دعوتهم بتقديم الدعاء مع قوَّة الإيمان وحقيقة الإسلام الماثلة أمامهم ، وامتازت دعوتهم وجهادهم في سبيلها بطابعهما الروحي والإيماني ، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصَّلاة ، وقال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ولا شك أنَّ مهمة الدعوة أعظم من أن يضطلع بها الإنسان بقوته الجسدية ، وعدته المادية ، وكفايته العلمية والعقلية ، فهو لا يستقلُّ بها إلا بالقوَّة الروحية ، ونصر الله ، ومعونته ، وتأييده.

٢ ـ امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجرُّدها من التفكير في المنافع المادية ، والثمرات العاجلة ، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه الله ، وامتثال أوامره ، وتأدية رسالته ، فقد تجرَّدت عقولهم وأفكارهم في

www.abulhasanalinadwi.org

العمل للدنيا ، ونيل الجاه ، والحصول على الحكم ، هذا الحكم الذي ما قام لهم في وقته إلا ليكون جائزةً من الله ، ووسيلةً للوصول إلى أهداف الدين ، وتنفيذ أحكامه ، وتغيير المجتمع ، كما قال الله تعالى: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ولم تكن هذه الحكومة التي أقاموها غاية من غاياتهم ، أو هدفاً من أهدافهم ، إنما كانت نتيجةً طبعيةً للدَّعوة والجهاد ، كالثمرة التي هي نتيجة طبعية لنمو الشجرة ، وقوة إثمارها.

وهكذا بعث محمد ﷺ فدعا الناس إلى الإسلام ، فالتف حوله ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥] ، وكان أولئك الفتية هدف كل قسوة ، وظلم ، واضطهاد ، وبلاء ، وعذاب ، وقد قيل لهم: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣] ، فصمدوا لكل ما وقع لهم ، وثبتوا وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ [الأحزاب: ٢٢] حتى أذن الله في الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشق طريقها ، وتؤتي أكلها ، حتىٰ قضىٰ الله أن يحكم رجالها في العالم ، ويقيموا القسط ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فقد عرف عنهم أنهم إذا تولوا وسادوا ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

وهكذا جاءت الدَّعوة بالحكومة كما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرةً من ثمرات الدَّعوة ، ولم تكن هذه العزَّة والقوة إلا نتيجة ذلك العذاب الذي تحمَّلوه من قريش وغيرهم ، وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها.

www.abulhasanalinadwi.org

٣ ـ ومما امتازت به حياة الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم النبوية المثابرة على الدَّعوة ، والصبر عليها ، فلا يتخطون هذه المرحلة التي هي الأساس بسرعة وعجلة ، ولا يطفرون منها طفراً إلى مرحلةٍ أخرىٰ ، بل يقضون فيها سنين طويلة ، ولا يشتغلون بغيرها ، ولا يطمئنون إلى أنَّ المجتمع قد عقل دعوتهم ، واستساغها ، وأنَّ النفوس قد قبلت دعوتهم ، وهضمتها هضماً صحيحاً ، وأحلَّتها منها محلاً لائقاً ، لا يطمئنون إلى كل هذا حتىٰ يتحققوه ، ويختبروه مرَّة بعد مرة ، فلا يخدعون عن أنفسهم ، ولا تغرُّهم بهرجة الكلام ، فإذا قامت الحكومة؛ قامت على أساس متين من الأخلاق ، وعلى أكتاف رجال أقوياء: أقوياء في عقيدتهم ، أقوياء في سيرتهم ، أقوياء في خلقهم ، أقوياء في عبادتهم ، أقوياء في سياستهم ، لا يندفعون مع التيار ، ولا يلعب بعقولهم الغنىٰ بعد الفقر ، واليسر بعد العسر ، والقوة بعد الضعف ، ولا تستهويهم المطامع والمنافع ، هكذا كان شأن الخلافة الراشدة ، وهكذا كانت سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد تأسَّست دولة الإسلام ، وفتحت فارس ، وبلاد الروم ، والشام ، ونُقِلت إلى عاصمة الإسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوز كسرى وقيصر ، وانصبت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وزخرفها ما لم يدر قطُّ بخلدهم ، قد انقضى على إسلامهم زهاء ربع قرن فقط ، وهم في شدَّةٍ ، وجهدٍ من العيش ، وفي خشونةٍ من المطعم والملبس ، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس إلا ما يقيم البرد والحر ، فإذا بهم اليوم يتحكمون في أموال الأباطرة والأكاسرة ، ولو أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى ، وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت والله هذه محنة عظيمة تزول فيها الجبال الراسيات؛ ولكنَّهم سرعان ما فطنوا أنَّهم ما وقفوا بين الفقر والغنىٰ فحسب ، بل إنهم خيِّروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم ، وإمامتهم ، ومبادئهم ، وينفضوا منها يدهم ، فلا يطمعوا فيها أبداً ، وبين أن يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين.

www.abulhasanalinadwi.org

كان لهم أن يؤسسوا ملكاً عريباً عظيماً على أن أنقاض الدولة الرومية ، وينعموا كما نعم ملوكها وأمراؤها من قبل ، فقد ورثوا الإمبراطوريتين ، وجمعوا بين موارد دولتين ، فإذا كان كسرىٰ يترف بموارد فارس فقط ، وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكن أن يترف بموارد الإمبراطوريتين ، ويبذخ بذخاً لم يبذخه أحد من قبل.

كان له ولأصحابه كل ذلك بسهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن الكريم يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] وكأنهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته: «لاَ الْفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَلٰكِنْ أَخَافُ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» فهتفوا عن آخرهم قائلين:

اَللّٰهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَهِ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهِ[1]

وهكذا حافظوا على روح الدَّعوة الإسلامية، وسيرة الأنبياء والمرسلين، وعاشوا في الحكومة كرجال الدعوة ، وفي الدنيا كرجال الآخرة.

٤ ـ ومن مزايا الأنبياء والدعاة إلى الله التجرُّدُ للدعوة ، والتفرغ لها بالقلب والقالب ، والنفس والنفيس ، والوقت والقوة ، فمن شأنهم أنهم يركزون جهودهم ومواهبهم ، ويوفرون أوقاتهم وقواهم لهذه الدعوة ونشرها ، والجهاد في سبيلها ، ويعطونها ، ولا يضنُّون عليها بشيءٍ ، ولا يؤثرون عليها شيئاً ، لا وطناً ، ولا أهلاً ، ولا عشيرةً ، ولا هوىً ، ولا مالاً ، ثم قد تثمر بعد حياتهم ، فهذا هو النبي ﷺ يخاطبه ربه بقوله: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦] وإذا كان هذا شأن الدعوة بعد ما أعطاها الأنبياء كل ما عندهم ، فكيف بها إذا أعطيناها بعض ما عندنا؟! وكانت الدعوة تملك عليهم عقولهم ومشاعرهم ، وتملك عليهم تفكيرهم وصحتهم ، فما زال

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق، رقم الحديث (١٨٠٥).

www.abulhasanalinadwi.org

القرآن يسلي النبيَّ ﷺ ، ويقول له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

٥ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السلام ومن كان على طريقهم في الدَّعوة إلى الله وإلى الدار الآخرة ، أنَّ هذه الدعوة تسري في حياتهم كما يسري الدم في العروق ، وتظهر في أخلاقهم وعباداتهم ، فترق قلوبهم ، وتخشع نفوسهم ، وتزداد رغبتهم في العبادة ، ويشتد اهتمامهم بها ، حرصهم عليها ، وإيفاؤهم لحقوقها ، فعَنِ الْمُغِيْرَةِ بنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ[1] قَدَمَاهُ فَقِيْلَ لَهُ: قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ: «أَفَلاَ أَكُونَ عَبْداً شَكُوراً!!»[2] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً ، والآية هي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] وانتقلت هذه اللذة بالعبادة والاهتمام بها إلى الصحابة رضي الله عنهم في أشد الأوقات شغلاً ، وأقلقها خطراً ، حتىٰ كان أعداؤهم يعرفون ذلك عنهم ، وقد وصفهم رجل من الروم بقوله: هُمْ فُرْسَانٌ بِالنَّهارِ ، رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ[3].

٦ ـ ومن مزايا الأنبياء عليهم السلام ومن كان على سننهم أنَّهم يأخذون بالعزيمة في الدين ولا يأخذون بالرُّخصة ـ إلا بياناً للحكم الشرعي ، وشكراً لنعمة الله ، ورفعاً للحرج عن الأمة ـ ولا يعفون أنفسهم ، ولا يتساهلون في العبادات ، لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم وقادة الأمة يشمرون عن ساق الجد في العبادات ، والمحافظة على الجماعات ، والعمل بالسنن الدقيقة ، والاهتمام بالآداب ، ولا يكتفون بالأدنىٰ ، ولا يقفون عند الفريضة ، وبذلك استطاعوا أن يورثوا الدين هذا الجيل موفوراً غير منقوص ، وهو

---

(١) تورَّمت ، أي: انتفخت.

(٢) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ، رقم الحديث (١١٣٠) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال... رقم الحديث (٢٨١٩) ، والترمذي في باب ما جاء في الاجتهاد، رقم الحديث (٤١٢).

(٣) قول أسير روي في وصف المسلمين أما هرقل ، انظر (البداية والنهاية) الجزء الثالث ، صفحة: ٥٢.

www.abulhasanalinadwi.org

أمانة عند هذا الجيل ، فلينظر كيف يورثه الأجيالَ الآتية .

٧ ـ ومما يمتاز به الأنبياء والمرسلون: أنَّهم يعنون بتربية النفوس والأشخاص الذين يضطلعون بأعباء الدعوة بعدهم ، وينفذون تعاليمهم ورسالاتهم علماً وعملاً ، ومعلوم أنَّ دعوتهم العظمىٰ لا تقوم إلا علىٰ أكتاف الأصحاء الأقوياء الحنفاء المخلصين في إيمانهم ، والمخلصين في تفكيرهم ، والمخلصين في نياتهم ، الذين قد تنقت رؤوسهم وصدورهم من ألواث الجاهلية ، والذين هضموا الإسلام هضماً صحيحاً ، وانقطعت كلُّ صلةٍ في حياتهم عن الجاهلية بأوسع معانيها ، وخلقوا في الإسلام خلقاً جديداً .

كذلك الدعوة الإسلامية التي تكفلنا بها والجهاد الذي أخذناه على عاتقنا يفرض علينا إنشاء جيلٍ جديدٍ للإسلام ، جديدٍ في قوة إيمانه ، جديدٍ في حماسته وثقته ، جديدٍ في أخلاقه ، جديدٍ في تفكيره وعقليته ، جديدٍ في كفايته العلمية واستعداده العقلي ، وأن نجاحنا في هذا الإنتاج البشري مقياس نجاحنا في مهمتنا ، ودعوتنا ، فكلَّما كان نجاحنا كبيراً في إيجاد هذا الجيل ، وتكوين هذا الشباب كان نجاحنا باهراً في دعوتنا ـ لم يفقد صلاحيته ونموه ـ ليس بالأمر الهيِّن ، إنها مهمة لتنوء بالعصبة أولي القوة ، إنها تحتاج إلى تكريس الجهود ، وتركيز القوى على هذه الغاية ، والتفكير العميق الواسع والتعاون الشَّامل ، والتصميم الحكيم ، إنها تطلب أساليب التربية الحكيمة العميقة الأثر ، وجهوداً عملية في ميدان الدَّعوة والإصلاح ، إنَّها تطلب حركة التأليف والإنتاج الواسعة ، ومقداراً كبيراً من الابتكار ، إننا سنبدأ في عمل جديد ، جهادٍ جديد يستغرق منا وقتاً طويلاً ، ويستنفد جهوداً عظيمة ، وذلك وإن كان عملاً شاقاً ، طويلاً ، متعباً ، مملاً ، متشعباً ، ولكن لا بدَّ من إنجاز هذا العمل ، ومن مواجهة هذه الحقيقة ، والتغلب على العقبات التي تعترض سبيلها .

هذه مزايا الدَّعوة النبوية وواجباتها ، وهذا ما تمتاز به دعوتنا عن الحركات القومية ، والإصلاحات الاجتماعية ، والثورات السياسية والاقتصادية ، ومن هذه المنابع تستمدُّ دعوتنا القوة والروح ، وتستحق من

www.abulhasanalinadwi.org

الله النصر، وتجلب الرحمة، فلنحافظ عليها محافظتنا على الشعائر والعقيدة، ولنحرص عليها حرصنا على الحياة والقوة.

إننا أمة الحاضر، وأمة المستقبل، قد كتب الله لنا الخلود والنصر؛ لأننا أصحاب دعوة ورسالة نبوية، وهي الرسالة الأبدية التي قضىٰ الله بخلودها، وظهورها، فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان بشرط أن نقوم بدعوتنا، ونستقل برسالتنا، ونعود أمة دعوة نبوية كما بدأنا ـ دعوة فيما بيننا معشر المسلمين، ودعوة في غيرنا من الأجانب في الدين ـ.

لقد انتشر أسلافنا في عواصم الجاهلية الأولىٰ، ومراكزها الكبرىٰ يقولون: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فخلَّصوا الأمة الروميَّة، والأمَّة الفارسية وغيرهم من الأمم من عبادة غير الله، والعالم اليوم ينتظر منذ زمان رسل المسلمين، ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية لهتفوا: الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق عالم التنافس، والأثرة، والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة، والإيثار، والزهد، ونعيم الروح، وطمأنينة القلب، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية إلى عدل الإسلام.

هذه هي الدعوة التي تهيب بنا، وهذه الإنسانية البائسة تستصرخنا، وتستغيثنا على أعدائها، وليس العالم اليوم بأقل ظمأ وأقل فاقة إلى الدَّعوة الإسلامية الصحيحة منه الأمس، وهو لا يختلف عمَّا كان عليه في القرن السادس الميلادي، فقد ضاق العالم بالأمم والحكومات، وفاض بالحركات، والدعوات، وضجر بطغيان الأهواء والنزعات، والدعوة إلى الله هي الناحية الوحيدة التي لا تزال فارغة في خارطة العالم، لا تشغلها أمة، ولا دعوة، فإذا عمرها المسلمون؛ أحسنوا إلى الإنسانية وإلى أنفسهم، وأمسكوا هذا العالم المتمدن الذي يكاد يهوي في الهاوية.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الدَّعوة الإسلاميَّة في العَصْر الحَاضِر

جَبهاتها الحاسِمة ومجالاتها الرَّئيسيَّة (١)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد! فإني أحمد الله تعالى ـ وأشكر على من يرجع إليه الفضل وله نصيب في ذلك ـ على إتاحة هذه الفرصة الكريمة للتحدث في موضع الدعوة إلى قادة الفكر، والمسئولين عن الجمعيات والمنظمات الإسلامية، والعاملين في مجال العمل الإسلامي، وذلك في مهد الدعوة الأول، ومبعث الرسول ﷺ، في البلد الأمين.

وحق لي أن أنشد البيت العربي القديم مخاطباً لنفسي:

حَمَامَةُ جُرْعَى حوْمَةَ الْجَنْدَلِ اسْجَعي فَأَنْت بَمَرْأَى مِنْ سُعَادٍ وَمَسْمَعِ

إن موضوع الدعوة أيها السادة! موضوع مطروق معالج كثرت عنه الأحاديث وازدحمت فيه الكتابات والبحوث خصوصاً في الزمن الأخير، وتكونت فيه مكتبة ذات قامة وقيمة، فأريد أن أحدد بحثي في الحديث عن جبهات الدعوة الحاسمة، ومجالاتها الرئيسية، المقررة لمصير العالم الإسلامي، فضلاً عن مسيرة الدعوة، وأركز على النقاط المختارة العالمية (في ضوء دراستي القاصرة، وفي ضوء الواقع وتجارب الماضي)، لحماية الأقطار الإسلامية من التحديات والفتن وبالله التوفيق.

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة، وإثارة

---

(١) هذه المحاضرة ألقاها العلاَّمة الندوي في مؤتمر الدعوة الإسلامية العالمية، الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٤٠٨ هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

الشعور الديني فيها ، فإن تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمسها له ، وهو الدور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثير من القيادات وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادة الإسلام ورأس ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأي غاية نبيلة ، وهي من أقوى المجموعات البشرية وأحسنها سلامة صدر وقوة عاطفة ، وإخلاص.

وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحق بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلب على المشكلات ، والانتصار على العدو ، كتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كل أنواع الشرك والعقائد غير الإسلامية ، وعن النفاق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النار والدمار.

هذا مع تنمية للوعي الصحيح وتربيته والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسة للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية والثقافية ، ولعبة القيادات الدامية والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعى الديني والعقل الإيماني.

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ومن إخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً ، والمغالاة في «تنظير الإسلام» ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية ، لأن هذه الحقائق الدينية هو أساس الإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم ، وبها نزلت الصحف السماوية.

www.abulhasanalinadwi.org

الحذر من كل ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله وطلب رضاه؛ والإيمان والاحتساب والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحول يفقد هذه الأمة شخصيتها وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كل ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية ، والشرك الجلي والعادات والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات غير الإسلامية ، فإن ذلك يتجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسي .

٣ ـ تقوية الصلة الروحية والعقلية والعاطفية بالنبي ﷺ والحب العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكل ، ومنير السبل ، والحذر من كل العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحب ، وإضعافه على الأقل وتحدث جفافاً في الشعور ، وضعفاً في العمل بالسنة ، وتجرُّءاً في القول ، وانصرافاً عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكل ما يحرك هذا الحب ويغذيه ولعل البلاد العربية (بفعل أحداث ، ودعوات قومية) أحوج إلى العناية بهذه النقطة ، وأحق بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفي لغتها نزل القرآن ونطق الرسول .

٤ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة الفكرية والتربوية والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى بر السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنه ليس «بطارية» قد نفدت شحنتها ، أو ذبالة قد نفد زيتها ، واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها .

إن ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هوداء هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضعفها ، وهو المسئول عن كل تصرفاتها

www.abulhasanalinadwi.org

وسبب الردة الفكرية والحضارية ، والتشريعية التي تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتعانى منه الشعوب المسلمة ـ التي لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق الواسعين القيادات والحكومات والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ، ويستهلك القوى والطاقات في ما لا يعود على الأمة والبلاد بفائدة.

٥ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب ، المنتشر السائد في العالم الإسلامي ، رأساً على عقب ، وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً ، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، لا يبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو المادية ، وتصور هذا الكون تصوراً مادياً ، والعلوم وحدات متناثرة متناقضة ، والطبيعة حرة قاهرة ، والتاريخ حوادث غير مرتبطة خاضعة لقلق وصراع دائمين ، ولا يصلح نظام التربية والتعليم إصلاحاً جزئياً فحسب ، بل يبتكر ابتكاراً جذرياً ، مهما استنفد من الطاقات ، وكلف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلامي على قدميه وبرأسه ، وعقله ، وإرادته وتفكيره ، ولا تدار الحكومات والأجهزة الإدراية ، والمرافق العامة برجال مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومات والإدارة ، والتربية والإعلام والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع الإسلامي بسماته وخصائصه.

٦ ـ حركة علمية قوية دولية ، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحاً من جديد ، وتثبت للعالم المتمدن ، أن الفقه الإسلامي ، وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادىء الخالدة التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدي الناس.

www.abulhasanalinadwi.org

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها ، وتجريد أمة عن حضارتها الخاصة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادف لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلابد للحكومات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية من التخطيط المدني الإسلامي المستقبل ، البعيد عن تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ومركب النقص ، ولابد من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ومنتزهاتها ، وإلى مكاتبها وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامي نموذجاً للحياة الإسلامية والمثل الإسلامية فحسب، بل يقوم بدعوة صامتة للإسلام.

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلامي ، حضارة قوية عصرية ، مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى ، والرحمة والعدل في جانب ، وعلى القوة والانتاج ، والرفاهية ، وحب الابتكار في جانب آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمتهم ، وبلادهم ، وما ينفع عملياً ، وما ليس عليه طابع غرب وشرق ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميل وقرين ، إن كان في حاجة إلى أن يتعلموا منه كثيراً فهو في حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيراً ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب.

٩ ـ إقناع الحكومات ـ في بعض البلاد الإسلامية التي مثلت دوراً رائعاً في تاريخ الدعوة والحضارة الإسلامي ـ المشغولة بحرب إبادة للعنصر الإسلامي ، أو عملية «تطوير للإسلام» وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، أو أهواء قادتها الشخصية ، بأنها سياسة عقيمة لم تنجح في بلد إسلامي ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وإمكانياتها إلى عدو مشترك ، وإلى ما يقوي البلاد والأمة.

www.abulhasanalinadwi.org

وإقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة ، وتهيئة الجو المناسب ، المساعد على ذلك وما يستتبع هذا الأمر من سعادة وبركة ونصر من الله ، وسعي لتكوين قيادة موحدة تقوم على مبدأ الشورى الإسلامي ، والتعاون على البر والتقوى ـ والشعور بالتقصير على الأقل ـ بعدم وجود الإمامة العامة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلف بها المسلمون وسيحاسبون عليها.

١٠ ـ أما بالنسبة إلى البلاد غير الإسلامية ، فالقيام بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به بأساليب حكيمة تتفق مع طبيعة الإسلام وروح العصر ، أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلاً يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسؤولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي والخواء الروحي ، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومة وشعباً ، حتى يتهيأ للإسلام أن يثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغي والقيادي في هذه البلاد.

١١ ـ وأخيراً لا آخراً هو ما تفرضه طبيعة الإسلام وتاريخه المجيد ، وتقتضيه الفطرة السليمة ، ونفسية الإنسان الدائمة ، والأوضاع السائدة ، هو وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية ، في العالم الإسلامي ، تقترن بصفات الرجولة والطموح وعلو الهمة وبعد النظر ، والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملكت زمام قيادة البشرية وأصبحت تتحكم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية ـ من غير حق ومبرر ـ وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة ولدعوى القوى ، وثقتهم بفضل الإسلام وحاجة البشرية إليه.

ويقترن نشاط هذه الحركة أو الدعوة الإسلامية بروح التضحية والبطولة والجلادة والتقشف والقدرة على المغامرات ـ إن كان لابد منها ـ فإن الناس ما زالوا مفطورين على تقدير الإيمان القوي. والاعتزاز بالعقيدة والمبدأ ، والاستهانة بالمادة واللذة ، والعزة ، وروح المخاطرة ، وعلى الإجلال

www.abulhasanalinadwi.org

لشيء لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القوى والفقير مفطور على احترام الغني والأمي مفطور على احترام العالم ، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم ، ولأن تاريخ الإسلام مليء بالبطولات والمغامرات ، ولأن الواعين والمتتبعين لواقع الأمم والبلاد ، وأصحاب الضمائر الحية قد سئموا وضاقوا ذرعا بسياسة الحكومات والقيادات الغربية والشرقية وأصحبوا يمقتونها ويكرهونها كرهاً شديداً.

إن وجود هذا الفراغ ـ عدم وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية ، ومجتمع قوي سليم من أدواء العصر الحديث والحضارة المادية الراعنة ، يقوم على تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ خطر كبير على الوجود الإسلامي ، وعلى العقيدة الصحيحة والحياة الإسلامية ، فإن وجود الفراغ في شيء ضروري وفي مصلحة بشرية شيء غير طبيعي لا يصلح للبقاء طويلاً ، وقد يسبب ذلك نشوء حركة منحرفة زائفة ، فاسدة العقيدة والمنهج ، سلبية هادمة مدمرة ، ويعرف الدارسون لتاريخ الديانات والدعوات والحركات ، وللتاريخ العام ، أنه إذا وجدت هذه الحركة المنحرفة واقترن نشاطها ودعاويها بالتضحيات والمغامرات ، وبالتقشف ومظاهر الزهد وهتافات التحدي للطاقات الكبيرة ومواجهتها لتهديداتها وأخطارها ، بشجاعة وصمود ، ونقدها للأوضاع الفاسدة السائدة في بعض أجزاء العالم الإسلامي التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ ولو كان في ذلك نصيب كبير من الدعاية والمظاهر ووسائل الإعلام الجبارة ـ كان له سحر على النفوس ـ خاصة في أوساط المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، المتألمين من الواقع المرير الذي تورطت فيه بعض المجتمعات الإسلامية ـ سحر لا يبطله وعظ واعظ ، أو مقال لكاتب ، أو استدلال منطقي أو بحث علمي ، يشهد بذلك تاريخ الخوارج في القرن الإسلامي الأول ، وتاريخ الباطنية والفدائيين في القرن السادس والسابع الهجريين ، وحكايات حسن بن الصباح وما كان يجري في مركزه قلعة «الموت» وتاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة باسم الإسلام والاصلاح كذباً وزوراً أحياناً كثيرة ، وبعض الحركات والثورات

www.abulhasanalinadwi.org

المعاصرة التي استطاعت أن تجند ألوفاً من الشباب في تحقيق مآربها السلبية وأهدافها الخطيرة ، يضحون بحياتهم في سبيلها متطوعين مندفعين ، وقد استرعت انتباه العالم واستجابت لها بعض أوساط المعنيين باليقظة الإسلامية والحالمين لمجد الإسلام وعظمته ، من غير أن ينقدوها نقداً بريئاً جريئاً في ضوء النصوص القرآنية والعقائد الإسلامية ، والدراسات المقارنة الأمينة للفرق المنتحلة للإسلام.

ويعرف قادة المسلمين ومفكروهم ، أن السيل لا يمسكه إلا سيل مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيار أقوى منه ، وواقع العالم الإسلامي ـ ومعذرة ـ اليوم في الجمود والاستنامة والإخلاد إلى الراحة ، وعدم وجود دعوة إيمانية قوية ، وروح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة ، والأهداف الصالحة وعدم اكتفائهم العسكري والفكري ، نذير خطر دائماً ، وممهد الطريق للوقوع في شبكة هذه الدعوات المنحرفة الزائفة التي يجد فيها شباب المسلمين والمتذمرون من الأوضاع الحالية طلبتهم ومنشودهم ، وما يرضي طموحهم ويزيل قلقهم ، وإن كان ذلك ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [النور : ٣٩] ولكنها نفسية الإنسان وتجربة الأمم ، والحقيقة الأليمة التي يجب أن ينتبه لها كل معني بحاضر الإسلام ومستقبله ، وسلامة العقيدة وصحة التفكير ، والإيمان بالله ورسوله وتعاليمه.

وأختم هذا الحديث القصير بقوله تعالى الذي خاطب فيه المجموعة الصغيرة من الأنصار والمهاجرين التي حثها على المؤاخاة وربط بها مصير العالم والإنسانية :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

www.abulhasanalinadwi.org

دَور الجامعات الإسلامية المطلوب

في تربية العُلماء وتكوين الدُّعاة (١)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

سادتي الأجلاء ، وزملائي العاملين في مجال التعليم والتربية ، وإخواني المعنيين بحاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها ، ورسالتها وشخصيتها ! .

أنتهز هذه الفرصة الكريمة التي لا تسنح إلا بعد آجال طويلة ، للتحدث في موضوع أعتقد أنه بالنسبة إلى الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي ، قضية حاسمة شديدة الحساسية والخطورة ، وأومن بإخلاص وفي حماس أنه إذا لم تكن لهذا الالتقاء العلمي التعليمي الإسلامي العالمي ، الكريم قيمة ونتيجة غير هذا البحث والوصول إلى نتيجة منه ، كان التقاءاً مباركاً حاسماً يملي تاريخاً جديداً ، ويفتتح عهداً سعيداً للأمة الإسلامية بإذن الله تعالى ، ويزيد هذا اللقاء قيمة ومكانة وجود عدد كبير أو أكبر عدد متيسر ـ إذا لم أكن مبالغاً أو متفائلاً أكثر ـ من أصحاب الاختصاص في التعليم الإسلامي ، والأساتذة الكبار والمشرفين على الجامعات الإسلامية وقادتها وموجهيها ، ويحق لي لذلك أن أخاطب نفسي بما قاله الشاعر العربي القديم وأنشد :

---

(١) قدَّم العلامة الندوي هذا البحث القيم في مؤتمر تكوين الدعاة ، الَّذي انعقد في جامعة الأزهر بالقاهرة ، عام ١٩٨٧ م .

www.abulhasanalinadwi.org

حَمَامَةُ جُرْعَى حَوْمَةَ الْجَنْدَلِ اسْجَعْي فَـأَنْتِ بِمَـرْأًى مِـنْ سُعَـادٍ وَمَسْمَـعِ

الغاية الأولى والأساسية من التعليم:

أيها السادة! وفقني الله أن أقرأ كثيراً مما يتصل بالتعليم والتربية وغايتهما المنشودة ، والفائدة التي يجب أن تجنى منهما ، لكنى أكتفى بهذه المناسبة بتقديم شهادة واحدة فيما يتعلق بتعريف العلم وتحديد غرضه لخبير تعليمي بريطاني معروف (Sir Prrxy neinn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

«لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً: أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها ، إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، وتمد يدها إلى الأمام»[1] .

إن هذا التعريف بالتعليم والتربية هو أروع وأجمع وأكثر تواطئاً مع العمل والتطبيق من بين جميع المحاولات التي بذلت في سبيل التعريف بالتعليم والثقافة .

ما هي غاية التربية؟ وماذا يراد من ورائها ، ولماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم ، ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاء وعلى طريقة منظمة ، ألكى يوجد التعليم فجوة بين الأمة وبين ما تعتز به وتتبناه من معتقدات وأغراض ، وتراث حضاري وعلمي وتصورات ، سواء كان كل ذلك مما ينبغي الاعتزاز به أم لا ، لكن الشيء الذي تحبه ، والمعتقدات التي تعتز بها ، والتصورات والقيم والمثل والعقائد والأفكار التي تتغنى بها ، والتراث الذي توارثته من آبائها وأسلافها ، من وظيفة التعليم الأولى أن

---

(١) دائرة المعارف البريطانية بند «التعليم» (Education) The Encyclopedia of Britannica.

www.abulhasanalinadwi.org

يربط بين الأمة وبين هذه الأشياء ، وينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة والنشيء الجديد ، ذلك التراث الذي أفرغ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم ، وبذلوا مدة طويلة من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمة في سبيله وحاربت وجاهدت وضحت بعزها وشرفها ومجدها التليد ، ومن الفضول أن نتعرض بهذه المناسبة لما إذا كانت القيم التي حاربت الأمة من أجلها قيماً صالحة أم لا؟ لكن مسئولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة ، ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمقه في القلوب والأذهان ، ويجعل القلوب والعقول تسيغه وتتذوقه ، ولا يعود نابياً لديها أو أجنبياً عندها ، بل يعود مألوفاً لها ، ومحبوباً عندها ويصير طبيعة لها .

أمة محمد ﷺ أمة ممتازة في خصائصها ومزاياها ، وصياغتها وعناصر تركيبها :

أرى أن هذا التعريف بالتربية بقلم خبير بريطاني تعريف جامع جداً ، لكن إذا كان الأمر أمر أمة عقائدها وقيمها ليست من عند نفسها ، بل هي نابعة من الوحي الإلهي ، والكلام الإلهي ، والنبوة والرسالة ، والعلم اليقيني الغيبي الأزلي الذي لا يحول ولا يزول ولا يتغير قليلاً أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسئولية وتتضخم .

فإذا كان هناك تعليم يزعزع عقائد تلاميذه ـ من شعور أو من غير شعور ، عن قصد أو عن غير قصد : عن خطأ أو عن خطة مدبرة ـ ويزعزع جذور قيمهم في قلوبهم ، ويفكك عراها ويمزقها ويثير في قلوبهم شكوكاً وشبهات لا تزول ، وصراعاً نفسياً ، ويتجاوز هذا الصراع الأفراد إلى الحياة الاجتماعية للأمة ، ويتحول الصراع إلى حرب دامية شعواء بين تلك القيم والمفاهيم والتصورات والمعتقدات ، والأفكار والعقائد ، وبين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم وتلك الثقافة ، فالأمر أدهى وأمر .

أيها السادة! إني لا أؤمن بالإسلام كتراث (legacy) ولا أرى ذلك تعريفاً لائقاً بالإسلام : ولذلك فإني لست معجباً بالكتب التي وضعت بعنوان : (legacy of Islam) و(Heritage of Islam) إني أرى الإسلام رسالة

www.abulhasanalinadwi.org

للحياة ، ولا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب ، بل أراه قائداً للزمان ، وموجهاً له ، لا أراه مرافقاً للزمان في رحلة الحياة بل أراه مرافقاً للزمان ومراقباً له ، فإذا كان هنالك مثقف بالتعليم العالي يقع فريسة الشك والارتياب في جميع قيمه وتصوراته ومعتقداته ، أو يعود يراها دمى يسلي بها الصبيان والأطفال ، أو أسطورة يتعلل بها السذج والجهال ، أو يصبح لا يتحمس لها ، ولا يقاتل في سبيلها ولا يدافع عنها ولا يغامر من أجلها إذا مست الحاجة إلى ذلك ، إذا كان ذلك فإن هذا التعليم عدو لدود لمن يحصله يجب أن يفر منه فرار الإنسان من الأسد بل أكثر من ذلك .

قضية البلاد الإسلامية أهم وأكبر خطراً :

أيها السادة! وحين أتحدث إليكم في هذا الحفل الكريم ، وفي رحاب جامع الأزهر الشريف ، فإني أخاطب العالم الإسلامي كله ، إن الأمر يصبح ذا خطورة وحساسية وتعقيد إذا كان يتعلق ببلد إسلامي تعيش فيه أمة ذات شخصية ، وذات خصائص ومميزات ، ذات دعوة ورسالة ، ومكلفة بقيام دور فريد في العالم البشري ، تنبع معتقداتها وقيمها ومثلها ، وتصوراتها وأفكارها ، ووجهات نظرها من الوحي الإلهي ، فإذا كان التعليم يحدث صراعاً في مثل هذا الجيل ، ويجعله يخلع معتقداته وتصوراته العريقة بعدما يتخرج في جامعة عصرية ، ويصبح وكأنه أمة جديدة أو أمة أجنبية تبدو نابية قلقة بين الشعب المسلم ويحصل من ذلك كله تعقيد جديد ، وتحدث مشكلة جديدة ويحدث صراع مرير ـ وقد يكون صراعاً دموياً ـ بين هذا الجيل المثقف وبين عائلته الإسلامية وآبائه وأمهاته ، وبين المجتمع الذي هو عضو فيه ، وبين تاريخه وتراثه ، وقيمه ومآثر أسلافه ، وبين منصبه ومكانته التي حباها الله إياه ، وبين رسالة الإسلام والعمل الإسلامي ، وآمال الأمة الإسلامية وأحلاممها ، إذا كان كل ذلك فإني لاأرى في هذا التعليم خيراً ، ولا أراه خدمة للإنسانية ، بل إنه خيانة للأمة وجناية على الإنسانية .

المسئولية الأولية للجامعات في بلد إسلامي :

ومعذرة إليكم فإني لا أشير إلى جامعة بعينها ، ولا إلى المسئولين عن

www.abulhasanalinadwi.org

جامعة محدودة ، وإنما أتعرض لأمر مبدئي وأريد أن أقرر أن المسئولية الأولى والأهم والأقدم لجامعة تقوم في بلد إسلامي ، هي أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التي تؤمن بها ، والحضارة التي تحتضنها والدعوة والرسالة التي تتبناها ، والخصائص والمزايا التي تحملها ، حتى لا يعود هذا الإيمان إيمان رجل عادي أو إيمان رجل الشارع بل يكون إيمان عالم ، إيمان مثقف ، إيمان دارس ، ويطمئن عقله كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال: «قلبه مؤمن وعقله كافر» ، مشيراً إلى فيلسوف غربي... وإذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد والجماعة ، فإنه كذلك لا يجوز بين القلب والعقل في حياة المرء الانفرادية ، فإذا كانت هناك جامعة تسبب هذا الصراع ، أو يسببه منهاجها التعليمي ومنهجها العلمي ، ونظامها الإداري ، وبيئتها العلمية ، فذلك شؤم لا شؤم بعده للبلد الذي تقوم فيه الجامعة.

لابد من اطمئنان القلب والعقل معاً:

إن الغاية الأساسية للجامعات الإسلامية ، أن توجد الإيمان بتلك الأشياء التي أشرت إليها ، الإيمان الذي يأتي عن طريق العلم والثقافة والدراسة ، وعن الشعور والتفكير ، وعن طريق اقتناع العقل ، وعن الدراسة المقارنة ، وإذا كان هناك رجل إنما يؤمن قلبه ولا يطمئن عقله ، وهو يعلل عقله ويسليه ، ويحاول أن لا يستيقظ عقله ، شأن الأمم غير المسلمة العديدة التي ترى بقاء دياناتها ورقيها في عدم يقظة الشعور ، وتحاول أن يظل أتباعها سادرين في سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النور والهواء ، ومن هنا وقع بين «الكنيسة» و«العلم» ذلك الصراع الدموي الذي تقرؤن قصته المؤلمة المفجعة في كتاب «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between Religion Science) للعالم الأمركي المعروف «درابر» (Johan William Draper) وإنما وقع هذا الصراع لأن الكنيسة كانت ترى أن الخير كل الخير في تبلد الشعور الإنساني بل كانت تعمل فعلاً على تخميده وإماتته ، وكانت تؤمن بأن من الخير والسعادة أن يكون الإنسان محدود العلم قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلاً ، وما دام الحال على

www.abulhasanalinadwi.org

هذا المنوال ، كان الإيمان بالكتاب المقدس راسخاً قوياً ، وكانت المسيحية عميقة الجذور ، بعيدة الغور في المجتمع ، ذلك أن العهد العتيق كان يشتمل على كثير مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ويفنده ، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة أن لا يتيقظ شعور المسيحي ، ولا يتفتح وعيه ولا يتسع أفقه ولا يتقدم العلم ، فحاولت أن تقف في وجه العلم لأنها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، فأنشأت محاكم التفتيش الديني العقائدي (Courts of Inquistion) وانتشرت في ربوع العالم المسيحي وعواصمه ومراكزه ، ومنحت الحرية المطلقة في محاكمة أصحاب النظريات العلمية والاكتشافات في عالم الطبيعة والفلك والعلوم الطبيعية ، وإجراء العقوبات القاسية الوحشية على معتنقيها ومعلنيها ، وقد أثبت بعض المؤرخين أن ضحايا هذه المحاكم يربو عددها على عدد المصابين والقتلى في الحرب الكونية الأولى [1]، وقد جر هذا الحجر العلمي والفكري وفرض إطار خاص ودائرة محدودة من الدراسات وكتب المطالعة على الشباب والدارسين ضرراً كبيراً على مستقبل الدين وعقلية الجيل الصاعد ، وأحدث حركة رد فعل عنيفة ضد هذا الاحتكار العلمي والاستبداد الديني والنظر الضيق المتزمت.

درس من تجارب الماضي:

وقد أثبت علم التربية وعلم النفس أن الحجر على الشباب في القراءة والاطلاع ، كالحجر على الأطفال القاصرين الذين لم يبلغوا سن الرشد ، تجربة مخففة وعملية مثيرة فيهم التساؤلات والشكوك ، والنهامة بالممنوع المحظور ، وأن هذا الصنف من الدارسين غير جدير بالثقة في مواجهة الأفكار الغربية والتحديات العلمية والعقائدية ، إن المنهج التربوي المتزن السليم هو الاطلاع على وجهات النظر والمدارس الفكرية المختلفة مرفقاً ذلك بتوجيه الأساتذة الراسخين في العلم والدين ، مع مناقشتها وعرضها على المحك العلمي والديني ، مع مناقشتها وعرضها على المحك العلمي

---

(١) John Dabenport، Apology for Muhammad and The Quran.

www.abulhasanalinadwi.org

والديني وتقرير الصحيح وتزييف الزائف ، وذلك مما يتفق عليه خبراء التربية وأصحاب التجربة والاختصاص في علم النفس وعلم الاجتماع .

يقول ا. وهتني جريسولد (A.Whitney Griswald) في كتابه مقالات حول التعليم (Essays on Education) :

«كانت عاقبة الرقابة والتعذيب ، الفشل دائماً في التاريخ ، إن أقوى سلاح وأنفذه لمكافحة الأفكار السيئة ، هو سلاح الأفكار الطيبة ، ولا تنبع الأفكار طيبة إلا من منبع الحكمة ، وليس هناك طريق أضمن لحصول الحكمة إلا طريق التعليم الحر الذي لا عنف فيه» .

ويقول ثيودر شرويد (Theodore Schuoeder) في كتابه **«العبودية العقلية»** (Intellectual Slavery) :

«تساعد الرقابة على الاحتفاظ بمختلف أشكال الظلم ووقايتها ، وننخدع بهذه الوسائل ونحسبها ضماناً لحريتنا وديموقراطيتنا ، لكنها تحرمنا الفراسة التي نحتاج إليها في الطريق الطبيعي للنمو الاجتماعي وعادة يجهل هذا الجهل الثورات أكثر دموية» .

واضطرت المسيحية أخيراً أن تضع السلاح أمام مد العلم وسيله الجارف ، وتياره العنيف ، لأنه حاجة الإنسانية ومقتضاها الطبيعي ، وعاطفة الإنسان الداخلية ونعمة الله الغالية ، وضرورة العالم البشري ، جعله الله لكي يخضر وينمو ويورق ويثمر ، لا لكي يذوي ويذبل ويموت ، وهل تموت الحقائق؟ على كل فان العلم كسب المعركة وذاقت الكنيسة هزيمة وعاراً وشناراً منقطع النظير أمام العلم وتطلع الإنسان إليه وطلبه الجامح له .

تلك هي الكارثة المشئومة التي وقعت في العالم المسيحي ، ولكنها تركت آثارها على دنيا البشر كلها وعلى جميع الديانات تقريباً ، وقد جعلت الناس يفهمون أنه لا يمكن أن يتقدم العلم والعقل معاً وأن يساير الدين العلم ، ولابد هنا بصفتي دارساً للتاريخ أن أعترف ـ مع الأسف ـ أن هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول في بعض الدول الإسلامية

www.abulhasanalinadwi.org

ولو لبعض الحين ، لكنه ما لبث أن لقي حتفه ، لأنه يتنافى مع روح الإسلام وطبيعته ولم يدع هذا الصراع المصطنع في العالم الإسلامي ، وإنما كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنه غاب وانقشع كسحابة صيف ، أو بسرعة أكثر منها.

مصير العلم مرتبط بالقلم:

أرى أن من واجبات الجامعات الإسلامية أن تحاول أن لا تقع فجوة بين العلم والدين كما وقعت بينهما في العالم المسيحي ، أو في دنيا الديانات التي لم تكن فيها رابطة بين العلم والعقل ، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولدت وازدهرت بمعزل عن العلم والعقل بل على غفلة من العلم والعقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل ، ولكن لا يتصور ذلك في الدين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلي:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

الدين الذي لم ينس هذا القلم المتواضع حتى في الحلقة الأولى من وحيه ، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الربانية ، لم ينس أن يؤكد أن مصير العلم مرتبط بالقلم ، لم ينسه في خلوة غار حراء التي ارتادها نبي أمي يتلقى الرسالة الإلهية لهداية البشرية ، ذلك النبي الذي لا عهد له بالقلم ولم يعرف من ذي قبل كيف يحرك القلم ، ولم يتعلم فن الكتابة والقراءة بتاتا ، شيء لن يجد الإنسان نظيره في تاريخ العالم البشري ، ولا يمكنه أن يتصور هذا المكان العالي ، لا يمكنه أن يتصور أن ينزل وحي على نبي أمي بين أمة أمية في منطقة لم تعرف القراءة والكتابة معرفة تذكر ، فضلاً عن المدارس والمعاهد ودور التعليم والجامعات ، في الوقت الذي لأول مرة تم فيه اتصال السماء بالأرض بعد مدة قرون ، ولا يبتدىء هذا الوحي بكلمة «أعبد» ولا بكلمة «صل» أو ما إليهما من الكلمات المتجانسة ، وإنما يبتدىء بكلمة «اقرأ» يخاطب المنزل عليه

www.abulhasanalinadwi.org

بالقراءة ولا عهد له بها ، لكن يقرر ويؤكد له أن الأمة التي يكلف بهدايتها وتربيتها وتعليمها هي أمة ليس ولوعاً بالعلم فحسب ، بل ستكون معلمة العالم مولعة بنشره وتصعيده وترقيته ، والعهد الذي تقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ والتربية والتعلم ، إنه ليس عهد الأمية والوحشة والجهل ، وعهد الظلمة والهدم والتخريب ، وإنما هو عهد العلم والعقل والتفكير ، وعهد النظر والحكمة ، وعهد البناء والتعمير ، وعهد حب الإنسانية ، وعهد الرقي والتقدم.

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صح التعبير ـ في تاريخ الديانات وتاريخ العالم أن الوحي الأول الذي نزل على النبي الأمي بين الأمة الأمية كانت بدايته بكلمة «اقرأ» : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ كان من الخطأ الفادح أن انطقعت صلة العلم بالرب ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النبي الأمي يصله بالله ويربطه بالرب تبارك وتعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الرب ، لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم والتعليم والقراءة باسم الرب الذي وهب هذه النعمة الغالية ومنَّ بها على عباده وهو الذي خلقه ، فلا يتقدم تقدما متزناً إلا تحت توجيه وهدايته ، إن الآية التي نتحدث عنها ، إنها ذات ثورة وانقلاب عظيم في التفكير والعقلية والنفسية ، قرعت الآذان البشرية في بداية الإسلام ، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحد على بال ولم يتصوره في حال من الأحوال ، لو سئل الأدباء والحكماء والفلاسفة والعلماء في العالم البشري عن مفتتح هذا الوحي الذي سينزل على النبي الأمي ، لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمة التي نزل بينها الوحي ويعرف عقليته ـ ليقول إنه سيبتدىء بكلمة «اقرأ» كان لهم أن يتنبأوا بكل شيء ، ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أن الوحي سيكون استهلاله بكلمة «اقرأ» ثم إنه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وإنما بالقراءة ، والقراءة تتضمن الكتابة والقلم والورق ، بينما العلم قد يكون وهبياً لا يحتاج إلى القلم والقراءة والكتابة والورق ، مما دل على أن هذا العلم سيكون وليد القلم ، وليد الورق ، وليد الكتابة ، وليد المكتبات والكتب

www.abulhasanalinadwi.org

والمؤلفات والصحف ، وليد التجارب وليد الذكاء: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ .

هذا الدين لن يفارق العلم:

مما يجب الانتباه له أنا الوحي الإلهي أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن يفارق العلم ، لأن الرسالة الأولى التي وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة ، والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيقي ، ولا يجوز له أن يدعي أنه ممثل صحيح للإسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ كيف ينبه الوحي الإلهي على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هاد كامل ، وليس هو إلا الله العليم الكريم ، لأن الرحلة طويلة شاقة ، معقدة خطرة ، والطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحار وأنهار ذات عمق سحيق ، وتتخللها غابات كثيفة فيها سباع مخوفة ، ويحات وعقارب سامة ، وكل حيوان ضار .

لكنه ليس مجرد علم ، ليس عبارة عن معرفة بالدمى واللعب ، وليس عبارة عن التسلية ، وليس مما يحرش فيما بين الإنسان والإنسان والأمة والأمة ، وليس عبارة عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارة عن تحريك اللسان ولوك الكلمات بل هو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ .

فهل رفع من قيمة القلم أحد في التاريخ البشري أكثر من ذلك؟ حيث يذكر بهذه الأهمية ، وبهذا التمهيد الكريم ، في خلوة غار حراء ، وفي الوحي الأول الذي ينزل من السماء ، ذلك القلم الذي ربما لم يكن بالإمكان تواجده في بيت من بيوت مكة ، لا أكاد أدرى لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدة أم لا ، ربما وجدتموه في بيت ورقة بن نوفل ، أو أي رجل تعلم الكتابة في ديار العجم ، القلم الذي ربما لا تجدون ذكره في دواوين الشعراء العرب الجاهليين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات وأعدتم القراءة .

www.abulhasanalinadwi.org

عصارة كل علم وثقافة «علم الإنسان ما لم يعلم»:

ثم دل على حقيقة خالدة ذات انقلاب عظيم، وهي أن العلم لا حد له ولا نهاية، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وليس العلم الحديث (SCIENCE) إلا انعكاساً لـ «علم الإنسان مالم يعلم» وكذلك التكنولوجيا ليس إلا مظهراً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وينزل الإنسان على القمر، ولا يعني ذلك إلا ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ويغزو الفضاء، ويطوي أرجاءه طياً، ويسخر أشعة الشمس ويشق طريقه بين النجوم والكواكب ويحلم بالنزول بين السماكين، إن كل ذلك ليس إلا عبارة عن ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

على كل فإن الأمة التي كان أساسها الأول على القراءة، وخاطبها الوحي الإلهي الأول بذكر القلم، إن تلك الأمة لن تفارق العلم والمعرفة، لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم.

ثم يجب أن يكون في الاعتبار لدى إنشاء كل مدرسة أو جامعة أو اتخاذ منهج تعليمي لتعليم هذه الأمة، أن يكون الهدف من كل ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد والحقائق التي آمنت بها من ذي قبل، وأن يتأتى هذا الترسيخ عن طريق القلب والعقل معاً، ولا يكفى اطمئنان القلب أو العقل فقط، لأنه حينئذ سيحدث صراع بينهما في الحياة الفردية للإنسان، وسيتدرج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية... وعلى ذلك فيتخرج جيل يتصارع مع مجتمعه، ويتصارع مع دينه وعقيدته، وتضيع كل القوى في إزالة «الأنقاض» فقد رأى بعض قادة بعض الشعوب والبلاد الإسلامية أنه يجب أولاً إزالة الأنقاض، وركزوا كل عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد والحقائق، واستنفذت هذه العملية كل قواهم، واستغرقت فرصة أعمارهم، ولم يتمكنوا من عرض دعوتهم ونشر رسالتهم، وزرع أفكارهم التي كانوا بصدد نشرها.

فإذا كان منهاج يعمق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق التي تحتضنها فهو منهاج موفق، ولا سيما بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذي جاء يحمل رسالة

www.abulhasanalinadwi.org

ويحتضن دعوة ، فيجب أن يكون منهاجنا التعليمي ، والثقافي بحيث يرسخ الإيمان في قلب المثقف وقلب الدارس وقلب الطالب الجامعي ، وقلب الفيلسوف وقلب المفكر ، ويجعلهم جميعاً توفر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون الثروة العلمية القديمة والجديدة المنتشرة على ظهر البسيطة في تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة .

أيها السادة! إذا استطاعت جامعة أن تصنع ذلك فهي الجامعة التي تستحق أن تسمى جامعة إسلامية ، وأعتقد أن ذلك خير تعريف لها .

حماية الدين من التحريف والمسلمين من الانحراف :

وعلى حملة علوم الدين وأصحاب الرسوخ والاختصاص فيهامن المتخرجين في الجامعات الإسلامية ، والمدارس الدينية ، وعلى الدعاة ، عهدة صيانة الإسلام عن التحريف والمسلمين عن الانحراف ، والحفاظ على الدين ، والذب عن حوزته ، ويحتاجون من أجل القيام بذلك إلى الصفات الدقيقة السامية المثالية ، والقوة الروحية الداخلية ، والثقة بخلود الدين ، والغيرة عليه ، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والإسلام والإشراك والتوحيد والسنة والبدعة ، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[1] ، ومطالعة تاريخ المصلحين المجددين للدين في عصور مختلفة[2] إلى ما يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله في نشر دين من الأديان ، ولذلك فإن هذا الواجب وضع على عاتق العلماء ، ونائبي الرسول ﷺ ، وخص به العلماء الربانيون المتفقهون في الدين الغياري عليه المميزون بين الإسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطلعون على تاريخ الديانات والصحف التي تعرضت لتحريفات المحرفين وأغراض المغرضين ، وقد جاء في حديث صحيح : «**يَحْمِلُ هَذَا العلم مِنْ كُلِّ خَلَفٍ**

---

(١) ليراجع للتفصيل رسالة العلامة الندوي : «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» ، طبع المجتمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء لكهنؤ ـ الهند .

(٢) ليرجع للاطّلاع عليهم إلى سلسلة العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار ابن كثير دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

عُـدُوْلُـهُ ، يَنْفُـوْنَ عَنْـهُ تَحْـرِيْـفَ الْغَـالِيْـنَ وَانْتِحَـالِ الْمُبْطِلِيْـنَ ، وتَـأْوِيْـلِ الْجَاهِلِيْنَ»[1].

وما كانت لتجري هذه الكلمات العميقة المعاني ، والدقيقة الدلالات إلا على لسان نبي مرسل صادق مصدوق فلو قرأتم تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، والمساعي والمجهودات التي قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدين لوجدتم جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الدين تأتي تحت هذه العناوين الثلاثة ، إن للكلمات أعماقاً وآفاقاً هي أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرجال وتحد بحدود النماذج والأمثال.

ومن واجبات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية هو صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتطورات العصرية الغريبة ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التي نشأت في أجواء خاصة ، وبيئات مختلفة ، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ ، وهي خاضعة دائماً للتطور والتغيير ، فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض والكرامات ، بل أكثر منها وأشد ، لأنها حصون الإسلام المنيعة وحماه وشعائره ، وإخضاعها للتطورات الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان ، وإضعاف لها لا تقوية ، وتعريض للخطر لا حصانة ، ونزول بها إلى المستوى الوطني المنخفض لا رفع لشأنها كما يتصور كثير من الناس.

العناية بتربية السيرة:

والوظيفة الثانية للجامعات هي تربية السلوك والسيرة ، حتى يكون المتخرجون فيها قدوة للعلماء والدعاة فضلاً عن أفراد الأمة وأحاد الناس ، فلتوجد الجامعات سيرة يربأ صاحبها بنفسه عن أن يبيع ضميره «بحفنة من

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشاميين ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، رقم الحديث (٥٩٩) ، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت.

www.abulhasanalinadwi.org

شعير» إن الفلسفات والنظم المضادة للإسلام ترى أن إنسان اليوم يمكن شراؤه في السوق بقيمة أو بأخرى ، فإن لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية أكثر منها . . . وسر النجاح الحقيقي لجامعة ما أن تربي السيرة ، فتخرج رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأي قيمة مهما كانت رفيعة غالية ، ولا تستطيع فلسفة هادمة أو دعوة منحرفة ، أو حكومة ذات سياسة خاطئة ، أو قوة مدمرة ، مهما كانت لبقة ذات دهاء ، أن تشتريهم بأي ثمن غال ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال أو بلسان الحال : «**نَرَى العَنْقَاءَ أَكْبَرَ أَنْ تُصَادَا**» .

يقول الدكتور محمد إقبال :

«إن حرية القلب هي سيادة وسلطان ، أما العناية الزائدة بالبطن فهي مدعاة للموت ، والخيار بيدك ، فإما هذا وإما ذاك» ، يا أيها الطائر اللاهوتي! (يخاطب الإنسان المسلم) اعلم أن الموت خير من القوت الذي يقصر جناحك ويمنعك من التحليق» .

من عوامل التأثير في المجتمع وقوة المقاومة للتحديات والمغريات :

ويحلو لي أن أنقل هنا قطعة من كتابي : «رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الجزء الأول) ، بمناسبة الحديث عن زهد الإمام أحمد بن حنبل وتوكله على الله وعزوفه الزائد عن أموال الحكومة وعطاء الخليفة والأمراء : «وقد رأينا الزهد[1] والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام : فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار ، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدةً في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام ، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين ، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب ، إلا وله نزعة في الزهد ، وتغلب على الشهوات ، وسيطرة

---

(١) ليس المراد به الزهد الأعجمي أو المسيحي الرهباني ، فلا رهبانية في الإسلام ولا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات ، إنما المراد به سمو النفس والنظر ، والزهد في زخارف الحياة وفضولها وكمالياتها ، والتهافت على حطام الدنيا ، والتنافس في الجاه والمنصب .

www.abulhasanalinadwi.org

على المادة ورجالها ، ولعل السر في ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهاداً في الحياة ، متمردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ويلهب الروح ، والدعة والرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب» .

روح التضحية والفداء :

والمسئولية الثالثة للجامعة الإسلامية أن تخرج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمة ، ويستعدون للتضحية والفداء ، يتنعمون بالجوع ويطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم ، وقواهم الخيرة ومؤهلاتهم الفكرية والعلمية ، والرصيد العلمي والفكري الذي زودتهم به جامعاتهم ، في رفع رأس الأمة عالياً وفي إعلاء كلمة الله ، وفي صنع أمة ذات رسالة ، وبناء بلد مسموع الكلمة مرهوب الجانب .

فهذان أمران لابد منهما : الأمر الأول أن توفر الجامعات الإسلامية غذاءاً يشبع العقل والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق في وقت واحد ، حتى يتجها جنباً إلى جنب ويتعاون متبادل ، إلى تعزيز الإيمان بالحقائق والعقائد التي آمنت بها الأمة .

تكوين اختصاصات وقدرات ممتازة في الدراسة والتحقيق :

ولابد أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرجال ذوي القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أن قيمة بلد من البلاد ليست في كثرة جامعاتها ومعاهدها ، إنها نظرية بالية قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يعرفون بالرجعية وقصر النظر ، بل القيمة في كثرة أبنائه الذين يثبتون تميزهم واختصاصهم في علم من العلوم وفي مجال من مجالات البحث والتحقيق ، ويقفون حياتهم للبحث والدراسة ، ونشر العلم والثقافة ، وتثقيف الأمة والشعب ، ورفع معنويات أمتهم ، وصنعها أمة ذات قلب وضمير أبي ،

www.abulhasanalinadwi.org

وفي كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدين والعلم والأمة والبلد ، ضاربين الشهرة الكاذبة ورقيهم الشخصي عرض الحائط ، وذلك هو المقياس الحقيقي الأصيل ، الذي يقاس به البلد والأمة وليكن هذا هو المقياس الوحيد في الشرق والغرب ، فلا نقيم لبلد قيمة إلا نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، والمناصب والجاه ، والتقدم الشخصي ، ويتوفرون على العمل الجاد البناء ، وعلى العمل العلمي الإيجابي النافع ، على رفع مستوى الأمة عقلياً وفكرياً ، وعلى التوصل إلى نظريات علمية ذات أهمية ، وعلى بحث علمي مضن يتطلب الصبر والتحمل على تعزيز البلاد من جميع النواحي.

إن قيمة الشعوب والأمم ـ فضلاً عن قيمة الجامعات والمؤسسات ـ وسر عظمتها وما تستحق به من إجلال وإكبار ، وتقدير واعتراف ، وجود أصحاب تفوق واختصاص وشهرة عالمية ، في علوم وآداب ، ومجالات علمية ، وبحث واكتشافات جديدة ، وهذه كانت ميزة الأمة الإسلامية فقد كانت للمسلمين الرئاسة العلمية والزعامة الفكرية نحواً من ألف سنة على الأقل[1] ، بإقرار من المؤرخين الأوروبين.

ومن واجبات المتخرجين في جامعاتنا النابغين أن يهيؤوا بديلاً عن كتب المستشرقين وعلماء الغرب في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية كالحديث والفقه وأصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي ، كالحديث والفقه وأصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي ، التي اعتبرت مرجعاً في هذه المواد ، وقررت في كثير من الجامعات العربية والإسلامية اعتمد عليها كثير من أساتذتها ومن

---

(١) إذا اعتبرنا القرن الثاني الهجري ـ وهو زمن الحكم الأموي الواسع ـ بداية تأثير المسلمين العلمي الفكري في الشعوب والبلاد المتحضرة التي كان يحكمها المسلمون ، وسلمنا استمراره إلى القرن الحادي عشر الهجري ، فقد نشأت الحركة الانتقالية في أوربا (Renaissance) في القرن الرابع عشر المسيحي ، وانتشرت في القرن السابع عشر المسيحي (الحادي عشر الهجري) وتميزت بازدهار الأدب والفن بابتلاج فجر العلم الحديث في الغرب المسيحي.

www.abulhasanalinadwi.org

الباحثين في هذه الموضوعات وأصحاب رسائل الدكتوراه ، فبثت السموم في عقول كثير من الدارسين والباحثين الناشئين ، وأنشأت شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية وأحدثت في نفوسهم يأساً عن مستقبل الإسلام ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لها سهماً كبيراً في الحث على «إصلاح الديانة وإصلاح القانون الإسلامي»[1] وليكن للبلاد الإسلامية والشعوب المسلمة اكتفاء ذاتي في الثقافة والتربية كما يجب أن يكون لها استقلال في مجال السياسة والاقتصاد.

تلك هي أهداف حقيقة يجب أن نصبو إليها ، ونضعها في اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أما مجرد التعليم والتثقيف ، والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب ، فليس مما يثنى به على جامعة ، وليس أبداً مما يجلب الحمد ويستخرج الإعجاب.

الغرض الأصيل من العلم والأدب ، هو نفخ روح الإيمان واليقين في الحياة والمجتمع :

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التي قامت في هذا العهد العصيب ، وفي هذه البلاد المتأزمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذي يسود جميع الدول الإسلامية منذ مائة عام تقريباً . . . تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكري والحضاري الغربي ، وحدث صراع نفسي وفكري استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة . . . إن ذلك الوضع غير طبيعي يجب أن يزول في أقرب وقت ، لكي تتوجه هذه القوى والقدرات إلى الأهداف البناءة وإلى إنقاذ البلد ودفع عجلته إلى الأمام.

الحقيقة أن الأدب والشعر ، والفنون الجميلة ، والحكمة والفلسفة ،

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى بحث العلامة الندوي بعنوان «المستشرقون نفوذهم في ميدان التفكير» ، في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» ص ١٨٧ ـ ١٩٨ الطبعة الرابعة دار القلم ـ الكويت ، أو إلى «مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقين» للعلامة أبي الحسن الندوي، طبع دار ابن كثير ، دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

والتأليف والتصنيف ، ليس من وراء كل ذلك إلا غرض واحد ، وهو أن تتولد في صاحبه حياة جديدة ، وإيمان جديد ، وبالتالي في الأمة التي هو عضو فيها والمجتمع الذي هو جزء منه .

وأود أن أنشد لكم أبياتاً قالها شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال وهو يخاطب الأديب والشاعر ، لأنه ينطبق على الوضع الذي نعيشه جميعاً :

«يا أهل الذوق والنظر العميق! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ، ولا في صوت مغن ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول والذوي والذبول»[1] .

إن الأوضاع التي نمر بها نحتاج فيها إلى أن نأتي بأعجوبة ، وتلك الأعجوبة لن تتحقق إلا عن طريق الرسالة الإسلامية ، لأنها وحدها التي تجعل حاملها يصنع المعجزات ويأتي بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطم المعايير التقليدية ، ويسخر من كل الموازين التي آمن بها العالم الغربي الجاهلي ، يقول الدكتور محمد إقبال :

«أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعي ، ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر ، وذلك أن الأمم لا يرتفع شأنها ومكانها في خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات» .

دور مصر الإسلامية القيادي في العالم الإسلامي :

إن مصر الإسلامية اليوم بفضل ما سجل لها التاريخ من دور رائع في إنتاج عدد كبير من المؤلفين والمحققين ، والمحدثين والمؤرخين ، والقادة والمجاهدين ، وما قامت به من دور حاسم في الحروب الصليبية[2] والغزو

---

(١) انظر «روائع إقبال» للعلامة الندوي ، صفحة ٦٩ طبع دار ابن كثير ، دمشق .

(٢) ذلك عن طريق حاكم مصر وقائدها الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وانتصاره في معركة حطين الفاصلة في ١٤/ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، =

www.abulhasanalinadwi.org

التتارى[1] ، وما تملكه من وسائل النشر والتصدير ، والقيادة في العلم والأدب ، وبفضل وجود الأزهر الشريف ، تحتاج بصفة خاصة إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر أو البحر ، لأن عليها تعود مسئولية بعث الدول العربية كلها بعثاً جديداً ، إن عليها أن تنفخ روحاً جديدة في البلاد العربية الإسلامية ، وتوجد لديها ثقة جديدة ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفاقاً جديداً ، يتحرق على بؤس الانسانية وشقائها ، وشجاعة جديدة تبعث على المغامرة والاقتحام ، وجرأة خلقية تستطيع بها أن تنفخ الحياة في هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك ، التي تزل أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتتعثر عقولها ، وقد كانت مهد الانتفاضة الإسلامية والدعوة القوية إلى الصحوة الإسلامية الشاملة حيث ساد الجمود والخمود على كثير من الأقطار العربية ، ولا يزال لها جوهر إسلامي نقي يبرز لامعاً صافياً إذا نفض الغبار عنه .

* * *

= واستعادته بيت المقدس للمسلمين (بعد نحو تسعين سنة من استيلاء الصليبين عليه) في ٢٧/ رجب ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وصلح الرملة في سنة ١١٩٢ المسيحي .

(١) إشارة إلى انتصار سلطان مصر المملوكي المظفر سيف الدين قطز ، وقائده ظاهر بيبرس البندقادري في معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وانهزام التتر انهزاماً عديم المثال غير مجرى التاريخ ، وأعاد الثقة إلى المسلمين ، فقد كان من الأمثال السائرة ، ومن المسلمات التي لا تقبل الجدل (إذا قيل لك إن التتر قد انهزموا فلا تصدق) .

www.abulhasanalinadwi.org

الدَّعوة الإسلامية في الهند وتطوُّراتها (١)

تأسست الدولةُ الإسلامية في الهند في القرن الخامس الهجري ، واحتضنت العلم والدين ، وقصدها العلماء والأشراف من أقصى العالم الإسلامي ، وأوى إليها كل من نبا به بلده ، أو ضاقت عليه أرضه ، واجتمع فيها آلاف من أهل الدين والعلم نزحوا من بلادهم في فتنة التتار ، وقصدها أهلُ الهمم العالية والنفوس الكبيرة من المجاهدين والدعاة ، بإشارات غيبية ومبشرات صادقة ، أو برغبة في الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية ، فنشطوا في الجهاد والدعوة ، وانتشر الإسلامُ بسرعة غريبة بتأثير أخلاقهم الطيبة وشخصيتهم القوية ، وقد أسلم مئاتُ آلاف من الوثنيين على يد الشيخ معين الدين الجشي (م ٦٢٧ هـ) في أجمير ، وما جاورها من البلدان ، وأسلم آلاف في بنجاب على يد الشيخ إسماعيل اللاهوري (م ٧٤٨ هـ) والشيخ فريد الدين الأجودهني (م ٦٦٤ هـ) وأسلمت كشمير كلها على يد السيد علي بن الشهاب الهمداني (م ٧٨٦ هـ).

الدولة الروحية بجوار الدولة المادية :

ولما أصاب الدولة الإسلامية ما أصاب شقيقاتها في الشرق كلها من الترف والبذخ ، وأصبحت لا تمثِّل من نواحي الحياة الإسلامية وواجبات الحكومة الإسلامية إلا الناحية المادية ، ولا تهتم إلا بجباية الأموال وتعيين العمال ، وارتفعت الحسبة ، وركبت الحكومات رأسها ، وطغت المادة ،

---

(١) هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في دار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، لدى زيارته الأولى لمصر عام ١٩٥١ م.

www.abulhasanalinadwi.org

أسَّس رجالُ الدين دولاً مستقلة في جنب هذه الحكومات ، كانت أعظم سلطاناً ، وأعمق نفوذاً من هذه الحكومات ، واستقلت هذه الدولُ الروحية بالناحية الروحية والخلقية ، وكان القائمون على هذه الدول يحكمون القلوب والأرواح ، وكثيراً ما شُوهد أن الملك كان يحكمُ على البلاد كلها ، ويحكم عليه وعلى بلاطه وأزواجه وأولاده وبطانته رجلٌ من الصالحين ، قد لا يجد قوت يومه ، وقد يكون دوابّ هذا الملك أشبع وأنعم عيشاً منه .

وقد شُوهِد في بعض الليالي المظلمة أن السلطان شمس الدين الأيلتمس (م٦٣٣ هـ) الذي دانتْ له البلادُ كلها ، وخضع له ملوكُ الهند عن آخرهم يستفتح باب الشيخ قطب الدين يختار الكعكي لعله نام على طوى ، ويسلِّم عليه تسليم مملوك على ملك ، ثم لا يزال يغمز رجله ، ويكبس بدنه ، ويذرف الدموع على قدميه حتى يسليه الشيخ ، ويُبشِّره ، ويأمره بالانصراف .

وقد طلب علاء الدين محمد شاه الخلجي ، وهو من أعظم ملوك زمانه من الشيخ نظام الدين الدهلوي (م٧٢٥ هـ) أن يأذنَ له بالحضور فأبى ، وكان مع ذلك تأثيره في المجتمع الهندي الإسلامي ، وفي رجال الحكومة وحاشية الملك ـ وهم القدوة في البلد عميقاً وواسعاً ـ وقد أصبح الدينُ شعارَ الناس؛ الذين لهم اتصالٌ بالشيخ ، وعمرت المساجد ، وقلّت المنكرات ، وفشت الأمانة والصدق والنصح في التجار ، وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصي والذنوب ، وازدحم المبايعون على بابه ، إلى غير ذلك مما حكاه المؤرخ البرني في تاريخه ، وكان له ولخليفته الشيخ نصير الدين محمود الأودهي نوع إشراف ديني ـ على اعتزالهما عن الدولة ـ على الحكومة الإسلامية ، وكان اختيارُ الملك الصالح فيروز تغلق ، وهو من أفضل ملوك الهند ، وأرشدهم للملك ، ومبايعة الناس بتوجيه الشيخ ، وترشيحه ، وكان قد وعده بالدعاء له لطول الحكم والتوفيق إذا قام بالعدل ونصر الإسلام ، وكان عهده من أزهر العهود الإسلامية ، وأنضرها في الهند .

www.abulhasanalinadwi.org

صلة الملوك بالشيوخ وإجلالهم لهم:

وكان الملوك يعتزّون بدعاء هؤلاء الفقراء ، ويتفاءلون بكل ما ينطقون به ، فما حكاه المؤرخُ الهندي محمد قاسم صاحب (تاريخ فرشتة) أن السلطان إسكندر بن بهلول اللودهي (م ٩٢٣) كان في ناحية بعيدة عن دهلي ، فلما أخبر بوفاة أبيه ، وأنه بويع بالإمارة قصد شيخاً صالحاً في ذلك البلد لم يعلم عن الحادث شيئاً ، وطلب منه أن يقرأ عليه العلم ، ورضي الشيخ بذلك ، وجاء الملكُ بكتاب «الميزان» وهو أول كتاب يدرس في علم الصرف ، وأوله: «**اعلم أسعدك الله في الدارين أن الكلمة ثلاثة أقسام**» وطلب من الشيخ أن يقرأ فيتبرك بذلك. فقرأ الشيخ «**اعلم أسعدك الله في الدارين**» وما عنده فكرة عن غرضه ، فاستعاده الملك ثلاثَ مرات ، والشيخ يردِّد قول المصنف: «**اعلم أسعدك الله في الدارين**». وبعد ذلك أطبق الملك الكتابَ ، وقال: لقد نلتُ بغيتي ، فما كان قصدي التعلم ، وقد تعلمتُ ما فيه كفاية ، وإنما أردتُ أن يدعوَ لي الشيخ بالسعادة في الدارين ، وقد كان ذلك ، فحسبي من هذا الدرس هذا الدعاء الذي أثق بأنه مُستجاب إن شاء الله. وقد كان هذا فعلاً.

والحديث بالحديث يُذكر فقد كان هذا الملك من أعظم سلاطين الهند ، وقد كان عهده من أزهر العهود الإسلامية ، ملكاً وديناً وعلماً ، وأيمنها ، ومما يستدل به على سعادته ورشده وسلامة قلبه وصلاحه؛ أنه لما سار إلى جونبور لإخماد الفتنة التي أحدثها أحدُ ملوك المسلمين ، دعا له بعضُ العلماء بالنصر والفتح ، فتغير لونه ، وظهرت الكراهةُ في وجهه ، فَسُئِل عن ذلك ، فقال: إذا كان الفريقان من المسلمين فلا محلَّ للدعاء لفريق بالنصر والظفر ، فإن ذلك يستلزمُ انكسار الفريق الثاني ووقوع المقتلة فيه ، وذلك مما يجبُ أن يحزنَ له المسلم ، ويمتعض منه ، بل يجدر في ذلك المحل أن يُدعى بالصلح والاتفاق ، ومما يعرف به مقدار حفاوة الملوك بالعلماء والصالحين ، وإيثارهم على أنفسهم؛ أن الشيخ شهاب الدين الدولة آبادي صاحب تفسير (البحر المواج) لما مرض ، واشتد به الوجع في

www.abulhasanalinadwi.org

جونفور قاعدة البلاد الشرقية ، عاده السلطان إبراهيم الشرقي (م ٨٤٠ هـ) ودعا عند رأسه أن يكون فداءً له فيموت ، ويعيش الشيخ زمناً طويلاً؛ لأنه جمال وبركة زمانه .

سرّ خضوع الملوك للشيوخ والدعاة وسيرتهم :

وهكذا كان رجالُ الدين وعباد الله الذين تجردوا عن الشهوات وطلب الجاه والمال ، وزهدوا فيما عند الملوك ، فخضع لهم الملوك ، وأتوهم صاغرين ، ورفضوا الدنيا ، فجاءت راغمةً تخدمهم ، وكان هؤلاء الشيوخ يقومون على الدولة الروحية وإدراتها بنشاط وتيقظ؛ أعظم من نشاط الملوك ، وسهرهم على مصالح بلادهم وإدراتها ، وقد كان الواحد منهم يشرف على الحياة الدينية والحياة الخلقية في طول الهند وعرضها ، ويرسل الدعاة ، وينصب المعلمين والمصلحين ، ويملأ الثغور ، ويضبط الأطراف ، ويراقب سير الحكومة ، ويكافح المادية الطاغية ، ويقاوم التيارات الجارفة .

فتنة أكبر ، والخطر الأكبر على الإسلام في الهند :

استمر الحالُ إلى فجر القرن الحادي عشر الهجري ، وقد تولى عرشَ المملكة الإسلامية الهندية السلطانُ جلال الدين أكبر ، وهو ملك أمي لم يقرأ ولم يكتب؛ وقد ولد ونشأ وأبوه همايون بن بابر في حالة الفرّ من مكان إلى مكان ، يطارده منافسه في الملك شيرشاه السوري ، فنشأ الولد ـ وارث الدولة التيمورية العظمى ـ مهملاً لم يتلق شيئاً من العلم والتربية ، ورزق عقلاً كبيراً وهمة وثابة ، وجلس على عرش أبيه ، وهو شاب في مقتبل العمر ، وعنده رغبة جامحة في الدراسة والبحث فجمع حوله عدداً كبيراً من العلماء ، والتف حوله علماء الدنيا بطبيعة الحال ، وكان مُولَعاً بمطارحة العلماء ومناظرتهم ، وطمع العلماء في رفد الملك وصلاته ، وتنافسوا في إرضائه وسروره ، كلٌّ يريد أن يستأثرَ به الملك ، ويحلّه في نفسه المحلَّ الأرفع ، ويطلق يديه في المملكة والأموال ، ولم يكن عندهم شيء يثبتون به براعتهم وتفوقهم إلا هذا العلم الذي يحملونه ، والدين الذي يدينون به ،

www.abulhasanalinadwi.org

فأجروا خيلهم في هذا الرهان ، ووضعوا علمهم في الميدان ، وتناقروا كالديكة ، هذا يغزل وذلك ينقض ، وهذا يثبت وذلك يردّ ، والملك يستمع وينصت على مناظراتهم الدينية ومباحثاتهم العلمية ، وهو أمر لا يستطيعُ أن يحكم ويستقل بفكرته ، فنشأت عنده الشكوكُ ، وتزعزعت العقيدة ، واضطرب في الحقائق الدينية اضطراباً عظيماً ، وأصبح يشكُّ في الحقائق الدينية ، ثم رأى من أخلاق العلماء ، وممثلي الدين ، وحبهم للجاه ، ونهامتهم للمال ، وتحاسدهم وتباغضهم ما أساء ظنه بالعلماء أولاً وبهذا الدين الذي يمثلونه ثانياً ، فهذا رئيسُ القضاة يموت فيخرج من بيته لبنات من ذهب كان قد اكتنزها ، وهذا المحدث كان يكيد لمنافسه ويدبر مؤامرة عليه ليسقطه ويهينه ، إلى غير ذلك ، وكان الملك مرهف الحس ، قوي العاطفة ، سريع الحكم ، فحكم على هذه الجماعة بالفساد ، وأقصاها ، وأقصى معهم الدين .

بطانة سوء من العلماء :

ثم زاد الطين بلّة أن حظي عنده أخوان من أسرة علمية كبيرة ، ومن كبار أذكياء العصر ، ونوابغ الوقت ، وهما أبو الفضل المؤرخ الأديب صاحب (آيين أكبري) وأبو الفيض فيضي من كبار شعراء الفارسية ، ومن المتضلعين في العلوم العربية ، صاحب (سواطع الإلهام) التفسير غير المنقوط في اللغة العربية ، وكانا غريبي الأطوار ، فيهما شذوذ علمي ، وقد لقيا من علماء عصرهما من الازدراء ، وعدم الاحتمال ، ومن المجتمع من الانصرف والإعراض ، ما أثار فيهما روح الانتقام والغضب ، وحلا من نفس الملك محلاً لم يحلّه أحدٌ بذكائهما الباهر ، وشعرهما الرقيق ، وأدبهما الرفيع ، ودراستهما الواسعة ، وكان أبو الفيض أقربهما إلى الملك ، وألصق الناس به ، فسوَّل للملك الدعوى بالاجتهاد المطلق ، وأنه صاحب دورة جديدة ، وأن عصر نبوءة محمد ﷺ قد انتهى على هذا الألف ، وبدأ عهد إمامة السلطان أكبر ، فأعلن نسخ نبوة محمد ﷺ وانتهاءها ، وفاتحة عصر جديد للسلطان ، فيه الكلمة النافذة ، والأمر المطاع .

www.abulhasanalinadwi.org

معاداة الإسلام:

ثم ظهرت له فكرةُ التقريب بين الأديان ليتفادى الخلافَ بين الديانات ، وتجتمع الهند كلها تحت لواء واحد ، وعلى دين واحد ، فلفَّق الديانات ، وابتكر مزيجاً غريباً من الطقوس والعبادات والشعائر الدينية المختلفة ، فكان يتعبد على طريق براهمة الهند ، ويتقلد الخيط علامة لهم ، ويولي وجهه إلى الشمس ، ويرطن بكلمات تقديس لها ، ولم يزل ـ بتأثير محيطه ـ يبتعدُ من الدين الإسلامي ، ويقرب ، ويمتزج بالبراهمة خاصة حتى نشأ عنده شبهُ عنادٍ للدين الإسلامي ، وبغض له ، ولشارعه. فكان يسوءُه أن يسمي أحدٌ في بلاطه ابنه محمداً ، وحرم ذَبح البقرة في طول الهند وعرضها ، واباح الخمر والخنزير ، وأصبح الإسلامُ غريباً مطارداً في بلاد استمرت فيها الحكومة الإسلامية خمسة قرون في عهد رجل يتسمَّى بالإسلام ، وينحدر من سلالة مسلمة ، لها غَيْرة على الإسلام ، وهكذا اتجهت الهندُ كلها إلى الإباحية والكفر ، وكادت جهود القرون المتطاولة ، ودماء النفوس البريئة تضيع وتذهب سُدى.

حاجة التجديد إلى عبقري:

كان خطبُ الهند والإسلام أعظم من أن يقومَ له الأقزامُ من رجال الدين والمنتسبين إلى العلم ، فليستِ المسألةُ مسألة أفراد وجماعات ، أو مسألةَ بدع وخرافات ، إنما هي مسألةُ انحراف دولة من أعظم دول الأرض ، على رأسها رجل من أكبر ملوك العصر ، وحوله رجالٌ من أعلم رجال الوقت ومن أذكاهم ، إنها خطة مدبرة ، ومؤامرة محكمة على الإسلام ، يبيتها أقوى الناس وأقدرهم.

إن الانقلابَ الديني كان يطلبُ رجلاً عملاقاً في العلم والشخصية ، وفي العقل والمواهب ، إنه كان يحتاجُ إلى عبقري عظيم ، ومجدد كبير ، يتجرد لمقاومة هذا التيار العنيف الجارف ، فيحوله من جهة إلى جهة ، ويغير مجرى التاريخ.

www.abulhasanalinadwi.org

الإمام أحمد السرهندي:

إن لله في دينه شؤوناً ، ومن شؤونه أن يخلقَ لكلِّ عصر ، رجلاً من رجال الإسلام ، ولكل غرض سهماً من السهام التي لا تطيش ، فإنَّ الله قد تكفَّل بحفظ هذا الدين القويم ، والذكر الحكيم ، لقد وجد هذا المصلحُ في شخص رجل يقال له (الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي) تخرج في علوم عصره ، كما تخرج أكبر عالم ، وبرع فيها ، وجمع إلى كفايته العلمية ، ودراسته المتقنة ، تربية الروح ، وتهذيب النفس ، والإخلاص لله ، ودوام الذكر ، وحضور القلب ، تخرج في ذلك على شيخٍ كبير من شيوخ الطريقة النقشبندية الشيخ عبد الباقي البدخشي ، نزيل دهلي ، واستعان به أبو الفيض (الفيضي) فيما التوى في كتاب (سواطع الإلهام) فرأى عنده القريحة الوقادة ، والعلم الحاضر ، وعرضت عليه المناصب في الدولة فرفضها؛ لأنه لم يُخلق ليشارك في إدارة هذه الدولة الجائرة ، إنما خُلِق ليقوِّمها ، أو يكسرها ـ إذا لم يستطع أن يقوِّمها ـ وينشىء منها دولة إسلامية جديدة.

رأى الشيخُ أحمد اتجاهَ الدولة ومعاداتها للدين ، ومحاولة القضاء على الإسلام في هذه البلاد ، فاهتزت مشاعره ، وتكدر صفو حياته ، وطار نومه ، وملكت هذه الفكرةُ عليه شعوره وعقله ، وأصبح لا يفكر إلا في إصلاح الحال ، والرجوع بالدولة إلى وضعها الإسلامي ، والمحافظة على مستقبل الإسلام في هذا القطر العظيم.

الخطر في الثورة العسكرية:

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، ولا أمل في إنجاح الثورة ، فهو رجلٌ فريد وحيد ، لا يملك إلا قلبه وقلمه ، ولا أمل في الانقلاب العسكري فالدولةُ شابة فتية ، لم يصبها شيء من الهرم والضعف ، بل قد توسَّعت ، وتوطدت ، فأصبحت إمبراطورية عظيمة ، وهي الإمبراطورية الثانية التي عرفتها الهند بعد إمبراطورية أشوكا ، وقد كسب الإمبراطور أكبر ودّ أمراء الهند ، وإقبالها بتزوجه فيهم ، وتقريبهم إلى نفسه ، فأصبحت دولة

www.abulhasanalinadwi.org

راسخة ، مشيدة البنيان ، موطدة الأركان ، لها وزراء من كبار راجبوت ، وجيش قوي من أقوى جيوش العالم ، وأحسنها تدريباً ، ونظاماً ، ومالية عظيمة ، فكيف يقاوم هذه الدولة المنظمة وكيف يؤدِّي رسالته ، ويقوم بمهمته؟ إنها لمهمةٌ تنوءُ بالعصبة أولي القوة ، فكيف بفردٍ فقير يسكن في قرية؟!

من أين يبدأ الإصلاح؟

ولكن الشيخ أحمد صمَّم على أداء رسالته ، واهتدى في تفكيره المخلص المجهد إلى نقطة مهمة ، وهي نقطة الفتح ، إن الملك قد أفسده المفسدون ، فثار على الدين ، وانحرف عن الجادة ، ولكن ليس هو الدولة كلها ، وليس هو الشعب كله ، وقد كتب عليه الموت ، وهو خاضعٌ للسنن الإلهية ، فيموت ويخلفه غيره ، فلا بد أن أؤدي رسالتي ، وأتصل ببلاطه ، وأركان دولته ، ولا موجبَ للقنوط من الفطرة الإنسانية ، فالصلاحُ فيها أصيل ، والفساد عليها طارىء ، فلأجرِّب ولأحاول ، وإن الله ناصر من نصره ، وخاذل من خذله.

الأسلوب الحكيم:

جرد الشيخُ أولاً نفسه وفكره من كلِّ أمل وطمع فيما عند هؤلاء من مال ونسبٍ وعزّ وجاه ، وركَّز فكره على الإصلاح والنصيحة ، حتى رأى أنَّ ما عندهم من دنيا لا يساوي في نفسه إلا جيفة عليها كلاب ، ثم اتصل برجال البلاط الملكي وأركان الدولة ، وتعرَّف إليهم ، فإذا هم يجلّونه ، ويحلُّونه من نفوسهم محلاً لا يحلُّونه المتملقين والمتزلفين ، ويعرفون أن هذا الرجلَ من طراز آخر غير الطراز الذي جربوه ، إن هذا رجلٌ قد تمرد على المادة ، وتمرد على المجتمع ، وخرج من سلطان المطامع والشهوات ، ورأوا فيه من قوة النفس والحرية ومعاني الإنسانية السامية ما لم يروه في نفوسهم ، ورأوا أنفسَهم أقزاماً ، لا يتطاولون إلى إنسانيته الرفيعة ، ورجولته الشامخة ، فخضعوا له كما يخضعُ كلُّ صغير للكبير ، وكل فقير للغني ، وتضاءلوا أمامه كما تتضاءل الكثبان والربى أمام الطود الشامخ ، والجبل الناطح للسحاب.

www.abulhasanalinadwi.org

وهنا يقعُ بالسلطان أكبر حادث الموت ، ويخلفه ابنه جهان كير ، وهو يحمل للشيخ من التقدير ما لم يكن يحمله هو ، ولكن بلاطه لا يخلو ممن يضمرُ للشيخ العداء ويحسده ، فدبَّروا له المكيدة ، زينوا للملك أن يطلبه ويمتحنه ، وحضر الشيخُ فعلاً ، وكان من العادات المتبعة أن كلَّ من يدخل على الملك يسجد له تحية ، فامتنع الشيخُ وحيَّاه بتحية الإسلام ، فثار ثائرُ الملك ، وسجنه في معتقل كواليار ، ولبث في السجن بضع سنين ، يشتغلُ بالعبادة ، ويدعو المسجونين إلى الإسلام ، فأسلم على يده ـ كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية ـ مئات من المسجونين.

ثم ظهرت للملك براءةُ الشيخ ، وعلوّ منزلته ، فأطلقه ، ودعاه ، وأكرم مثواه ، وقضى الشيخُ شهرَ رمضان عندالملك ، والملك يصلي خلفه التراويح ، ويذاكره ، ويفيد منه في الدين ، حتى رسختْ في قلبه محبته ، وعلتْ في عينه منزلته ، فردَّ الشيخَ إلى وطنه مكرَّماً مبجَّلاً.

التأثير في بلاط الملك ورجال دولته:

ونشط الشيخُ في التأثير في بلاط الملك ، ورجال دولته ، وجيشه ، وراسلهم وراسلوه ، وبايعه منهم كثير ، وأحبه أكثر ، وتأكدت الصداقةُ بينهم ، فكان الشيخُ يكتب إليهم رسائل رقيقة مرققة ، تأخذ بمجامع القلوب ، وتهز النفوس ، وهي من أبلغ الرسائل ، وأعظمها تأثيراً في القلوب ، يصوِّر لهم غرابة الإسلام في بلاده فيبكي ويُبكي ، يقول في رسالة: «**واحزناه ، واحسرتاه ، وامصيبتاه ، وإن أتباع محمد ﷺ ـ محبوبُ ربِّ العالمين ـ غرباء ، مهانون في بلادهم ، وأعداؤه مكرمون ، إن الباطلَ بارزٌ منصور ، وإن الحق مخذول مستور**».

ويقول في رسالة: «**لقد أتى على الإنسان والمسلمين حينٌ من الدهر في هذه الديار ـ يعني به عهد الملك أكبر ـ إذا عمل مسلم بحكم شرعي يسجن ، ويعاقب ، ويهان ، ويعذّب ، والديانات كلها حرة متمتعة بكل حق ، لقد شمت بالمسلمين الأعداء ، وسخروا منهم ، وأصبحوا هدفاً لكل تجريح وإهانة**».

www.abulhasanalinadwi.org

ويستثير هممَ رجال الدولة المسلمين ، ويستنهضهم لخدمة الإسلام ، وإقالته من عثاره ، فيكتب إلى خانخانان ـ وهو قائدُ قواد الجيش ، والركن الأعظم للدولة ـ: «**إن ميدان البطولة الإسلامية لا يزال خالياً ينتظر فارساً من فرسان الإسلام ، فهل تسبقُ إلى هذه السعادة ، وتحرز قصب السبق ، وتنصر هذا الدين المظلوم ، وتغضبُ لهذا الحق المهضوم ، وتبلغ بجهادك إلى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمون ، فحيهلا يا أهل الغيرة والفتوة ، ويا أهل الشهامة والمروءة**».

وهكذا يكتبُ إلى خان أعظم أكبر الأمراء في عهد جهانكير ، والسيد فريد أحد الوزراء والمستشارين في الدولة ، وقد نفذ بروحانيته في قلوبهم ، وسيطر على عقولهم ، حتى كان يملي عليهم الأحكام كما يملي ملك البلاد ، فيمتثلون أمره ، وينفذون رغباته ، ويوجِّه الدولة وهو قاعدٌ في زاويته بسرهند توجيهاً دينياً بواسطة تلاميذه الروحيين ، وخدمه المخلصين؛ الذين يديرون دفَّة الحكومة.

سمع مرة أن الملك جهانكير يفكر في أن يجمعَ حوله جماعةً من كبار العلماء الذين يشيرون عليه في أمر الدولة ، واستعان بوزارته أن يختاروا له هؤلاء العلماء ، فحذَّرهم الشيخُ من سوء العاقبة والوقوع فيما وقع فيه الملك أكبر ، وتورطت بسببه الدولة الإسلامية في الإلحاد والكفر. فقال: إياكم أن تجمعوا حول الملك علماءَ السوء المتنافسين ، ورجال المادة الطامعين ، وقطاع الطريق ، ولصوص الدين ، فيفسدون فكرةَ الملك ، ويضرون الدِّين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، ولكن اختاروا له صفوةً من العلماء الذين تجردوا عن حب المال والجاه ، وأخلصوا لدينهم ، أو اختاروا له رجلاً واحداً ممن يتقي الله ، ويخشاه من الراسخين في العلم[1].

---

(١) اقرأ كتاب العلامة الندوي للاطلاع على حياة الإمام السرهندي ، الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار ابن كثير ، بدمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

يتغير اتجاه الدولة ، وترجع الهند إلى الإسلام:

وظل الشيخُ مثابراً على دعوته إلى وفاته (سنة ١٠٣٤ هـ) حتى تغير اتجاه الدولة ، وتغيرت سيرة الملك ونفسيته ، وأصبحت الدولة تتقدَّم كل يوم من حسن إلى أحسن ، فخلف جهان كير ابنه شاهجهان وكان له في الشيخ رأي جميل ، ومعه صلاة طيبة. هذا هو الملكُ الذي لما جلس على عرش الطاووس الذي كلفه ملايين من الجنيهات ، وكان تحفة فنية ، نزل عنه ، وخرَّ لله ساجداً ، وقال: عجباً لفرعون جلس على عرش من الآبنوس ، فقال: أنا ربكم الأعلى ، وها أنا ذا أسجد لله شكراً ، وأقع له ساجداً ، مقراً بعبوديتي وضعفي ، وقدرته وكبريائه ، وبذلك تستدلون أيها السادة على تغيُّر النفسية ، وتطور الدولة.

السلطان أورنك زيب من غرس الإمام السرهندي:

وخلف شاه جهان السلطان العظيم الملك الصالح أورنك زيب عالم كير ، وهو ممن عني أولاد المجدد بتربيته وثقافته ، فنشأ متعبداً متبعاً للشريعة ، فقيهاً في الدين ، غيوراً عليه ، حريصاً على تطبيق أحكامه ، وإصلاح المجتمع الفاسد ، وتقويم الحكومة الزائغة ، وكان الشيخ محمد معصوم ابن الشيخ أحمد السرهندي ، وخليفته ، مهتماً بتربيته ومستقبله ، يخاطبه في رسائله «بناصر الدين ، ومعقل الشريعة» وقد طلب منه الأميرُ الشاب أن يرسلَ له من يربيه التربية الروحية ، فأرسل إليه ابنه الشيخ سيف الدين السرهندي يعلمه ويفقهه في الدين؛ حتى ظهرت فيه آثارُ الصلاح ، وبشّر به الشيخ سيف الدين والده الشيخ محمد معصوم ، وأزال من قصره المنكرات.

مآثر أورنك زيب الإسلامية:

وأراد الله بالمسلمين في الهند خيراً؛ إذ كان أورنك زيب خليفة أبيه شاه جهان في الإمبراطورية المغولية ، فانتصر به الدينُ ، وعزّ المسلمون ، وهان الكفر ، وزالت المنكرات ، وبطلت المكوس الجائرة ، ووضعت الجزية على غير المسلمين.

www.abulhasanalinadwi.org

ويذكر المؤرخون من استقامة أورنك زيب على الشريعة الإسلامية ، ومن عبادته ، وصلاحه ، ما يدهش رجالَ هذا العصر ، فقد حفظ القرآن بعد جلوسه على العرش ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها ، وأمر بتدوين الفتاوى لتكون دستوراً للمملكة ، وألف له لجنة كبيرة من العلماء ، وكان يشرف على هذه اللجنة ، ويطلع على عملها يومياً ، ويقرأ قبل النوم كلَّ ما كتب في هذا الموضوع؛ وهي الفتاوى المشهورة (بالفتاوى الهندية) ويواظب على الجمع والجماعات ، ويلتزم صلاة الجمعة في جامع دهلي وإن كان بعيداً عنه ، ويصومُ ثلاثة أيام في الأسبوع ، ويحيي ليالي رمضان بالتراويح ، ويخرج زكاة ماله ، وكان شديدَ الإنكار على المنكر ، شديد المحاربة للبدع والغناء والمزامير ، وكان مع هذا التدين أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند ، وأوسعهم ملكاً ، وأعظمهم سلطاناً ، وأقدرهم على الإدارة ، وأعلمهم بالسياسة ، وقد انقلبت به الحكومةُ المغولية من دولة ثائرة على الدين ثم دولة منحلة إلى دولة متمسكة بالدين ، محافظة عليه .

نجاح الإمام السرهندي في مهمته وأهدافه :

وهكذا استطاع رجلٌ وحيد بقوة إرادته ، وصدق عزيمته ، وإيمانه القوي ، ومعرفته بقيمة نفسه ، واحتفاظه بقوته ، وإبائه من أن ينفقها فيما لم تخلق له ، وما لا يعود على الإسلام بطائل ، وتجرده للدعوة ، وتركيز جهوده كلها على إنهاض الإسلام من كبوته في هذه الديار .

لقد استطاع هذا الرجلُ بهذا التوفيق؛ أن يحدث انقلاباً في الحكومة واتجاهها ، واستطاع أن يقضي على عقيدة وحدة الوجود التي تغلغلت في أحشاء التصوف ، والأدب والشعر ، وعلى فكرة استقلال الطرق عن الشريعة ، وعلى كثيرٍ من العقائد والأفكار والعادات؛ التي تسربت إلى المسلمين من الجاهليات المختلفة .

ضعف الحكم الإسلامي في الهند :

ثم توالى على عرش الدولة التيمورية بعد أورنك زيب ملوك ضعاف ، من طراز الخلفاء العباسيين في بغداد في العهد الأخير ، لا يملكون من

www.abulhasanalinadwi.org

أمرهم شيئاً ، ينصبون ويعزلون كالأطمار البالية ، واضطرب حبلُ الدولة ، وكثرت الفتنُ والمصائب ، وهكذا لم تعد الدولةُ مركزَ الحياة ، ولم يبق لها السلطان والقدرة على توجيه البلاد ، حيث إذا صلح الملك صلحت الدولة ، وصلحت البلاد كلها ، فليس مركز الملك الجالس على عرض دهلي مركز القلب في الجسم إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، إنما هو صورةٌ لا تنفع ولا تضر ، إذاً فلا بدَّ من العناية بالشعب مباشرة بدل الحكومة ، والعناية بإصلاحه ، وتربيته ، وتثقيفه الإسلامي.

الإمام ولي الله الدهلوي:

هنا قام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[1] (م ١١٧٦ هـ) المشهور بالشيخ ولي الله ، وهو أحدُ حكماء الإسلام ، ونوابغه ، وكبار المفكرين الإسلاميين ، من طراز الإمام الغزالي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، فلاحظ خمسَ نقط في حياة الشعب الهندي.

خطته في الإصلاح:

١ ـ إن كثيراً من المسلمين قصروا في فهم (التوحيد الإسلامي) وأحاطت بعقيدتهم غيوم من الجهالات ، والظنون الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، فلا بُدَّ من إبراز هذا (التوحيد) في نقائه ووضوحه ، وشرح ما كان عليه أهلُ الجاهلية من اعتقاد في الله؛ حتى يظهر الفرق بين عقيدتهم وبين ما جاء به الإسلام.

٢ ـ الشعب ليس له اتصال مباشر بالكتاب والسنة ، وقد حال العلماءُ بينه وبين دراسة القرآن ، وفهمه؛ بعلَّة تعذر فهمه للعامة ، وخوف انحلال سلطتهم الروحية ، وسيادتهم العلمية ، فلم يترجموا ألفاظ القرآن إلى لغة البلاد ، ولم ينشروا كتبَ الحديث ، فلابُدَّ إذاً من نقل معاني القرآن وأحكامه إلى لغة البلاد ، والإقبال على كتب السنة وحديث رسول الله ﷺ.

---

(١) اقرأ للاطلاع على حياته بالتفصيل ، الجزء الرابع من سلسلة العلامة الندوي لـ «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

www.abulhasanalinadwi.org

٣ ـ ثقافة علماء الهند ضعيفة ضئيلة في العلوم الدينية ، وبضاعتهم مزجاة في الحديث خصوصاً ، فلا بُدَّ من نشر علم الحديث ، فدرس الصحاح والموطأ ، وأقبل الناس على دراسة هذه الكتب ، حتى أصبحت للهند مكانة مرموقة في العالم الإسلامي في خدمة الحديث بفضل جهود هذا البيت العظيم ومؤسسيه .

٤ ـ لاحظ أن العالم الإسلامي سوف يستقبل عصراً عقلياً ، وثورة فكرية ، فلا بُدَّ من إيضاح الفكرة الإسلامية وجلائها ، وبيان أسرار الدين ، وحكمه ، وأصول التشريع الإسلامي. ولا بد من شرح نظام الخلافة في الإسلام ، وأساليب الإسلام وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، فألف كتباً لا تزال فريدة في مكتبة الإسلام العامرة منها (حجة الله البالغة) و(إزالة الخفاء في خلافة الخلفاء) .

٥ ـ لاحظ أنه لا أملَ في نهضة الأسرة الملكية الهندية ، وتجديد لباب الدولة التيمورية؛ لأنه ـ كما قال ابن خلدون ـ: «إذا نزل الهرم بدولة لا يرتفع» فلا فائدة في بذل القوة لإصلاحها وتقويتها ، ولا بُدَّ من إعداد جماعة تحدث انقلاباً إسلامياً ، وتؤسس دولة إسلامية جديدة على أساس ديني علمي جديد .

نجاحه في عمله :

قام الشيخُ ولي الله وأصحابه بمهمة هذا التجديد الإسلامي خير قيام ، فنشروا العلم الصحيح ، وأذاعوا مصادرَ الدين الأولى ، وألفوا كتباً دسمة قوية مبتكرة ، تمهد العقول والنفوس لإحداث انقلاب إسلامي ، وإنشاء دولة إسلامية ، وخرَّج تلاميذ ورجالاً ، يقومون بهذه المهمة ، وقام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي (١٢٣٩ هـ) فدرس وألف ، وخرج ، وخلف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول ، نشروا علم الحديث ، وشمروا عن ساق الجد في نصر الدين ، ومحاربة البدع ، والدعوة إلى الكتاب والسنة ، وتزكية النفس ، حتى نفقت سوقُ الحديث ، وقامت دولةُ العلم ، واستعدت النفوسُ للنصر المؤزر للدين .

www.abulhasanalinadwi.org

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ورفقته وتأثيرهم في الحياة:

وفي الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري ، قام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد؛ الذي تخرج على الشيخ عبد العزيز ، ومعه الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني بن الشيخ ولي الله الدهلوي ، فدعا الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتباع السنة ، وحارب الشرك والجاهلية والبدع محاربة سافرة شديدة ، وبث في الشعب روحاً دينية قوية لم تعهدْ من قرون متطاولة ، ودعا الناسَ إلى الإيمان والإحسان والتقوى والجهاد في سبيل الله ، وقام بجولات واسعة في الهند تاب في خلالها ألوفٌ من المسلمين ، وأقفرت الحانات ، وغصَّت المساجد ، وكسدت سوقُ البدع ، والتف حوله المخلصون والعلماء الربانيون ، وخرج للحج عام ١٢٣٦ هـ ومعه أكثر من سبعمئة رجل ، وتشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين في هذا السفر ، وكان الناسُ يقصدونه من كل صقع ويدخلون في الخير أفواجاً ، حتى لم يحرم ذلك المرضى في المستشفى ، وكان الناس يتساقطون عليه كالفراش ، وأسلم عددٌ كبير من الكفار ، وكان من تأثير مواعظه ، ودخول الناس في الدين ، وانقيادهم للشرع أن وقفت تجارةُ الخمر في كلكته ـ وهي كبرى مدن الهند ، ومركز الإنجليز ـ وأقفرت الحانات ، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة؛ لكساد السوق ، وتعطل تجارة الخمر.

وبعد الرجوع من الحج نادى الإمام وأصحابه بالهجرة والجهاد في سبيل الله ، فهان على المتَّصلين بهم بذل نفوسهم ، والهجرة من أوطانهم والتخلي عن أموالهم ، وتلقوا التربية الحربية ، ثم هاجروا مع إمامهم السيد أحمد ، ووزيره الشيخ إسماعيل إلى بلوجستان ، ومنها إلى أفغانستان ، فحدود الهند الشمالية ، حيث حاربوا «السيخ» الذين كانوا قد احتلوا بنجاب ، وأذاقوا المسلمين سوء العذاب ، وهزموهم غير مرة ، وكذلك كلّ مَنْ وقف في سبيلهم من أمراء الأفغان ، وهم يريدون أن يوغلوا في الهند ، ويجلوا الإنجليز ، ويؤسِّسوا دولة إسلامية تمتد من الهند إلى حدود أفغانستان ، وهكذا تتصلُ الدول الإسلامية بعضها ببعض؛ حتى تكون

www.abulhasanalinadwi.org

سلسلة من حكومات إسلامية ، وأسَّسوا فعلاً دولة في الأرض التي فتحوها ، وتقع فيها مدينة «بشاور» ، وطبقوا نظام الإسلام المالي والإداري تطبيقاً دقيقاً ، وظهر منهم من تنفيذ أحكام الشرع على أنفسهم وعلى غيرهم ، ومن الجمع بين العبادة ، والجهاد ، والأمانة ، والعدل ، والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والرحمة بالمسلمين ، والشدة على المحاربين من الكفار ما جدَّد ذكريات القرن الأول .

ولكن لم تشأ أهواءُ رؤساء القبائل الأفغانية ومصالحهم المالية أن تقي هذه الحكومة؛ التي تحكم بما أنزل الله ، وتفرض عليهم أحكام الإسلام المالية والقضائية ، فثاروا على عمالها ، وقتلوهم ركعاً وسجداً ، وهاجر بقيةُ المجاهدين مع إمامهم إلى وادي «بالاكوت» في طريقهم إلى كشمير؛ التي كانوا يريدون أن يتخذوها مركزاً لنشاطهم ، وهنا حصلت آخرُ معركة بينهم وبين جيش عظيم من «السيخ» الذي اهتدى إليهم بدلالة بعض المأجورين من المسلمين ودهمهم ، وقتل الإمام وكبار أصحابه ، وذلك سنة ١٢٤٦ هـ ، واعتصمت البقيةُ الباقية بالجبال ، ولم يزالوا قائمين على الحق ، مرابطين على الثغر ، مشمرين عن ساق الجد ، إلى آخر ساعة ، جزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء[١] .

مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنة والعاملين بالحديث :

ونشطت حركةُ نشر الحديث والدعوة إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع والخرافات ، بعد ما قام تلاميذُ الإمام ولي الله الدهلوي وأنجاله وأحفاده بتدريس كتب الحديث ، ومحاربة البدع ، والعادات الجاهلية المحلية ، وقام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والعلامة محمد إسماعيل الشهيد بالدعوة إلى الدين الخالص ، والعقيدة الصحيحة السنية ، والرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح ، والقرون المشهود لها بالخير ، ونشطت العقول ، وتحركت الهمم ، وكثر الدعاةُ إلى الدين والمكافحون للفساد ،

---

(١) انظر للاستزادة من أخبار الإمام الشهيد كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» للعلامة الندوي ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

وكثر المعتنون بعلوم الكتاب والسنة ، والمؤلفون في المقاصد الدينية ، في اللغة الأردية الشعبية في أسلوب سهل واضح .

ونشأت من هذه الحركة التعليمية الدعوية مدرستان تتفقان على الأساس ، وتختلفان في المنهاج ، إحداهما مدرسة «صادق بور»[1] السلفية ، رائدها العلامة ولايت علي العظيم آبادي ، من كبار خلفاء السيد الشهيد ، وأحد العلماء الربانيين في الهند في العهد الأخير ، وهي متشبعة بروح دعوة التجديد ، والجهاد التي قادها السيد الشهيد ، والعلامة الشهيد ، وهي تتسم بالجمع بين الدعوة ، وروح الجهاد ، والعمل بالحديث ، وتزكية النفوس ، وعمارة الباطن ، على طريقة السيد الشهيد ، والإمام ولي الله الدهلوي ، والمجدد السرهندي .

والثانية : مدرسة للعلامة السيد نذير حسين الدهلوي (المتوفى ١٣٢٠ م) وهو تلميذ الشيخ محمد إسحاق بن أفضل الدهلوي ، سبط الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، وقد اشتغل بتدريس الحديث الشريف مدة طويلة ، ورحل إليه العلماء والأساتذة من أقاصي البلاد ، وتخرج عليه علماء كبار ، درسوا وألفوا في الحديث ، منهم العلامة شمس الحق الديانوي ، ومولانا محمد بشير السهسواني ، والحافظ عبد المنان الوزير آبادي ، والعالم الرباني السيد عبد الله الغزنوي الأمرتسري ، وابنه السيد عبد الجبار الغزنوي[2] ، وآخرون ، كان شعارهم العمل بالحديث ، وعدم التقيد بالتقليد ، وتختلف درجاتهم وأساليبهم في التمسك بهذا الشعار ، والدعوة إليه .

وينخرط في هذا السلط المؤلف الكبير العلامة السيد صديق حسن القنوجي البهوبالي المتوفى (١٣٠٧) وهو معاصر للسيد نذير حسين

---

(١) صادق بورحي : هو من أحياء مدينة «بتنة» عاصمة ولاية بهار ، كانت مركزاً لأنصار السيد الشهيد .

(٢) وكانا أقرب إلى مدرسة السيد الشهيد من زملائهما الآخرين؛ بالجمع بين العمل بالحديث ، والربانية الصافية ، والروحانية القوية .

www.abulhasanalinadwi.org

الدهلوي ، وتخرج على تلاميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، والشيخ محمد إسحاق بن أفضل ، وعلى علماء الهند المحدثين ، وقد خدم علومَ السنة بالتأليف والنشر ، وبذل الأموال الطائلة ، واحتضن العلم والعلماء.

ثورة الهند ، وردّ فعلها:

وفي سنة (١٨٥٧ م) ثار المسلمون ثورة عظيمة للتخلص من الإنجليز ، ولكن أخفقت هذه الثورة ، وحلَّت الحكومة الإنجليزية محل شركة الهند الشرقية ، فكان الأمرُ أشد. ودخلت الهند في حكم بريطانيا المباشر ، وكونت الإمبراطورية الإنجليزية ، فتسرب اليأس على نفوس المسلمين ، وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم ، وضعفت روح المقاومة ، وهاجر كثيرٌ من العلماء ورجال الدين إلى الحجاز ، وأصبحوا يعتقدون أن الحكم الأجنبي في الهند ضربة لازب ، وانبث دعاةُ المسيحية والقسس في القرى والمدن يدعون إلى المسيحية علناً ، ويشنّعون على العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية ، ويعلنون أن دولة الإسلام قد زالت ، وأن عهده قد انقضى ، ودخلت الهندُ في الحكم المسيحي ، فليتهيأ المسلمون لاستقبال هذا الحكم ، وليقبلوا على دين الحكومة ، وطبقت الحكومة نظام التعليم المدني ، وهو يهدفُ إلى تخريج طراز من الناشئة ، لا يصلح إلا لإدارة جهاز الحكومة الإنجليزية وتنفيذ برامجها ، وكثيراً ما كان أفراد الجيل الجديد ينسلخون عن الإسلام انسلاخهاً كلياً ، ويثورون على الحضارة الإسلامية ، والديانة الإسلامية بتأثير التعليم والتربية في مدارس الحكومة؛ التي كان يديرها الإنجليز ، أو أشباه الإنجليز ، وبسبب «مركب النقص» الذي أصيب به المسلمون في عصر الاحتلال ، ودهشة الفتح التي أصابتهم ، فأصبح المسلمون في عقر دارهم ، يغزون سياسياً وثقافياً ودينياً ، وانقطع الأمل في كل ثورة ، وانقلاب عسكري.

معهد ديوبند وخدمته للدين:

ولم ير العلماءُ أمامهم طريقاً إلا فتح المدارس العربية ، والمعاهد الدينية ، فأنشؤوا هذه المعاقل ليحتفظوا ببقايا الحياة الإسلامية ، وليكافحوا

www.abulhasanalinadwi.org

تيار الغرب المدني والثقافي ، ويخرجوا منها دعاة الإسلام والوعاظ والمرشدين وعلماء الدين ، فليحفظوا على المسلمين دينهم ، ويعيدوا الثقة إلى نفوسهم ، فأسَّس مولانا محمد قاسم النانونوي (م ١٢٩٧ م) (مدرسة ديوبند) سنة ١٢٨٣ هـ ، وأسس مولانا سعادت علي (مدرسة مظاهر العلوم) في سبهارنفور في نفس ذلك العام ، ثم تواترت المدارس الدينية في أنحاء الهند ، وقد كان لهذه المدارس فضلٌ كبير في نشر الدين والدعوة الإسلامي ، وفي نشر الثقافة في طبقات الشعب ، ومحاربة البدع والخرافات ، وبث الروح الدينية في الجماهير ، وقد نجحت هذه المدارس في رسالتها الدينية نجاحاً باهراً.

وكان لأحد أبناء دار العلوم ديوبند ، وهو الشيخ أشرف علي التهانوي (م ١٣٦٢ هـ)[1] سهم كبير في نشر العقيدة الصحيحة ، وإصلاح النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والدعوة إلى الله. وقد عمل وحدَه عمل مجمع علمي كبير ، وألف كتباً ورسائل تربو على ثمانمئة ، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً ، وأثرت في المجتمع الهندي الإسلامي تأثيراً عظيماً.

سر نجاح هذه المدارس:

وسرُّ نجاح هذه المدارس ـ كديوبند ، وشقيقاتها ـ في أداء رسالتها ، ونشر الدين والعلم ، أنها لم تكن تنال مساعدةً من الحكومة ، وكانت قائمة **على أساس الزهد والتضحية والجهاد ، فأثار ذلك فيها روح المقاومة والجهاد ، وقوة العلم والنشاط ، ثم إن أبناءها المتخرجين لم يكن لهم أملٌ ـ بطبيعة الحال ـ في وظائف الحكومة والرواتب الضخمة ، لأنهم تخرجوا من مدارس حرة لا صلة لها بالحكومة ، فألجأ ذلك أكثر المتخرجين إلى الانقطاع إلى الشعب دون الحكومة ، والتجرد للدعوة ، والخدمة دون المناصب والرواتب ، وهكذا وجد دعاة متجردون محتسبون متطوعون ،**

---

(١) انظر للاطلاع على ترجمته بكاملها كتاب المؤلف «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري».

www.abulhasanalinadwi.org

يقتنعون بالكفاف ، وينقطعون إلى الدعوة والرسالة ، فقاموا بأعمال إصلاحية لا تقوم بها أكبر دولة .

ندوة العلماء ومعهدها :

ولما رأى بعضُ العلماء أن الهوة قد اتسعت جداً بين التعليم المدني والتعليم الديني ، وحدثت بين المتخرِّجين من المدارس الدينية والمتخرجين من المدارس المدنية فجوة وجفوة تتسعان على مر الأيام ، حتى أصبح أولئك أمة وهؤلاء أمة . ولكل أمة لغة خاصة ، وثقافة خاصة ، ونفسية متميزة ، لا يفهمها الآخر ، بل أصبح التعليمُ الديني في واد والعصر الحديث في واد ، ولا جسر بينهما ، وقد أصبح هذا العصر يطلب من العالم الديني ثقافة أوسع ، وأسلوباً للدعوة أرقى ، وأقرب إلى نفسية هذا العصر ، واطلاعاً على ما تجدَّد من العلوم والأفكار والمسائل والحاجات ، أنشأ القائمون على ندوة العلماء ـ وفي مقدمتهم مولانا محمد علي المونكيري ـ مدرسة دار العلوم في لكهنؤ سنة ١٣١٦ هـ ، ورسالتها الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، والتصلُّب في العقيدة والمبادىء ، والتوسُّع في الجزئيات والوسائل ، وقد خرجت علماء ومؤلفين ، كانوا ملتقى الثقافتين ، وبرزخاً بين الطائفتين ، وقد ألفوا في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي كتباً هي خير ما ألف إلى الآن للجيل الجديد ، ولا يزال كتاب «**سِيْرَةُ النَّبِيِّ**» في ستة مجلدات كبار للعلامة شبلي النعماني (م ١٣٣٢ هـ) وتلميذه الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي[1] أعظم مؤلف في السيرة النبوية وتعليمات الإسلام ، لا يوجد له نظيرٌ في مكتبة الإسلام الحديثة ، ولا يزال لهذا المركز التعليمي نشاط وإنتاج[2] .

* * *

---

(١) توفي رحمه الله في (١٣) من ربيع الأول عام ٣٧٣١ هـ (١٦ نوفمبر ١٩٥٣ م).

(٢) عثرنا على أن أحد أساتذة دار العلومِ ندوة العلماء يقوم بترجمة هذا الكتاب العظيم بالعربية .

www.abulhasanalinadwi.org

حركة التبليغ

وصاحبُ دعوتها مولانا محمّد إلياس

و[أخيراً] أختصر وأزين حديثي هذا بذكر دعوة وحركة دينية قوية ، كان لي شرف الاتصال بها عن كَثَب لا عن كُتُب ، وشرف التعرف بمؤسسها ـ وبالأصح داعيها ـ وقد صحبته مدة ، ورافقته في السفر والحضر ، فهذا لونٌ جديد من الحديث ، وأريد أن أحدثكم أولاً عن صاحب هذه الدعوة ، فإن الفكرة تتضح كثيراً بمعرفة صاحبها ، وهنا أكرر لكم ما تحدثت به من محطة الإذاعة الهندية في دهلي عن صاحب هذه الدعوة ، وتأثري به ، وكان موضوع الحديث : «رجال عرفتهم ، وأعجبت بهم» .

«في سنة ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠) خرجت مع رفيقين أطالع مشاريع التعليم والتربية ومراكزهما في الهند ، وانتهت بي هذه الرحلة إلى دهلي ، ومنها إلى ميوات ، الرقعة التي هي مشهورة في التاريخ باللصوصية والشطارة والنهب والغارة ، حتى كانت أبواب سور مدينة دهلي تقفل من بعد الغروب خوفاً من هؤلاء اللصوص ، فسمعت أنها بحال كبير لإصلاح ديني خُلُقي جديد ، ولما زُرتها وجدتُ انقلاباً مدهشاً في الأخلاق والنفوس ، تنقلبُ في القرى والأماكن ، وتتبعت الأخبار ، فعلمت أن الناسَ الذين كان القتل عندهم أهون شيء ، وقد يقتلون الإنسانَ لأمر تافه ودرهم زائف ، صاروا الآن يحرسون الأموال والأعراض ، ويعفون عن المحارم ، رأيت فيهم إقبالاً على العلم ، وتواضعاً ، وحفاوة ، وضيافة ، ودماثة خلق ، وإيثاراً

www.abulhasanalinadwi.org

على النفس ، وألفة ، ومودة ، لا تواجدان في هذا العصر المادي ، وعزوفاً عن الشهوات ، وصبراً على المشاق ، وإيماناً ، وصلاحاً ، وعلمتُ أن ألوفاً من الناس هناك تأثروا بهذا الإصلاح ، وانقلبت نفسيتهم انقلاباً عجيباً .

هنالك فحصتُ عن منبع هذا الانقلاب ، فسمعتُ أن لا جمعية ، ولا جامعة ، ولا دعاية ، ولا صحيفة ، ولا كتاب ، إنما هو رجلٌ متواضعٌ في دهلي ، قد بث الروحَ في هذه الأمة المنحطة ، وهذَّب النفوسَ ، ونشر الدين والعلم ، وحَدَا بي الشوق إلى زيارته ، فجئت إلى دهلي ، فإذا هو رجلٌ نحيف ، أسمر اللون ، قصير القامة ، كثّ اللحية ، تشفّ عيناه عن ذكاء مفرط ، وهمة عالية ، وعلى وجهه مخايل الهمِّ والتفكير والجهد الشديد ، ليس بمفوَّه ولا خطيب ، بل يتلعثم في بعض الأحيان ، ويضيق صدره ، ولا ينطق لسانه ، ولكنه كله روح ونشاط وحماسة ويقين ، لا يسأم ، ولا يملُّ من العمل ، ولا يعتريه الفتور والكسل .

صحبت (مولانا محمد إلياس) مركز هذا النشاط الذي وصفته مدة طويلة ، ورافقته في السفر والحضر ، فرأيت نواحي من الحياة لم تنكشف لي من قبل ، فمن أغرب ما رأيتُ يقينه الذي استطعت به أن أفهم يقين الصحابة ، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافاً واضحاً ، كاختلاف الصورة والحقيقة ، وإيماناً بحقائق الإسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات والمحسوسات ، وبخواص الأشياء والأدوية ، مضارها ، ومنافعها ، وبتجارب حياتنا ، فكان كلُّ شيء صح في الشرائع وثبت من الكتاب والسنة حقيقة لا يشك فيها ، وكأنه يرى الجنة والنار رأي عين .

ورأيته في حالة عجيبة من التألم والتوجع والقلق الدائم ، كأنه على حَسَك السَّعْدان ، يتململ تململ السليم ، ويتنفس الصعداء لما يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة ، وعن غاية هذا السفر العظيم ، وعن خالق هذا الكون ، ومن الاستهانة بقيمة الحياة وتضييعها في غير محل ، ولا أجدُ له مثلاً إلا كالذي يرى الحريق في بيت وقد أحاطت النيرانُ بأولاده وأسرته

www.abulhasanalinadwi.org

ونفائسه ، فيصرخ ، ويضطرب ، ولا يقر له قرار ، وعرفتُ برؤيته معنى الحب ، وفهمت ما رُوي عن العشاق والمتيمين ، ومن استولى عليه الحب ، وصدقت ما نُقِل عن الأنبياء من الحزن ، والقلق ، والحرص على الهداية .

ثالثاً وأخيراً ، رأيتُ في هذا الجسم النحيل؛ الذي كان يعجزُ عن أن يحمل ثقله روحاً قوية جداً ، وقوة إرادة وقلب ، لم أجدْ مثلها في الشبان الأقوياء ، والأبطال الأشداء ، فكان يتحملُ من المشاق ما ينوء بالعصبة أولي القوة ، وقد يظلُّ في أسفاره أياماً متوالية لا يأكل فيها لشدة الاشتغال ، ويسهر ليالي ، وأعجب ما رأيتُ أنه كان في مرضه الذي توفي فيه لا يستطيعُ القيامَ والقعود ، ولكنه يأتي إلى الصف يتهادى بين رجلين ، ويقوم للصلاة ، ولا يستقل بنفسه ، فإذا كبَّر الإمام تركه الرجلان ، وقام بنفسه ، كأنه غير الرجل ويقوم ويركع ويسجد من دون مساعدة ، حتى إذا سلم الإمامُ خارتْ قوته ، وعاد ضعيفاً لا يستطيع النهوض ، وبقي هكذا شهوراً ، وما فاتته في مرضه صلاةٌ إلى الليلة التي توفي فيها .

الدعوة ومبادئها :

هذا صاحب الدعوة ، وكلمة وجيزة عن الدعوة .

لقد رأى مولانا محمد إلياس ما أصاب المسلمين من التحلل والإفلاس في الإيمان والروح ، والشعور الديني في هذه المدة ، وما أثرت فيهم الحكومة الإنجليزية ، والحضارة الغربية والتعليم المدني ، وغفلة الدعاة ، والاشتغال الزائد بالحياة ، والانهماك بالمادة؛ حتى صارت المدارس الشرعية ، والأوساط الدينية كحجزر في بحر محيط ، وأصبحتْ تتأثر بمحيطها الثائر على الدين ولا تؤثر ، بضعفها وعزلتها عن الحياة ، فرأى أن التعليمَ وحده لا يكفي ، والاعتزال لا يفيد ، والانزواء لا يصحُّ ، ولا بُدَّ من الاتصال بطبقات الشعب ، ولا بُدَّ من التقدم إليها من غير انتظار؛ لأنها لا تشعر بمرضها وفقرها في الدين ويجبُ أن يبتدأ بغرس الإيمان في القلوب ومبادى الإسلام ، ثم الأركان والعلم والذكر ، مع مراعاةُ الآداب التي تقوي

www.abulhasanalinadwi.org

هذه الدعوة ، وتحفظها من الفتن ، منها: إكرام كل مسلم ، ومنها: عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعي وترك ما لا يعنيه ، وقد دعا إلى هذا النظام بكل قوته ونفوذه ، ودعا إلى الخروج في سبيل هذه الدعوة وبثّها في القرى والمدن ، وبدأ دعوته بمنطقة هي أحطّ المناطق الهندية خُلُقاً ، وأبعدها عن الدين ، وأعظمها جهالة وضلالة ، وهي منطقة ميوات في جنوب دهلي عاصمة الهند ، ودعا الناسَ فيها إلى الانقطاع عن أشغالهم ، والخروج من أوطانهم لمدة محدودة ، قد تكون شهراً ، وقد تكون أكثر من ذلك ، وعرف أنهم لا يتعلّمون الدين؛ ولا يتغيرون في الأخلاق إلا إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد الذي يعيشون فيه ، وقد قبل دعوته مئاتٌ وألوف من هذه المنطقة ، وخرجوا شهوراً ، وقطعوا مسافات بعيدة ما بين شرق الهند وغربها ، وشمالها وجنوبها ، ركباناً ومشاة ، فتغيرت أخلاقهم ، وتحسَّنت أحوالهم ، واشتعلت عواطفُهم الدينية ، وانتشرت الدعوةُ في الهند وباكستان من غير نفقات باهظة ، ومساعدات مالية ، ونُظُم إدارية ، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة في صدر الإسلام ، وتذكّر بالدعاة المخلصين المجاهدين المؤمنين؛ الذين كانوا يحملون في سبيل الدعوة والجهاد متاعهم وزادهم ، وينفقون على أنفسهم ، ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين[1].

وقد توفي إلى رحمة الله تعالى في رجب عام (١٣٦٣ هـ) وخلفه نجله الشيخ محمد يوسف ، وقام بأعباء الدعوة خير قيام ، وفي عهده توسَّعت الحركةُ توسعاً كبيراً ، وانتشرت بعثاتها في العالم الإسلامي وفي المغرب ، ودعا إلى الإيمان ، وإيثار الروح على المادة ، والآخرة على الدنيا ، والاعتماد على الله ، وبذل الوسع والطاقة في سبيل الله ، دعوة قوية صريحة أثرت في ألوفٍ من الناس ، فأصبحوا دعاةً متطوعين ، ولا يزال مقرّه «نظام

---

(١) انظر للاطلاع على حياة الشيخ إلياس الكاندهلوي وعلى دعوته إلى الله ، كتاب العلامة الندوي «الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته» صدر من دار ابن كثير بدمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

الدين» في دهلي مركز حياة دينية ، ودعوة إيمانية ، يؤمُّها الناسُ من جهات بعيدة[1] .

جهود المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة :

هذا تاريخُ الدعوة الإسلامية في الهند باختصار ، وهذه مراحلها ، وأدوارها ، ووصفها الموجز ، وأنا أعتقدُ أن الدعوة في حاجة دائمة إلى التجديد والتفكير ، والتطبيق بين الإسلام الخالد والعصر المتغير ، واستعراض الشؤون والمسائل ، وما يطرأ على الحياة والعقول من الضعف والقوة ، والجدة والتطور . وأن العصمة لله وحده ، وأنه لم يختم شيء مما أكرم الله به هذه الأمة إلا النبوّة التي ختمت بمحمد ﷺ آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وأن كل ما ذكرنا نماذج ومثل للدعوة الإسلامية ، وأنماط لها وأساليب ، ومناهج وطرق يلهمها أصحاب النفوس الزكية في مختلف العصور والبلاد ، أو يؤثرونها في ضوء الكتاب والسنة .

جهود إصلاحية وتربوية أخرى :

وقام روادُ الإصلاح ، ومحبُّو نهضة المسلمين وعزّهم بتجارب كثيرة في مجال الدعوة الدينية ، والتعليم والتربية الإسلامية ، ونشر الفكرة الصَّحيحة ، ومكافحة الغرب الثقافي ، والغزو الفكري ، وإعادة الثقة إلى نفوس الشباب المتعلمين بالتعاليم الإسلامية ، والحضارة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامي ، وإزالة العقد النفسية والفكرية ، بأساليب مختلفة وطرق شتى ـ في ضوء تجاربهم ودراساتهم ـ تختلف في النتائج والآثار ، وفي ضيق النطاق واتساعه ، وفي مدى تقبُّل المسلمين لها ، وانتفاعهم بها ، يطول الحديثُ فيها ، وتقصر هذه العجالةُ عنها ، وقد ألفت في التعريف بهذه الجهود والمنظمات وأهدافها ونتائجها ، رسائل وكتب في

---

(١) توفي الشيخ محمد يوسف إلى رحمة الله تعالى في (٢٩) ذي القعدة سنة (١٣٨٤ هـ) وخلفه الشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي (رحمه الله) ، والدعوة في تقدم واتساع .

www.abulhasanalinadwi.org

اللغة العربية ، نُحيل عليها ونشير على القارىء الذي يحبُّ التوسُّع بمطالعتها.

وأنا أعتقدُ كذلك أن جهودَ المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة ، ليست ملكاً لبلد دون بلد ، ولا احتكاراً في شعب دون شعب ، بل هي بضاعةُ المخلصين في كل بلد ، ونبراس المصلحين في كل عصر ، يحقُّ لهم أن يقولوا كلما أهديت إليهم ، ونقلت عن بلاد إلى بلادهم: «**هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا**».

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الفهرس

١ ـ مقدمة الكتاب ٧
٢ ـ ترجمة العلامة أبي الحسن الندوي ٨
٣ ـ ركائز الفقه الدعوة عند العلامة الندوي ١١
٤ ـ بين الصورة والحقيقة ١٩
٥ ـ حكمة الدعوة ومرونتها ومجاراتها لكل بيئة وعصر ٣٠
٦ ـ نموذجان من دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٣٦
٧ ـ نموذجان من دعوة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ٤٢
٨ ـ أمثلة من دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وحكمته النبوية .. ٥٢
٩ ـ دعوة مؤمن ما زال يكتمُ إيمانه نموذج للدعوة غير نبيٍّ ٦٩
١٠ ـ نموذجان من دعوة خاتم الرسل ﷺ وحكمته ٧٩
١١ ـ نموذج دعوةٍ وحكمةٍ لأحد السَّابقين من هذه الأمة ٩١
١٢ ـ تزكية النفس تشغل مكاناً كبيراً في دائرة الدعوة النبوية والبعثة المحمدية ٩٨
١٣ ـ حكمة الدَّعوة وصفة الدُّعاة ١٠٤
١٤ ـ منهج أفضل في الإصلاح للدُّعاة والعُلماء ١٢١
١٥ ـ الدعـوة إلى الله حماية المجتمع من الجاهلية وصيانة الدين من التحريف ١٣٧
١٦ ـ الفتنة المتحدية في مجال الدعوة والإصلاح وطرق مقاومتها ... ١٥٢

www.abulhasanalinadwi.org

١٧ ـ حاجة العالم إلى الدَّعوة الإسلامية ١٦٦
١٨ ـ الدَّعوة الإسلامية في العصر الحاضر جبهاتها الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسية ١٧٧
١٩ ـ دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء وتكوين الدُّعاة ١٨٥
٢٠ ـ الدَّعوة الإسلامية في الهند وتطوُّراتها ٢٠٤
٢١ ـ حركة التبليغ وصاحب دعوتها مولانا إلياس ٢٢٤
٢٢ ـ فهرس الموضوعات ٢٣٠

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org